قمح...
سجيع قرقماز
رواية
سجيع قرقماز ...قمح رواية
في الحروب الكبرى تعرف الأسباب المباشرة و غير المباشرة
لهذه الحروب لكن السبب الحقيقي لا يعرف .
فقد شهد الألف السابع قبل المسيح
بداية زراعة القمح في سوريا .
و يشهد الألف الثالث بعد المسيح
سرقة أمريكا لبذور القمح من سوريا
ISBN 978-91-89288-21-8
دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

... قمح

سجيع قرقماز

الطبعة الأولى 2021
ISBN: 978-91-89288-21-8
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2021-01-23-14-23
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
هاتف: 0046790185518
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

إلى نقماد الثاني ملك أوغاريت

1370- 1340 ق . م

في الحروب الكبرى

تعرف الأسباب المباشرة وغير المباشرة

لكن السبب الحقيقي لا يعرف

فقد شهد الألف السابع قبل المسيح

بداية زراعة القمح في سوريا .

و يشهد الألف الثالث بعد المسيح

سرقة أمريكا لبذور القمح من سوريا .

" أمريكا تقصف حقول القمح في سوريا 18 شباط 2020 "

ريف اللاذقية- آب 2013-

غاندي

" عام 2010 انتقلت مع أسرتي من دمشق إلى ريف اللاذقية ، بنينا بيتاً بسيطاً ، وأحب الأطفال أن أشتري لهم عنزة . اشتريت العنزة ، وكانت هادئةً غير مشاكسة، فسميناها غاندي تيمناً بالمهاتما غاندي. صار للعنزة جديٌ صغير، كان الأطفال يهتمون به وبأمه ، وكانت زوجتي تحلب العنزة كل صباح ، وتطعم صغاري حليباً خالياً من الغش.

في عام 2013 ، ومع اشتداد المعارك حولنا في ريف اللاذقية ، صرنا نخاف دخول المسلحين إلى قرانا ، مما يضطرنا لترك بيوتنا ، ورغم تعلق الصغارالشديد بالعنزة ، أصرت زوجتي على بيعها، كي لا نغادر ، وتبقى غاندي مربوطةً ، مما سيتسبب في موتها مع جدييها ، حيث لن يطعمها أحد . لماذا أتحمل ذنبها ؟ كانت زوجتي تكرر ذلك دائماً .

اقتحم المسلحون ريف اللاذقية بشكلٍ مفاجيءٍ ، قتلوا وأسروا، ومثلوا بالمئات من العجائز والنساء والأطفال في قريتنا ، وللأسف لم تستطع زوجتي وابنتي الفرار ، فكانتا بين القتلى .

بعد تحرير القرية من المسلحين ، ذهبت اتفقد بيتنا لأفاجأ بغاندي حيةً تلعب مع جديين اثنين ، وما تزال حيةً إلى اليوم !

" شاهدٌ من ريف اللاذقية - طلال سليم"

" فقد طلال سليم في مذابح ريف اللاذقية أكثر من أربعين فرداً من أفراد عائلته ، بين ضحايا وسبايا . ومنهم زوجته (عواطف 40 عاماً) وابنته (لجين 13 عاماً)أما ابنتاه (حنين 9 سنوات، وجوى 7 سنوات، وابنه وجد 4 سنوات) فقد اختطفوا . "

ريف اللاذقية 2013

ولدت في ريف اللاذقية ، في قريةٍ لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي شهدت ما سمي بالأحد الأسود .

أنهيت دراستي للأدب الإنكليزي ،ثم عملت في الصحافة . وعندما بدأت الحرب على سوريا ، كنت مراسلاً حربياً في ريف اللاذقية أتابع ما يجري هناك . كان ذلك في بداية شهر آب 2013 ، في الوقت الذي حدثت المجازر الأبشع بحق المدنيين .

الأسوأ أن هذه المجازر ارتكبت باسم الإسلام ، ونفذت من فئاتٍ إسلاميةٍ متطرفة كانت غايتها طائفيةٌ بامتياز . ورغم بشاعة ماحدث من تنكيلٍ وقتلٍ ،وقطع رؤوسٍ ، وتقطيع أوصالٍ باسم " الله أكبر " في أكثر من مكانٍ في سوريا ، لم يك أحدٌ بداية شهر آب 2013 يتصور أن العنف سيصل إلى هذه الدرجة ! ولم يك أحدٌ يحسب حساب عنف هذا الهجوم المباغت على السكان المدنيين وهذه الوحشية التي ارتكبت بحقهم ، يبدو أننا لم نكن قد قدرنا بعد همجية هذه العصابات ، وعدم تقيدها بأية أصولٍ لا للحرب ولا للسلام ، بل إن عملها هو الذبح والقتل و تخويف المدنيين الموجودين ، والذين تحول مئاتٌ منهم خلال ساعات ، إلى أوراق نعيٍ جماعيةٍ .

فجر السبت 3 آب انطلقت من قريتي (رويسة القسيس) التي تقع شمال شرق مدينة اللاذقية ، وتبعد عنها 25 كيلومتراً ، انطلقت إلى عرامو والقرى القريبة منها ، برفقة زميلي المصور نادر منى وجهتنا هي قرى ريف اللاذقية،ولقاء صديقي علي الجردي الأستاذ في قسم التاريخ القديم في جامعة تشرين في اللاذقية ، وهو يعيش قريباً من إحدى هذه القرى .

هدوءٌ كاملٌ للفجر ، هروبٌ تدريجيٌ للظلمة ، يقود نادر سيارة البيك آب التابعة للجريدة بحذرٍ شديدٍ في طرق ترابيةٍ توازي طريق عام اللاذقية ـ صلنفة .

مع اقترابنا من هذه القرى تركنا الطريق الترابية ، وضعنا السيارة في غابة الشيخ حسامو ، و عند مفرق عرامو كان حاجز الجيش السوري ، اتجهنا إليهم ، قدمنا هوياتنا ومهماتنا الصحفية، رحب رئيس الحاجز الشاب بنا ، فهم مهمتنا ، حذرنا من الاقتراب من مناطق الاشتباكات، والمراقبة من بعيدٍ فقط ، بدأنا السير باتجاه القرية .

صيف هذا العام يبدو هادئاً حتى الآن ، والحياة طبيعيةٌ في عرامو كما بدت لنا من بعيد، وكذلك القرى المحيطة بها . كنا نتسلى بتصوير بعض التفاصيل الصغيرة للنباتات والزهور، وتعدد ألوانها بين الأحمر والأصفر والأشجار التي رسمتها الطبيعة لوحاتٍ نادرة.

كان نادر قلقاً يتساءل : أيمكن لهذا الهدوء أن يكون ساحة معركة ؟

- ولم لا ، أجيبه ، تقارير من أكثر من مصدر تتوقع هجوماً على هذه المنطقة ! ربما هو هدوء ماقبل العاصفة .

ومع قلقه يتابع ، مبدياً عدم خوفه :

- أين العاصفة يارجل ؟

أفهم ما يدور في نفسه ، لكني لا أجاريه خوفه أو قلقه ، أطمئنه :

- لن نبحث عن العاصفة يا صديقي ، بل سنعمل على الهروب منها إن أتت .

لكن قلقه يظهر أكثر ، يسأل ثانيةً :

- وهل بيت صديقك علي بعيد ؟
- دقائق وسنكون عنده .

تابعنا سيرنا في جوٍ ربيعيٍ لا يشي بأية مشاكل ، قبل عرامو بقليل ، رأينا بيت علي وهو يجلس أمامه ، تعانقنا ،رحب بنا، قدم لنا الشاي ، قدمت له نادر مصور الجريدة ، رحب به علي مقدماً نفسه مرحباً بنادر و بي ثانيةً ، وجهنا إلى غرفةٍ داخلية ، كي نضع أمتعتنا ، شكره نادر متسائلاً عن الوضع الأمني في المنطقة ، وإذا كانت هناك معارك في مناطق قريبة ! أكد علي أن هناك أحداثٌ فرديةٌ فقط في جبل الأكراد

والتركمان، وهما خلف تلك القرى التي تظهر لنا من البعيد ، مضيفاً أن هناك مجموعاتٌ مسلحة تهدد المنطقة ، وهناك خوفٌ من تنفيذ تهديدها،علماً أنه لايوجد مواقع للجيش في المنطقة ، ولا أية مظاهر مسلحة ، بما لا يدع مبرراً لأي هجومٍ محتمل عليها .

- طالما هناك تهديد ، لماذا تبقى هنا ، ولماذا يبقى الآخرون في منطقةٍ معرضةٍ للهجوم ؟ سألته .
- حتى الآن نظن أن هذه المجموعات لا تجرؤ على ذلك .
- ما الذي يمنعها ؟ أردف نادر .

سرح الرجل بعيداً ،انتابه قلقٌ مفاجيءٌ ، قام ليحضر الشاي من جديد ، تحرك نادر إلى الداخل ، رن هاتفي ، رئيس قسم الأخبار في الصحيفة يطمئن علينا .

- أنا قريبٌ من عرامو في ريف اللاذقية ، المكان هاديءٌ حتى الآن ، وسأوافيكم بكل جديد .

عاد نادر، مع بضعة صحونٍ كعشاءٍ خفيفٍ ، أحضر علي قنينة عرقٍ بلديٍ، صب ثلاثة كؤوس ، شربنا نخب التعارف .

- نادر ، يجب أن تكون معي في لقائي مع حنا وبابلو .
- أجل ، لكن ، من هما ؟ لا أعتقد أنني أعرفهما .
- أتذكر مايكل مور ؟
- بالتأكيد ،التقيته برفقتك أكثر من مرة في اللاذقية .
- جيد تعرف أني على علاقة جيدة مع مايكل المختص بالعصورالكلاسيكية ، وكنت ألتقيه كثيراً ؟
- طبعاً .
- مايكل الذي كان يدير الأعمال الأثرية في تل تنينير ؟ سأل علي .
- أجل برفقة زوجته كاتي ، وفريق العمل الذين التقيتهم في مشقيتا .
- أذكرهم جيداً ، أردف علي .

- بعد أن بدأت هذه الحرب اللعينة على سوريا ، صرت أشك بطبيعة عمل مايكل،وأنه لم يكن موجهاً إلى التاريخ والآثار ، بل كان أبعد من ذلك بكثير .
- ماذا تقصد ؟ سأل نادر .
- ما الذي جعلك تشك ، ولماذا مع بداية الحرب ؟

سألت علي من جديد :

- اطلعت من خلال دراستك على بداية الزراعة ، وتحديداً بداية زراعة القمح .
- منذ سبعة آلاف عامٍ تقريباً ،تابع علي ، والجزيرة السورية هي الموقع الأول الذي احتضن بذور القمح الأولى في التاريخ .
- إذاً هل يمكن أن يكون تل تنينير ، قرب الحسكة من الأماكن التي زرع القمح فيها في تلك الفترة ؟
- ولم لا رد علي،لا تنسى ان اسم التل مشتقٌ من التنور ! والجزيرة السورية مع نهر الفرات هي المكان الأول لزراعة القمح
- وهل يمكن أن نتصور أن مهمة مايكل وفريقه كانت على علاقةٍ ببداية زراعة القمح ، وببذور القمح ،وليس بالآثار الكلاسيكية التي هي اختصاص كاتي زوجة مايكل ؟
- يمكن ذلك ،خاصةً إذا أخذنا بالاعتبار أن البعثات الأثرية الأمريكية نادرةٌ في سوريا ، وتحت غطاء البحث الأثري ، فإن مور وفريقه كانت لهم مهمةٌ طارئة هي الحصول على نماذج من بذور القمح لدراستها ومعرفة محتوياتها بدقة . تابع علي .
- وأظن أن مايكل مور انطلق من تل تنينير في الحسكة ، ليتابع مهمته باتجاه الغرب ، وصولاً إلى الايكاردا - المركز الدولي لأبحاث الأراضي الجافة - حيث بنك بذور القمح السورية ، وحيث اطلع على التنوع الكبير في هذه البذور، وقارنها مع

تلك التي كان يستخرجها من تل تنينير ثم أخذ عيناتٍ منها كلها منهياً أعماله الأثرية !

- يمكن ذلك أكد علي ، قلت لي أن مايكل مور وفريقه غادروا منذ خمس سنوات ، وأن حنا وبابلو ، يتوليان من وقتها متابعة التنقيب في التل ؟
- أجل يا صديقي ، بسبب معرفتي بأن الأمريكان لا يمكن أن يقدموا أية خدمةٍ لسوريا أو لشعبها ، وبأن مايكل مور وزوجته متخصصان بالعصور الكلاسيكية ، فقد وضحت للقائمين على الآثار في سوريا ، إشكالية عمل مايكل وفريقه في تل تنينير ، وضرورة أن يتأكدوا مما كانوا يقومون به، فاستجابوا لطلبي ، وكان لا بد من دارسٍ مهمٍ موثوقٍ ، فاقترحت عليهم أن يقوم بالمهمة صديقي حنا السعد التونسي المختص بالتاريخ القديم ، برفقة أستاذه الاسباني بابلو المختص بالبيولوجيا ، لتقييم العمل الذي قامت به البعثة الأمريكية . بابلو وحنا اضطرا لإنهاء عملهما في تل تنينير بسبب الحرب، وهما الآن في طريقهما إلى اللاذقية ، حيث سنعرف منهما الخبر اليقين عند التقائنا بهما .
- نأمل ألا يطول اللقاء ، تابع نادر .
- لنشرب في صحتهما إذاً ..
- لكن ما الذي جعلك تفتح هذا الملف اليوم ؟ وما مشكلة مايكل وكاتي مور ؟ هل هما متورطان كما تعتقد ؟

ليس بالضرورة مايكل وكاتي كعالمي آثار ، هما يقومان بعملٍ علميٍ بحثيٍ ، لا يدريان ربما كيف ستسيس نتائجه ، وتعرفون أن الكثير من الاكتشافات العلمية كالذرة والديناميت تم استخدامهما بشكلٍ سلبيٍ . لذلك لا أدين عمل مايكل وفريقه ، بل عمل وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية التي تفتعل بالعادة حروباً بالوكالة لأسبابٍ غير معروفةٍ لدى الآخرين، ففي حين تعرف الأسباب المباشرة وغير المباشرة للحروب الكبرى يا نادر ، فإن السبب الحقيقي لا يعرف يا علي .

- أتعتقد أن لبذور القمح دوراً في ذلك !
- إذا أخذنا بالاعتبار اجتياح الجراد لحقول القمح في كاليفورنيا منذ ثلاث سنوات ، وقضائه على محصول القمح الأمريكي ، ولم يسلم سوى نوعٍ واحدٍ من البذورالمزروعة ، وهو القمحية السورية ، فإننا يجب أن نتساءل إذا كانت القمحية هي هدف الولايات المتحدة ، إضافةً إلى هدفٍ آخر واضح للأمريكان والروس ، ويبدو أنه متفقٌ عليه بينهما وهو الغاز والنفط !
- النفط والغاز سببٌ أكيد يا صديقي ، لكن دعنا ننتظر حنا وبابلو ،تابع علي ، وتناول عوداً عتيقاً وبدأ يدوزن أوتاره ، ويدندن قبل أن يصدح بالعتابا والميجنا .

اعدنا ملء كاساتنا ، شربنا أنخاباً متعددة ، تابع علي مواويله التي كانت حزينةً هذه الليلة على غير العادة ... ختمها بموال :

ألا يا ديب بكاني عويلك ياريته يجتمع ويلي عويلك

وكأن كاسات العرق سرعت في نومنا القلق ، وكأن أصواتاً غريبةً بدأت بالانتشار .. أصوات ذئابٍ ملأت فضاءات المكان .. ازداد عويلها ، لكن هذا ليس ماكنا نتحدث عنه قبل أن يداهمنا النوم ، بل يبدو حقيقياً .

صرخ نادر . أسرع علي. ركضت. لا ندري إلى أين ، نتطلع بلا هدفٍ غير مدركين لما يحدث ، نحاول معرفة مصدر الأصوات ، كأننا نتشارك معاً حلماً ما قبل أن نستيقظ ! لكنه ليس حلماً ، إنه كابوسٌ حقيقيٌ ..

أصوات انفجاراتٍ متعددة ، أصوات إطلاق الرصاص بدأت تملأ المكان ، خرجنا من البيت، كانت جهة الشمال الشرقي تلتهب بأصوات الانفجارات، تضيئها الكشافات وكأن الصبح قد طلع ، كانت الساعة حوالي الرابعة والنصف فجراً ، أخذ نادر آلة التصوير ، وبدأ يقرب المشهد قدر استطاعته ، لحقت به بالآلة الثانية خاصتي ، وبدأنا نصعد تلاً

يرتفع حوالي ثلاثين متراً ، بينما كانت الأصوات تزداد وضوحاً كلما ارتفعنا ...

كان علي يناديا من أسفل التل يحثنا على النزول وترك مكاننا المكشوف ، فالقذائف العشوائية كانت تقترب منا ، لكن قساوة مانرى منعتنا من النزول ، يجب علينا تسجيل مايحدث قدر الإمكان ، المشاهد التي تلتقطها آلات التصوير مرعبةٌ ، قتلٌ لمجرد القتل، لقطاتٌ تظهر قساوة الحيوان الوحيد الذي يقتل لمجرد القتل.. الإنسان .

صوتٌ عنيفٌ اخترق الهدوء ، وصلني جزءٌ بسيطٌ منه قبل أن أفقد وعيي لما يدور من حولي ، خدرٌ كبيرٌ اجتاح جسدي كليةً ، تحملت شيئاً بسيطاً منه فقط ، في البداية فكرت بالاستجابة لنداءات علي وحاولت النزول ، لكني سقطت . إلى أين !

أذكر أن جسدي كان ينحدر إلى هوةٍ سحيقةٍ . كان يجر بفعل جاذبيةٍ قويةٍ إلى منحدرٍ لا مرئي، أذكر أن الخدر بدأ يشل جسدي تدريجياً ، لأصل طريقاً لا حياة فيه .

ما الذي حدث !

" ... فجر الأحد 4 آب 2013 ، انطلقت من جبل الأكراد وجبل التركمان المحاذيين للحدود السورية التركية وبدعمٍ من الجيش التركيٍ في الريف الشمالي لمدينة اللاذقية ، كتائب تابعةٌ للمنظمات الإسلامية الأصولية بينهم أعدادٌ كبيرةٌ من المرتزقة الليبيين والسعوديين والإيغور الصينيين ، والشيشان وعشرات الدول الإسلامية والأوروبية، في هجومٍ جماعيٍ على عدة محاور باتجاه قرىً صغيرةً تابعة لناحية صلنفة ، حيث انتشر الآلاف من أفراد هذه المجموعات المسلحة داخل القرى الصغيرة، و أقدموا على ذبح المدنيين ، وتمت إعداماتٌ جماعيةٌ ، وخطف عشرات الأسر، واحتجازهم في أماكن مجهولةٍ ،إضافةً إلى فقد عددٍ كبيرٍ من السكان .

روى العديد من سكان ريف اللاذقية الشرقي ، عن حالاتٍ أخرى قام فيها المتوحشون بقتل الذكور البالغين من أفراد العائلة ، ثم أسروا النساء والأطفال كرهائن ، و بدا واضحاً أن هذا الهجوم البربري ذو دوافع طائفيةٍ عندما تعمد الإرهابيون الإضرار بالمقامات الدينية ، ونبش رفات الشخصيات الدينية المدفونة في المقامات، واختطاف وإعدام مشايخ من المنطقة .

أبيدت في هذه المجازر التي استمرت حتى 18 آب أسرٌ بكامل أفرادها ، و بلغ عدد القتلى في القرى مجتمعةً 400 قتيلٍ ، إضافةً إلى 136 مخطوفاً ، وعددٌ غير معروفٍ من المفقودين . وعرفت هذه المذابح بأنها من أكثر المذابح دمويةً في حق المدنيين أثناء الحرب على سوريا ، ومن أوضحها بالنسبة للدوافع الطائفية ، واللعب على الوتر الطائفي "

هذا اللعب كان سمةً للحرب على سوريا ، وكما فعل الإرهابيون في ريف اللاذقية فعل أمثالهم أفظع من ذلك بحق الإيزيديين ..

لقد جلبت الحرب على سوريا مصطلحاتٍ كان يبدو أنها انتهت منذ مئات السنين منها : الجهاد ، جهاد النكاح ، الحوريات ، الغلمان، الغنائم ، سوق النخاسة ، ممارسة الجنس مع الإماء والسبايا، وقد صرحت إحدى الفتيات بأنها اغتصبت من قبل أربعة عشر وحشاً معاً ! أختان في السادسة والسابعة من العمر اغتصبتا على مدى أيامٍ دون رحمة ، بينما أختهما الثالثة في الثانية عشرة ، أهديت لثلاثة عشر أميراً للتناوب على اغتصابها . بينما قامت فتاتان أخريان بالانتحار سويةً برمي نفسيهما بالنهر ، إحدى المغتصبات فوجئت بأنها حامل ، قتلت الجنين بدمٍ بارد، ولقيت عشرات الفتيات حتفهن بسبب العنف الذي مورس عليهن أثناء الاختطاف والاغتصاب !

أما جوان فكانت تعيش مع زوجها خضر وأولادها في قريةٍ بسيطةٍ تغيرت الحياة فيها عندما وصلتها الأعلام السوداء ...

وضعت جوان وأطفالها الثلاثة وحوالي 50 امرأة من القرية في شاحنة ، وانتهى بهم المطاف في الرقة ، عاصمة الخلافة الاسلامية المفترضة، في سوقٍ لبيع العبيد ، ثم بيعت إلى مقاتلٍ تونسي كان قائداً

مهماً في التنظيم . حاولت الهروب مراتٍ عديدةٍ ، وفي كل مرةٍ يكتشف المقاتل محاولتها الهرب، يحبسها عدة ايام.

بعد أن وضعت جوان طفلها بأيام وأسمته آدم ، تلقت خبر مقتل التونسي في المعركة ، فسلمت آدم إلى دار الأيتام كون أبيه داعشياً غريباً عن مجتمعها اليزيدي . ذهبت لزيارته بعد حين ، وعندما وصلت إلى دار الأيتام ، قيل لها إن آدم مريضٌ ولا يمكن رؤيته ، ولكن ومع إصرار الأم أخبرت المديرة أن الدار منحت الطفل لتتبناه عائلة أخرى، ففقدت آدم ثانيةً ، ولم تعرف عنه شيئاً بعد ذلك ، فاتجهت إلى ملجأ للنساء في شمال البلاد واختفت !

راميتا كانت في العاشرة من عمرها ، وفي منتهى الجمال ، كانت ضفيرتها ما تزال مثلما ضفرتها أمها ، عندما أخذوها في الليل ولم يُرجعوها إلا في الصباح. كانت تمشي بصعوبةٍ والدم يسيل على قدميها . أصيبت بالحمى،وكانت كل دقيقة - وعلى مدى شهرين كاملين- تكرر: آه يا أمي... عندما ماتت راميتا ارتاحت نفس أبيها أبو يوسف اليزيدي .

... يستمر جسدي بالنزول بسرعةٍ كبيرةٍ ، لأصل طريقاً لا حياة فيه ، هل هو طريق الموت ؟ وصلت ! لم أصل ! مت ! لم أمت ! . تشويش . بياض . صمت .

تبع ذلك - كما قيل لي فيما بعد:

سبع محاولاتٍ للبقاء على قيد الحياة....

***

1

المحاولة الأولى للبقاء على قيد الحياة ..

لم أكن قد متّ بعد .

كنتُ ممدداً في تابوتٍ فخم : هادئاً مطمئناً كالنفس الراجعة إلى ربها . جميع من حولي كانوا يتحركون بانفعالٍ يوشي بأنيّ ميْتْ ، استغربت ذلك ، حاولت النهوض ، ترددتْ. بعد قليل أعجبتني اللعبة

- أجل لعبة الموت - اكتشفت أن الموت لعبةٌ مسليةٌ ، جميع من حولك بلهاء لا يعرفون كيف يتصرفون- هذا في البداية طبعاً- لكنهم شيئاً فشيئاً يهدؤون، ويبدؤون بالتصرف كلٌ حسب علاقته بالميت الذي هو أنا .

أنا ، قبل أن أموت كنت أظن الموت مرعباً . لكن عندما متّ - كما يعتقدون - رأيت أني أكتشف أشياءً قضيت سنواتي الستين في محاولة معرفتها دون جدوى ، ويبدو أن الحياة لم تزدني سوى حماقة . ستون عاماً لم أتمكن خلالها من الحكم على من هم حولي :

- ما هي حقيقة علاقتي مع زوجتي وفاء ؟

- كيف تنظر إليّ ابنتي صفاء ؟

- سر حياتي الوحيد وقمري ميرا .

- كيف يراني صديقي الوفي ممدوح ؟

ستون عاماً ، ومن يعش ستين حولاً ولا يعرف ما يدور حوله يستحق الموتَ رمياً بالصرامي العتيقة ، بدل أن يستلقي معززاً مكرماً في صندوقٍ خشبيٍ يبدو غالي الثمن .

كان الجميع منشغلين عني .

حاولت أن ألفت انتباههم في البداية ، لكنني قررت أن أصمت وأتابع ما يجري من حولي ، وخاصةً عندما جاء ممدوح متباهياً بثلاثة آلاف ورقة نعيٍ بين يديه ، دليل حبه الشديد .

- ثلاثة آلاف ورقة ، ستملأ شوارع وأزقة المدينة .

كان يقول ذلك لزوجتي التي ارتدت الأسود سريعاً كي تعبر عن حزنها ، وكان يكرر لابنتي المراهقة :

ـ الله يرحم البابا . كان صديقي الوحيد .

ويبدو أن ابنتي لم تكن تهتم كثيراً بما كان يقوله ، كانت شاردةً لا يوقظها إلا رنين الهاتف ، فتبدأ بالثرثرة مع شخصٍ ما وقد سمعتها تقول :

ـ خلصنا منه ياه .

في البداية لم يخطر ببالي أبداً أنها تقصدني ، كانت تحبني كثيراً ، لكن عندما أراها عمو ممدوح أوراق النعي بدت مسرورةً وهي تقرأ اسمي البارز بسواد مهيب ، حينها تأكدت أنها تقصدني .

علماً بأنني لم أكن قد متّ بعد .

اسمي أمين ساكت المنكود . عملتُ في صحيفة الثورة حوالي أربعين عاماً، كنت مثال الموظف الملتزم بعمله، والمحترم من زملائه . أعيش وحيداً ، لا أهل لي ولا عائلة. بعد أن تجاوزت الأربعين بقليل تعرفت إلى ممدوح وقريبته وفاء التي صارت حرمي المصون ، عشنا حياةً سعيدةً ، ورزقنا بابنتي الوحيدة صفاء .

صفاء ، ما تزال تثرثر على الهاتف. وفاء تبحث في أدراج مكتبي ، لا بد أنها تبحث عن وصيتي ، إذ يجب أن تتلفها فوراً ، وإلا سترث ابنتي كل شيءٍ ، وهذا ما ستخسره زوجتي .

الحق ليس عليها ، بل على الأحمق الذي هو أنا. ستون عاماً لم تعلمني كيف أكون حريصاً ! لماذا لم أضع الوصية عند المحامي ؟ فقد تعثر عليها الآن ، ولن تنفذ ما جاء فيها . لكن ماذا يهمني أنا ، سأكون في القبر حينها .

عندما تذكرت القبر تمنيت لو أني عشت في عصرٍ غير هذا العصر ، في أوغاريت مثلاً ، حيث كان الناس يعمرون قبوراً جميلةً.

وما أزال أذكر محاضرةً لأحد أصدقائي المعماريين ، وهو يشرح فيها طريقة بناء القبر الأوغاريتي . حينها تمنيت أن أموت كي أدفن في قبرٍ كهذا .

لا أعرف إذا كنتم مستعجلين أم لا ؟ أو إذا كنتم ترغبون في سماع قصتي إلى آخرها ؟ ومع أني غير مستعجلٍ ، وأمامي الليل بطوله قبل أن يصحبني الأصدقاء والأحباب إلى القبر الذي سيجهزونه لي .

طبعاً هو ليس كالقبر الأوغاريتي . كان أجدادي الأوغاريتيون ، عفواً ، لا أعتقد أني منهم ، فأنا من الغباء بحيث لا يحق لي الانتماء إليهم ، كانوا يعتقدون أن الحياة تمر بمراحل سبع :

الحمل ـ الولادة ـ الطفولة ـ الشباب ـ الرجولة ـ الكهولة ـ الموت.

لهذا شبكوا سقف القبر الأوغاريتي بسبعة أحجارٍ تستند على جدارين ليتماسكا من خلالها ، ويشكلا قنطرةً جميلةً متماسكة ، وكل حجرٍ يدل على مرحلة ، حتى يصل الإنسان في نهاية المراحل السبع إلى هذا القبر ، كما وضعوا سبع درجاتٍ للوصول إليه .

لكن لماذا أتذكر القبر ؟ والدرجات السبع ؟ والمراحل السبع ؟

لأني أثناء رحلتي هذه بين الولادة والموت، ومن تابوتي إلى القبر ، فكرت سبع مراتٍ أن أبقى على قيد الحياة ، وفي كل مرة كان شيءٌ ما يحدث ، ويعيدني إلى الموت ، ويجعلني أؤجل المحاولة . أما في المرة السابعة فقد قررت ... ماذا قررت ؟

كونوا صبورين قليلاً، سأقول لكم في حينها ، لكن دعونا في المحاولة الأولى الآن ، فلم أكن قد متّ بعد :

تأكدت من ذلك ، قررت أن أفاجئ وفاء المخلصة و صفاء المدللة ، و ممدوح الوفي ، وثلاثة الآلاف ورقة نعيٍ ، وبعض الجيران .. هممت بالنهوض ، لأفاجأ بدخول زميلي العزيز عزيز الملعبجي رئيس فرع اتحاد الصحفيين في اللاذقية ، والذي باغتني ومنعني من النهوض . ترى كيف سمع بالخبر بهذه السرعة ؟ بل وكأنه كان ينتظر خبراً كهذا ؟

دخل واثقاً من نفسه ، يحمل بيده برقيةً من رئيس الاتحاد ، تبادل القبل الحزينة والحارة مع وفاء المخلصة وصفاء المدللة وممدوح الوفي ، تحدث عن حزنه الشديد : خداه الحمراوان الموردان كانا يهتزان بفعل محاولاته الفاشلة في البكاء ، اعتذر عن عدم حضور رئيس اتحاد الصحفيين الذي توعك بالصدفة ، فتح البرقية التي وصلته بالفاكس ، وبدأ القراءة :

" كنتم من أخلص العاملين ، كانت ثقتنا بكم لا تتزعزع ، ومحبتنا نبراساً للدرب الطويل بيننا . جسور المودة لن تنقطع بل ستبقى بيننا إلى الأبد . ندعو الله العزيز الكريم القادر الرحمن الرحيم العطوف الغيور المنتقم الجبار ، أن يغمركم بواسع عطفه ومغفرته . "

المنتقم الجبار يا بن الحرام،ماذا فعلت لك وله ؟ لم أعد أستطيع سماعَ ما يقوله هذا المحب على لسان ذاك المنافق ، ووعود ذلك المنتقم الجبار !

منذ شهرٍ واحدٍ فقط رفض أن يمدد خدمتي ، وكان يستعجل في تسريحي ، وأنا متأكدٌ أنه غير متوعكٍ ، بل أن لعبة بوكر حاميةً منعته من المجيء فكلف عزيزاً بهذه المهمة الصعبة .

كان عزيزٌ يمط حنكه ، ينفخ دخان سيجارته بتصنع ، محاولاً أن يبكي أحياناً ، وأن يلاطف صفاء أحياناً أخرى ، حينها كدت أموت .

مع أني لم أكن قد مت بعد .

بعد وقوعي مع نادر عن التل في ريف اللاذقية ، أخبرني علي أن نادر أصيب برضوضٍ بسيطةٍ نتيجة الوقوع أسفل التل ، بينما أصابتني أكثر من شظيةٍ ناتجةٍ عن قذيفةٍ صاروخيةٍ في أكثر من مكان في جسدي ، لكن أخطرها كان في رأسي . وهذا ماتسبب بأكثر من عمليةٍ جراحيةٍ ، في إحداها كان طبيب التخدير يحاول إيقاظي ففشل ، عدت إلى الطريق الطويل ... بياض ... لا شيء ... ثم مايكل مور ، تل تنينير في الحسكة .

" خمسة آلاف عامٍ

عمر هذا الخبز الشهي

هو الخبز نفسه الذي أكل منه

جلجاميش وأنكيدو"

هاني الراهب

تل تنينير 2007

يقع تل تنينير الأثري في الشمال الشرقي من سوريا ، ويشرف على أعمال التنقيب فيه بعثةٌ أثريةٌ أمريكية ، يقودها عالم الآثار الامريكي مايكل فولر، وتساعده زوجته كاتي ، اللذان غادراه عام 2007 .

بينت أعمال التنقيب التي جرت في الموقع أن مستوطنة - تنينير- تعود إلى عصر نينوى نحو 2700 ق.م. وتعاقبت عليها عدة حضارات من الأكادية والآشورية إلى الكلاسيكية .

اعتاد مايكل ،في نهاية كل موسم تنقيبٍ في تل تنينير أن يزور مع فريقه موقعاً أثريا أو طبيعياً في سوريا ، ومن حسن حظي ، وبحكم عملي كدليلٍ سياحيٍ إلى جانب الصحافة ، كنت دليله في زياراته ، حيث ازدادت أواصر الصداقة بيني وبين الفريق .

قال لي مايكل في إحدى المرات أن كلمة تنينير كانت أصلاً تشير إلى المنطقة الغنية بإنتاج الحبوب على طول وادي الخابور الممتد من الحسكة إلى الشدادي، وربما كان تل تنينير المركز الرئيسي المأهول بين مواقع تخزين القمح السوري .

منذ أيام ، أرسل مايكل بريداً الكترونياً يعلمني فيه أنهم قرروا هذا العام أن يكون الساحل السوري وجهتهم ، وبأنهم سيكونون في اللاذقية ، في الأسبوع الأول من أيلول ، وقد قرر هذا العام أن تبدأ زيارته ، يوم الجمعة صباحاً إلى موقع رأس الشمرة الأُثري - أوغاريت- وطلب أن أختار لهم مطعماً مناسباً يطل على بحيرة مشقيتا ، وأرفق مع بريده رابط بريدٍ إلكترونيٍ لأستاذةٍ جامعيةٍ أنكليزية هي - ميري كلين هارت - سترافقهم في رحلتهم إلى الساحل السوري ، آملاً أن أكون على اتصالٍ معها ، فهي تشعر بأحاسيس غامضة تجاه هذه الرحلة ، خصيصاً الجزء المتعلق باللاذقية ، وتود معرفة بعض الأمور عنها ، وألا أبخل عليها بشيء :

- هيلو ميري. أنا أمين صديق مايكل ، سعيدٌ بالتعرف عليك سيدتي ، أرجو أن تكوني بخير ، اعتبريني صديقاً مقرباً .

- هيلو أمين شكراً لرسالتك ، وأنا سعيدةٌ بمعرفتك ، أخبرني مايكل الكثيرعنك ، لذلك شعرت بإمكانية الاستعانة بك في أكثر من مسألة.

- اطمئني ميري ، سأ قدم أفضل ما لدي، وأظن أن لدي الكثير .

كان مايكل قد أخبرني في رسالةٍ خاصة أن ميري هي شقيقة زوجته كاتي، وهي تعاني تشويشاً ، أسماه عاطفياً ، وكأنها تعود مراهقةً عاشقة بعد أن تجاوزت الستين من العمر . وبأنها تكتب لكاتي متسائلةً عن قوةٍ خفيةٍ تشدها إلى الترحال ، خصيصاً إلى سوريا ، وقد سعدت كاتي، أن شقيقتها ستنضم إلى البعثة في شقها السياحي في سوريا ...

- أمين عزيزي ، انت تعرف أدباء اللاذقية ؟
- بالتأكيد ، وقد أجريت مقابلاتٍ ودراساتٍ وأبحاثاً عن معظمهم .
- جيد ، هذا يعني أنك تستطيع فهم بعض الأفكارعندما لا يرغب الكاتب في إفشائها ؟ لذلك أريد منك أن تقرأ هذه الأبيات :

" ما هي هذه الروح التي ترافقني هذه الأيام ! ما هي هذه القوة الخفية التي توجهني إلى بلادٍ بعيدة ! أربعون عاماً هي في النهاية ، لحظة .آلاف الأميال هي في النهاية، خطوة .هل تذبل تلك المشاعر وهل تعود إلى الحياة بعد يباس ؟.

- أظنك امرأةً تعرف ماتريد ، وتفهم ما يجري من حولها ، لكن هناك غموضٌ ما في حياتك ، وسرٌ وراء اهتمامك بأدب اللاذقية .

- معك حق ، بدايةً قرأت القصيدة الأوغاريتية التي أرسلتها لي رداً على قصيدتي ، وقد أحببتها جداً :

" كل شيءٍ في الطبيعة حيٌ له روح
الحقول مصدر غذاء البشر
وروعة الإنسان ترقد في الأرض
يا الهي أحب الشعب الذي منحته الحياة
أكرمه بالخبز والزيت

ودعه يحيا بأمان "

- تصور أننا في القرن الحادي والعشرين ما نزال نعيش بالخبز والزيت اللذين عاش بهما الإنسان الأول منذ آلاف السنين في بلدكم .

أنا في تل تنينير الآن ، رافقتني أميرة ابنة مايكل ، في جولةٍ على التل ، وشرحت لي أهمية التل ، وأهمية التنور الذي

كان ينضج الحبة لتصبح رغيفاً في تلك الأيام، وكيف كان القمح

أهم مصادر العيش، وأخبرتني أيضاً أننا سنكون في اللاذقية غداً .

اللاذقية ـ أوغاريت 2007

تدخل الحافلة إلى اللاذقية من الشرق ، عبر طريق عام حلب ـ اللاذقية ، الذي يتلون بالاخضر في معظم مراحله، ثم تجتاز مدينة اللاذقية ، متجهةً إلى أوغاريت ، حيث بسياتين الحمضيات على طرفي الطريق ، تصل تل رأس الشمرة الذي يكون بالعادة مغطى بنبات الشمرة العطري، والذي أخذ اسمه منه ، تصل الحافلة التي تقل فريق مايكل إلى ساحة الموقع، يترجل الجميع بحماس ، عناقٌ مع مايكل وكاتي ، مصافحة مع ميري والآخرين ، أميرة تتعلق برقبتي محبةً ، ينشغل الجميع بعدسات كميراتهم ، ويبدؤون بالتنافس على التقاط أجمل الصور التذكارية لمدخل قصر أوغاريت المميز بشكله ، والمتفرد بعمارته، أنادي على الفريق، يتجمعون في مكانٍ عالٍ نستطيع من خلاله رؤية مدينة أوغاريت بوضوح، ويقدر الجميع على سماع شرحٍ تفصيليٍ حول الموقع ، أبدأ مع انتباه الجميع :

في الألف السابعة قبل المسيح ، بدأ الإنسان استقراره في هذه المنطقة ، ليكتشف أن الحبة المزروعة في التربة تنمو ثم تعطي ثمارها ، وأنه يجب أن تزرع في أوقات محددة وأن تحرث الأرض، فاستخدم الإنسان الأول الصمد في الحراثة ، وانتقى أنواعاً معينةً من البذور والنباتات لزراعتها . ولدى مراقبة الحيوانات تمكن من تدجين الكلب والغنم والحمير والماعز ، وبعض أنواع الطيور .

- أمين ، سأل مايكل : أتظن أن أوغاريت شهدت فعلاً بداية الزراعة في العالم ، أم أنها منطقة الحسكة ، وتل تنينير الذي ننقب فيه الآن ؟

- سؤالٌ مهمٌ مايكل: إن منطقة الجزيرة السورية ، وتل مريبط ، على الفرات ، والساحل السوري ، يتقاسمان البداية في انتاج الحبوب منذ الألف السابع قبل المسيح .

- وهل تشهد هذه المرحلة الريادة الأوغاريتية في الأدب والموسيقى ؟ سألت ميري سؤال العارف ، لكن الذي يود إطلاع الآخرين على معلوماتٍ يعرفها .

- نعم سيدتي ، في عهد ملك أوغاريت نقماد الثاني (1370 - 1340) تم اختراع أول أبجديةٍ في التاريخ مكونةً من ثلاثين حرفاً ، ومنها استقى الأوروبيون لغتهم . كما تم اكتشاف أول تنويطٍ موسيقي أيضاً فيها، وهو يسبق تنويط فيثاغورس بمئات السنين.كما أن الملاحم والأساطير الأوغاريتية، قد كتبت في عهد نقماد أيضاً ما يعني أنها أقدم من الإغريقية التي ندرسها في آدابنا على أنها الأقدم في العالم،بحوالي سبعمائة عام .

- ماذا كانت عملتهم المتداولة حينها، سأل شابٌ .

- سؤالٌ مهمٌ جداً،يومها لم تكن العملات قد اخترعت بعد ، أما مع بداية عصر البرونز ، وعندما مزج الأوغاريتي مادتي النحاس والقصدير معاً، فقد أصبحت بين يديه مادةً صلبةً قويةً هي البرونز، ما جعل الأدوات المصنوعة من مادة البرونز عملاً جديراً بالاحترام،حيث كان النحاس والقصدير لوحدهما عاجزين عن صنع أدواتٍ أو مراكب قوية ، ليأت مزجهما معاً ، ثورةً

في التعدين بدأت في أوغاريت. لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد اخترع الأوغاريتيون سبائك من مادة البرونز ، كانت وسيلةً للتبادل السلعي في العالم حينها .

تحرك الجميع لزيارة منطقة المعابد ، واستمعوا باهتمامٍ إلى بداية الديانة الكنعانية الأوغاريتية : ثلاثة معابد للإيل رب الأرباب، والبعل إله الخصب ، وداجن إله القمح. كانت الصلوات والاحتفالات الدينية تقام فيها ، وكان الأوغاريتيون يؤمنون بإلهٍ واحدٍ هو الإيل رب الأرباب ، وهناك أربابٌ لظواهر الطبيعة المختلفة .

- يقال أن هناك صلةً بين بعض الأرباب والآلهة التي نعبد هذه الأيام ، قالت ميري .

تماماً صديقتي، فالديانات تبعاً للعقل والمنطق اخترعها الإنسان ، وبدأت تتطور مع التطور المجتمعي والاقتصادي والفكري الإنساني . واعتباراً من منتصف الألف الثانية قبل المسيح ، وجد الإله الوحيد ، فكان أخناتون في مصر ، والإيل في سوريا ، وبعدهما جاء اليهود بيهوه ، وأعلن المسيح أنه ابن الرب، ليختم محمدٌ الجميع بالله عند الإسلام .

تركنا أوغاريت ، سارت بنا الحافلة صعوداً إلى بلدة مشقيتا ، كان الجميع فرحين بالطبيعة الخضراء من كل جوانبها، والزرقاء جهة البحر. كان الأبيض المتوسط على يسارنا، تفصلنا عنه بساتين البرتقال والليمون واليوسف أفندي،وكانت جبال ريف اللاذقية الخضراء على يميننا، وعلى مرأى من الجميع ، تفصلنا عنها بساتين الزيتون والتفاحيات .

- وأين نحن الآن سألت صبية .
- نحن في الشمال الغربي من سورية ، نبعد عن العاصمة دمشق 350 كيلومتراً ، وهذا الطريقٍ يقود بعد 120 كيلومتراً شمال اللاذقية إلى العاصمة السورية المفقودة أنطاكيا من خلال معبرٍ بريٍ في بلدة كسب .
- أليست الحدود التركية السورية ، سأل شاب .
- هذه الحدود غير حقيقية، فهي تفصل سوريا عن عاصمتها المحتلة أنطاكيا التي أقامها ملك سوريا سلوكوس نيكاتورعام 312 ق. م

وهي العاصمة التي استمرت 994 عاماً عاصمةً سوريةً ، قبل أن يستبدلها دعاة الدولة الإسلامية بدمشق عند فتحها ! وقبل أن يهبها المحتل الفرنسي لتركيا عام 1939 .

تصل الحافلة بلدة مشقيتا ،نخترق البساتين والغابات وصولاً إلى القرية القديمة ، ومن خلالها نصعد تلاً لنصل مقبرة القرية العتيقة التي تحيط بها أشجار البلوط والسنديان ، تنظر الأستاذة بفضول باتجاه أحجار المقابر الحجرية ، التقت نظراتنا ، وبفضولٍ تملؤه الدهشة :

- ما هذه الحجارة أمين ؟
- إنها مقبرة القرية .
- جميلٌ هذا المكان .
- إنه كذلك فعلاً .
- وكأني قرأت عنه ،وعن هذه المقابر البسيطة الجميلة في قراكم . لا يخاف المرء أو يدهش حين المرور بقربها ، بل ربما هناك شيءٌ من الشاعرية في بساطتها .
- أجل إنها نسخةٌ عن معظم مقابر الساحل السوري ، حيث بضعة أحجارٍ تحيط بها الأشجار الجبلية الكثيفة ،خصيصاً السنديان، ولهذه المقابر الفضل في الحفاظ على الكثير من الغابات في الساحل السوري ، وهي نسخٌ طبق الأصل عن تلك التي أحبتها أمي ، وكانت تتغنى بها ، وطلبت مني أن أدفنها في واحدةٍ شبيهةٍ بها في قرية الرفيعة .
- كانت أمك شاعرة !
- مع أنها تعلمت القراءة والكتابة متأخرةً . فقد جبلتني بشاعريتها حين أوصتني أن أدفنها في مقبرة الرفيعة ، لأن المقبرة كما كانت تؤكد لي أمي دائماً :

" يابني ، وحق الرب مهوية " .

تغادر نظراتها المقبرة وأحجارها ، لتعود مع غيومٍ تسافرغرباً .

- أين شردت ؟
- لا أدري ،ربما إلى أيام الدراسة الجامعية، وملامح شابٍ أسمر مايزال يسير قريباً مني ، يهمس لي بقصائد ليست من الشعر ، كان يقول لي إنها مواويل من قريته .
- قلت لي هو من اللاذقية ؟
- بل من إحدى قرى اللاذقية .
- أوتذكرين اسمها ؟
- ماتزال محفورةً في ذاكرتي، كنت أحلم دوماً بالعيش فيها معه .
- كنت تعشقينه ؟
- أجل أحببته كثيرا .
- أحبك ؟
- كان أضعف من أن يعترف بذاك اللمعان الذي كنت أراه في عينيه .
- أهو الحب ؟
- ربما لم يعطني الوقت الكافي للتأكد منه .

تقف الحافلة على مرتفعٍ يمكن من خلاله رؤية البحيرة بشكلٍ كبير ، يترجل الجميع ، تلسعهم نسماتٌ باردة ، لا يكترثون يبدؤون بالتقاط الصور التذكارية مع أشجار الصنوبر والبحيرة التي مالت إلى الزرقة الغامقة بفعل ظل التلال المقابلة ، ينضم الجميع إلى طاولةٍ مزينةٍ بالمقبلات الساحلية اللذيذة ،نجلس جميعاً إلى طاولةٍ واحدةٍ أعدت لخمسة عشر شخصاً ،نتناول طعامنا مستمتعين بالطقس الجميل والطعام الممتع والصحبة الحلوة .

قبل ذهاب الشمس إلى نومها بقليل ، عدنا إلى الحافلة ، صعدت بنا الدرب باتجاه القرية .

تبدو ميري ذابلة العينين ، هل كان ذلك بسبب الغداء اللذيذ ، الذي تناولت منه زيادةً عن المعتاد ، أم الذكريات التي تداهمها في هذا المكان ، ماهو السبب ؟

هو حب ، لكن من هو هذا الذي كان شاباً جميلاً ، وقت أغرمت به ، من أية قريةٍ من ريف اللاذقية ،هل يكون من هنا من مشقيتا ؟

معظم كلامها يدل على شخصٍ واحدٍ فقط هو هاني الراهب الذي غادرنا منذ سبع سنوات .

تصعد الحافلة بنا في طريق العودة ، تقترب من مقبرة القرية ، أتذكر حين غادرنا هاني ، كنت هنا في وداعه الأخير، لكن ماذا عن ميري ، أهي الأستاذة التي يرد اسمها في كتاباته ! الأستاذة التي أحب، والتي لا أعرف كيف أقول لها أنت في مشقيتا ونحن نقترب من المعبد الأخير للراهب ...

" يذكر هاني في روايته - رسمت خطاً في الرمال - أنه أثناء وجوده في لندن لنيل درجة الدكتوراة في الأدب الإنكليزي كان على علاقةٍ مع إنكليزيةٍ شابةٍ، ولم تتوج هذه العلاقة بالزواج فعاد إلى وطنه ، لكنه لم ينسها ، فاستمرت بالظهور بين أسطره وكتاباته . "

أهي ميري ؟ ماذا أقول لها ، وكيف؟ تدور الحافلة مستطلعةً المفترق الأخير قبل أن تظهر الأشجار الكثيفة لمقبرة القرية ..

- توقف قليلاً لو سمحت ، قلت للسائق .

هدأت الحافلة ، ناديت ميري ، الجميع ينظرون باستغراب .

أخذت يدها ونحن نغادر الحافلة ، وصلنا أول قبرٍ بجوار الطريق، نظراتها مثبتةٌ على الحجارة قرب الطريق ، تنظر في عيني مباشرةً ،تخرج الكلمات سريعةً وكأنها تفر مني :

- هاني .
- قبره ! قالتها بكلماتٍ لم تخرج من فمها .

- هنا يرقد هاني بسلامٍ منذ سبع سنوات ، حزنت كثيراً لموته ، لكني لم أكن أظن أن اللحظة ستعاد ثانيةً ، وتأتي إليه لتلتقيه ، هو من أحببت مواويله .
- كنت أعرف أني سألتقيه يوماً .

هدأت ، سكنت ، انحنت على الحجارة ، قالت للحجارة شيئاً لم أسمعه ، قبلت الحجارة كما يفعل أهل ضيعتي ، قامت ، وقفت بخشوعٍ أمام القبر، بدأت دمعاتٌ تتدحرج على خدها، رمت نفسها على كتفيي، ودمعاتٌ تتدحرج على خدي أيضاً :

- كنت هنا يومها ؟
- أجل .
- كنت أود أن أكون هنا يومها ، كنت ودعته ، كنت دائماً متأكدةً بأني سألتقيه ، وها أنا افعل ، أشعر بروحه تملأ المكان .
- كانت روحه كالنحلة ، هكذا كان أجدادي الأوغاريتيون ينظرون إلى الروح : نحلةٌ نشيطةٌ لا تهدأ ..
- وصف رائعٌ يليق بأديب .

ملأ الصمت المكان وامتد إلى الحافلة ،كانت أغنية فيروز تدوي :

" حبوا بعضن تركوا بعضن"

كانت ميري ماتزال متعلقةً بي ، عيناها لا تترك كومة الحجارة ، كلماتها تتسارع منسجمةً مع روح الأغنية :

أحببت؟

الآن فقط أدركت كم أحببت .

آلاف الأميال هي في النهاية خطوة .

آلاف الرجال هم في النهاية هو .

أربعون عاماً هي في النهاية لحظة .

يعود فيها الحب بعد يباس ؟

مسحت دمعاتها ، تركنا العناق مبتعداً ، خيم علينا صمتٌ ثقيلٌ ،

تحركنا إلى الحافلة ببطءٍ شديد ، أجلستها قرب مايكل الحائر فيما يحدث :

- ميري عزيزتي ما ذا يجري ؟
- مات هاني يا مايكل منذ سبعة أعوامٍ . الآن فقط أدركت ما الذي كان يشدني إلى سوريا ، كانت روح هاني تناديني ؟.

نظر مايكل إلى مستفسراً ومندهشاً من معرفتي لما كانت تفكر فيه ، ومن معرفتي لسرها الكبير .

- مايكل ، في إحدى رسائلك أخبرتني شيئاً عن : " التشويش العاطفي ،والقوة الخفية التي تشدها إلى الترحال إلى سوريا " !

نظر مايكل إليها ، انتقل إلي...

- من هو الشاب ؟
- هذا الشاب صار روائياً مهماً اسمه هاني الراهب ،و بقدر ما كان يحاول إخفاء حبه لميري ، كانت تلافيف دماغه تدفعه بسلاسةٍ إلى صفحات رواياته ، كان الحب أقوى منه، إذ يتسرب إلى سطوره دون أن يقصد . أنا مندهشٌ كيف استطاع هذا الرجل العاشق للحرية أن يتحمل طوال ربع قرنٍ عشقه لميري كلين هارت ؟ كتبت في الذكرى السابعة لوفاته :

- أتمنى أن أملك دليلاً عن حبه الكبير .
- وها هو الدليل بين يديك ، وإن جاء متاخراً . قالت بحزنٍ ما يزال يلبسها وتابعت : ها هي الإنكليزية تعود للحياة في مشقيتا ، قرية هاني ، يا إلهي كم هو صغيرٌ هذا العالم ، كان يحدثني عن عشتار وتموز ، والبعل ، والخضر و مار جرجس . ...

- سمى ولده تموز ؟ قلت مقاطعاً .

- تموز ! جميل . كانت آخر رسائله لي :

" متى تأتين إلي أيتها المرأة المقدسة ؟
متى تأتين فوق فراش وحدتي
تعلميني لغة النجوم
متى تأتين مثل عصفورة اللهب
تنقر قطعةً من جسدي
ثم تمضي شظيةً للحلم والريح؟"

- أمين ، لقد أتيت إليه والتقيته اللقاء الأخير ، وها أنا أغادره كما غادرني يومها في لندن بلا ميعاد ، أغادر مشقيتا وكومة الحجارة التي تحتضن هاني ، لكني في الحقيقة أترك قلبي الذي انزرع بين هذه الحجارة .
- كلين هارت يا صاحبة القلب البريء ، لو تدرين كم أنا سعيدٌ بمجيئك ! لو تدرين كم أنا سعيدٌ بأني جمعتك مع صديقي هاني بعد كل هذه السنوات .

تنحدر الحافلة باتجاه البحر الأزرق السوري ، تغمرها الخضرة ، مع ركابها قبل أن تصل البحر، نترجل منها ، نودع الشمس الراحلة وننام .

***

2

المحاولة الثانية للبقاء على قيد الحياة ..

لم أكن قد مت بعد

مقبرة أمي المهوية ومقبرة مشقيتا تمتزجان في حلمي ... تشويش و بياض و صمت .

اتسع المكان .. وُضعت فيه مجموعةٌ من الكراسي ، وأريكةٌ على الحائط ، تستلقي عليها ابنتي ، تدير مؤخرتها لي ، تتحدث همساً في الهاتف ، السكون الذي يملأ المكان ساعدني في التقاط بعضٍ من كلماتها :
ـ بعرف دبّر حالي ، انتوا الرجال (ما تعرفوا هيك شي !)

هذه (الما تعرفوا هيك شي) ملأت أذنيّ برنينها . أكيد تقصدني أنا ، لكن من هو الآخر الذي تتحدث معه ؟ فكرت أن أرفع رأسي ، خفت أن تراني :
ـ خمسة آلاف ليرة وبس . بيرجع كل شيء تمااام . شّددتْ على كلمة تمام ، و مطّتها بشكلٍ مثير . إذاً هناك علاقةٌ بينها وبين رجلٍ أدفع حياتي ثمناً لمعرفته !

حياتك ! هههههه أية حياة ! بالنسبة لهم انتهت ، و لا أدري إذا كانت كذلك بالنسبة لي ! تابعت همسها :

ـ ماما ما فاضية ، وبابا ميت ميت، ليش مفكر كان يعرف شو عم يصير بالبيت؟ لا حبـيـبـــي،ومطّت كلمة حبيبي أكثر من سابقتها . فتحتُ عيني قليلاً: كبرتْ ابنتي عشرَ سنينٍ في عشرِ دقائق :

ـ واحد مثلك بيحبل .

أغمضتُ عينيّ ، لم أعد أعرف ابنتي ، تعبت سهوتُ قليلاً . لكنني قررت أن أبقى على قيد الحياة لأتابع ما يحصل . وضعتْ سماعة الهاتف خرجتْ مسرعةً ، خبطتْ الباب .

تعبت ، سهوت ، نمت... أحداثٌ غريبةٌ من زمنٍ بعيدٍ جداً ، بدأت تتسرب إلى وعيي ،لا بل إلى لا وعيي ! .

ما أزال في المشفى ، استيقظت من المخدر مع بعض الخدر يرن الهاتف ، علي يحاول إيقاظي ، يحدثني بشيءٍ عن تل تنينير .. طوفان ، بشر أوائل ، تل تنينير ثانيةً .. حنا وبابلو ...

تل تنينير 2013

تلٌ أثريٌ ، معالم أشخاصٍ كثر في حركةٍ سريعةٍ حول التل . خيمٌ لونها رمليٌ ، تنتشر بكسلٍ على تلٍ يرتفع حوالي عشرة أمتارٍ عن سطح الأرض المزينة بسنابل صفرٍ جاهزةٍ لمعاول الحصادين ، كما لمعاول المنقبين الآثريين .

ورديٌ هو لون الأفق مع غروب هذا اليوم ، ينعكس لون الشمس الهاربة باتجاه الغرب على تراب تل تنينير ، وعلى ظلال شخصين يسيران معاً بخطواتٍ هادئةٍ ، يناقشان تنفيذ الإجراءات لإخلاء التل ، وإنهاء عمل بعثتهما ، فالحرب تقترب منهما !

هذان الرجلان هما عالم البيولوجيا الإسباني المعروف باولو باجارو الذي تجاوز الخمسين بقليلٍ ، ومساعده التونسي الأربعيني حنا السعد وقد بدأت مهمتهما في هذا التل بعد مغادرة البعثة الأمريكية بإدارة مايكل مور.

كما يتضح من اسم التل فإن تنينيرهي جمع كلمة تنور المستخدمة حتى الآن في سوريا ، أي الفرن بالتعبير المعاصر ، وعاءٌ طينيٌ يشوى قبل وضعه في الاستخدام كي يتحمل النار التي تشعل في جوفه بواسطة الحطب ، لينضج لنا غذاءنا من الخبز الشهي . كان من عادة أهل القرى على مر التاريخ أن يوجد تنورٌ خاص لكل بيتٍ ، أو تجمعٍ سكنيٍ .

حنا وبابلو ، يتابعان حركتهما في توجيه العمال الذين تتسارع حركتهم في جمع أدوات العمل وحاجاتهم الشخصية ، هما مستعجلان لمغادرة التل .

أما أهم إنجازات بعثتهما ، والتي لا يدري بها حتى عمال المنطقة ، فكانت مجموعةً مهمةً من بذور القمح السورية النادرة ، التي جمعاها بذرةً بذرة من قلب التل ووضعاها في حقيبةٍ حملت في ذهنهما اسم

" سري للغاية " لكن شكلها لم يكن يوحي بأية أهميةٍ خوفاً من اهتمام أحدٍ بها في الطريق الشائكة أمامهما إلى الساحل السوري ، فقد جمعاها ضمن أكياسٍ عاديةٍ تبدو وكأنها للاستهلاك المنزلي .

جيب حقلية ، تقف أمامهما، ينزل السائق :

- سيد بابلو ، كل شيءٍ جاهز ، العتمة كافيةٌ للمغادرة .
- شكراً أبو فادي ، السيارة جاهزة ؟
- أجل صديقي .

يتحرك الاثنان باتجاه السيارة ، ضوء القمر ينير المكان بشكلٍ واضح، مجموعة العمل تبدأ بالخروج من موقع الاستكشاف الأثري، تحركٌ إلى أكثر من مكان ، وفي أكثر من شكل دراجات عادية ونارية ، سيارات جيب ، وشاحناتٌ صغيرة .

بابلو وحنا ينتظران مغادرة الجميع ، وكأن مركبهم سيغرق قريباً ، فلا بد أن يكونا آخر المغادرين :

- وهلق سيد حنا لوين ؟
- تصوري النهائي ليس عن طريق الحدود التركية ، فهذا غير ممكن، بوجود أكثر من فصيلٍ مسلح .
- والحدود العراقية هي الأخرى غير آمنة و أكثر تعقيداً .
- هذا يعني أننا سنتبع خطة طارق بن زياد عندما احتل اسبانيا ؟ وليس إلا : " البحر من أمامنا " .
- ماذا تقصد حنا ؟
- أقصد ليكن اتجاهنا إلى الساحل السوري ففيه الآن أقل الأخطار .
- وفيه أيضاً فصائل مسلحة .
- سنحاول الوصول إلى حلب عن طريق منبج ، وقبل الوصول إليها ، نلتف شرقاً كي لا نلتقي مقاتلي "الدولة الإسلامية " .
- اتكلنا على الله كما تقولون .
- أفضل الاتكال على حامينا العقل ، ولنفتح عيوننا أكثر .
- اتكلنا على العقل ، ولم لا .

تتحرك الجيب إلى الطريق الرئيسية باتجاه حلب ، الطريق خاليةٌ تماماً ، ضوء القمر يظهر تلالاً فضيةً تتوزع الطريق ، هي إهراءات القمح السورية غير الخاضعة لنظام صوامع الحبوب، والموزعة على مقربةٍ من الطريق العام ، إنها المخزن السوري المكشوف للقمح :

- ماهو حجم المخزون السوري من القمح برأيك حنا ؟
- في الأحوال الطبيعية يجب أن يكون المخزون الذي تراه أمامك ، كافياً لسنواتٍ سبع.
- تقصد أنه في كل عام يؤخذ منه حاجة البلد ، ويضاف إليه المحصول الجديد ؟
- تماما ، والمزارع السوري ،نتيجة خبرته ، لاحظ أن الخصب يستمر لسبع سنواتٍ، تليها سبعٌ عجاف ، مع بعض الاختلاف أحياناً .
- وفي سني الفيضانات ، هل كان يتبقى كميات كافية من القمح ؟
- هل تقصد الفيضانات الكبرى المذكورة في التوراة ! ثم هل تعتقد بأنها فيضاناتٌ كبيرةٌ كانت تنهي البشر ؟
- التوراة يا صديقي لم يعد كتاباَ مقدساً منذ اكتشاف ملاحم الشرق القديم في بابل ، وتعرف حنا أني أوافقك في ذلك .
- صديقي بابلو ،المشكلة لا تكمن في التوراة فقط ، بل في قضايا كثيرة تتعلق بأساطير وملاحم الشرق القديم .
- تماماً معك ، ودعني أسأل : هل يمكن لعاقلٍ في القرن الحادي والعشرين ، أن يتخيل الطريقة التي خلق الله فيها السموات والأرض ...

في البدء خلق الله السماوات والأرض ... التوراة .

" في البدء خلق الله السماوات والأرض . وقال الله : ليكن نور ، فكان نور، وكان مساءٌ وكان صباحٌ ، يوماً واحداً .

وقال الله : ليكن جلدٌ في وسط المياه. ودعا الله الجلد سماء. وكان مساءٌ وكان صباحٌ ، يوماً ثانياً .

وقال الله : لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكانٍ واحدٍ ، ولتظهر اليابسة. ودعا الله اليابسة أرضا، ومجتمع المياه دعاه بحاراً . وقال الله : لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبذر بذراً، وشجراً ذا ثمرٍ يعمل ثمراً كجنسه، بذره فيه على الأرض. وكان كذلك .وكان مساءٌ وكان صباحٌ ، يوماً ثالثاً .

وقال الله: لتكن أنوارٌ في جلد السماء ،لتفصل بين النهار والليل، فكان كذلك، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً رابعاً .

وقال الله : لتفض المياه زحافاتٍ ذات نفسٍ حيةٍ ، وليطر طيرٌ فوق الأرض ، فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الانفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائرٍ ذي جناحٍ كجنسه. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً خامساً.

وقال الله : لتخرج الأرض ذوات أنفسٍ حيةٍ كجنسها : بهائم، ودبابات، ووحوش أرضٍ كأجناسها . وقال الله : نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً سادساً.

فأكملت السماوات والأرض وكل جندها . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي

عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا " .

في البدء كانت نيازك ... العلم

إن العلم لا يلتقي أبداً مع طريقة الكتاب المقدس . لأن العلماء اليوم متفقون على مسألة الانفجار الكوني ،حيث تؤكد الدراسات العلمية أن الحياة على الأرض بدأت قبل نحو 4.5 مليار عام ، بعدما أمطرت النيازك الغنية بالكربون كوكب الأرض ، ورشحت العناصر الأساسية في "برك صغيرة دافئة". في هذه البيئة الغنية بالمغذيات التي ترعرعت فيها أولى الجزيئات الذاتية التكاثر، ولدت أول شفرةٍ وراثيةٍ للحياة.

وفكرة انحدارنا من شيء برز من "برك صغيرة دافئة" كان أشار إليها تشارلز داروين في القرن التاسع عشر، غير أن هذه النظرية تحدتها مزاعم بأن الحياة بدأت حول الفتحات الحرارية المائية في المحيط.

لكن الدراسات الجديدة التي نشرت في مجلة وقائع أكاديمية العلوم، تظهر كيف قام العلماء بتشييد "نموذج شامل" يثبت معقولية فكرة داروين "

و تشارلز دارون كما هو معلومٌ اكتسب شهرته كمؤسسٍ لنظرية التطور، التي تقول أن كل الكائنات الحية على مر الزمان تنحدر من أسلافٍ مشتركة ، وأن الأنماط المتفرعة من عملية التطور ناتجة لعمليةٍ وصفها بالانتقاء الطبيعي . وإن الصراع من أجل البقاء له نفس تأثير الاختيار الصناعي المساهم في التكاثر الانتقائي للكائنات الحية . وفي عام 1859 م. قام داروين بنشر نظرية التطور مع أدلة دامغة في كتاب - أصل الأنواع- متغلباً على الرفض الذي تلقاه مسبقاً من المجتمع العلمي لنظرية تحول المخلوقات.

وقد تقبل المجتمع العلمي والمجتمع عامةً نظرية التطور كحقيقة.مع ذلك كان الكثير يفضلون التفسيرات الأخرى، واستمر ذلك حتى نشوء التوليفة التطويرية الحديثة، (1930 م - 1950 م) حيث

أصبح هناك إجماعٌ واسع على أن الاستمرار الطبيعي كان المحرك الأساسي للتطور، إضافةً إلى الناحية البيولوجية المتمثلة بالماء ....

في البدء كان ماء ... الميثولوجيا والمنطق

- صديقي بابلو: العقل والعلم لا يمكن أن يتوافقا مع الدين ، لكنهما مقتنعان بالميثولوجيا .
- نعم حنا ، هي محاولاتٌ ميثولوجيةٌ فلسفية خرجت من تفكير وتجارب الناس وحاجتهم ، لذلك هي أساسٌ للعقل وللعلم . لقد تساءل طاليس من أين يتكون العالم كله ؟ واستنتج أنه يتكون من الماء من خلال ملاحظاتٍ عدة ، مستنتجاً أن الماء هو أصل كل الأشياء ، لذا يقول :

إن النبات و الحيوان يتغذيان بالرطوبة
وأساس الرطوبة الماء
وعندما تتغذى المادة من شيءٍ
فهي تتكون منه بالضرورة .

- صديقي بابلو ، أضف ان البابليين قبل طاليس بآلاف السنين أسسوا لهذه الفكرة ، فقد وجدت هذه العبارة على لوحٍ بابليٍ :

في البدء قبل أن تسمى السماء سماء

وأن يعرف للأرض اسمٌ

كان المحيط وكان البحر .

ومن الماء خلقت عشتار أولى ربات الكون .

بابل 1570 ق . م.

" لم أكن قد مت بعد .. كنت في بابل ، وكنت أعمل في فرن شي الألواح الطينية ، كانت مهمتي حفر قصائد بابل على الألواح الطينية الطرية بواسطة أداةٍ صغيرةٍ كالمسمار، وكان زملائي يودعونها الفرن كي تجف ، ومن ثم يخرجونها قاسيةً متينةً بفعل النار ، ويقدمها الكاتب إلى الملك .

جهزت مع زملائي مجموعةً من الأساطير يمكن أن تكون أهمها قصيدةٌ تقارب الألفين ومائتي بيت، نتداولها منذ مائة عام ، وندعوها - الحكيم الخارق - وهي ترجمةٌ حرفيةٌ للاسم الأكادي للبطل أترا هاسيس .

تروي (الحكيم الخارق) أن البشر لم يكونوا موجودين بعد ، وكان الآلهة مرغمين على العمل للتزود بحاجاتهم ، وكانوا يقسمون إلى حكام ورعايا ، لذلك كان الرعايا الإلهيون وحدهم من يشتغل .

بعد آلاف السنين لم يستطيعوا التحمل ، فلجؤوا إلى الإضراب،

سئموا وأرادوا أن يعاملو اعلى قدم المساواة مع الحكام المتبطلين،تجمعوا أمام كبير الآلهة إنليل الذي خاف من إضرابهم ، لكن إنكي - إيا الذكي الخارق يتدبر حلاً لإنليل ، باقتراح صنع رعايا من الطين هم البشر، لذلك عندما يموتون كان يقال : عادوا إلى طينتهم .

كثر هؤلاء البشر وتناسلوا ، وصاروا يعيشون حياةً طويلةً مديدةً وفي ضوضاء أزعجت كبير الآلهة إنليل الذي يقرر إفناءهم بكوارث طبيعيةٍ حيناً ومجاعاتٍ أحياناً ، وفي كل مرة كان إنكي - إيا يتدخل للحد من إفنائهم وإبقاء قسمٍ منهم ، فيتكاثر البشر ثانيةً ويكثرون ويضجون،

ويزعج ضجيجهم إنليل ، الذي يقرر هذه المرة إنهاءهم والخلاص منهم جميعاً دون تأخير من خلال طوفانٍ كبيرٍ ، وإثر أمطارٍ غزيرة وهطولاتٍ كبيرة ، ويأخذ وعداً وقسماً من إنكي - إيا بأنه لن يغش ويتدخل هذه المرة لإنقاذ قسمٍ منهم .

لكن الخارق الذكي إنكي - إيا يتدخل هذه المرة أيضاً ، لكن ليس بشكلٍ مباشر بواسطة حلم اليقظة وليس مباشرةً كي لا يحنث بالقسم ، وينذر صديقه آترا هاسيس ملك البشر، بأن يبني سفينةً تحسباً لأمرٍ حلم أنه سيحدث.

ونرى أيضاً مدى العلاقة المدهشة فيما يتعلق بالتفاصيل ، بين هذه الحكاية ،والحكاية ذاتها كما هي واردة في أسطورة جلجاميش ، وبعدها بمئات السنين حكاية الطوفان الواردة في التوراة ، وهذا دليلٌ واضحٌ على أن الأديان التوحيدية نهلت وأخذت من أديان الشرق القديم التي سبقتها ، لكنها لم تكن مخلصةً لها .

هذه القصة غيرت الوعي الغربي كله ، منذ أن وصل العالم الإنكليزي جورج سميث إلى ما توصل إليه في أواخر القرن التاسع عشر بإثبات تاريخية التوراة بشكلٍ قاطعٍ لا لبس فيه ، وهذا حدثٌ لا يقل خطورةً عن الثورة الكوبرنيكية في مجال علم الفلك بل يزيد .

عندئذٍ كان في استطاعة أصحاب النفوس الذكية والمفتوحة من العلماء والمؤرخين ، أن يقولوا لأنفسهم إنه بات مستحيلاً من الآن وصاعداً أن تقرأ التوراة وتفهم كالسابق ،لأنه يجب إنزالها من برجها العاجي ، باعتبارها أقدم كتابٍ في العالم ، كتاباً فوق طبيعيٍ إذا صح القول . إنه ليس كتاباً كما يفهم أو كما يضمر في أحيانٍ كثيرة ، إنه مجموعة كتبٍ متباينة .

بابل . القرن السابع ق.م

شهد القرن السابع قبل الميلاد صراعاً كبيراً بين الإمبراطورية الآشورية والمصرية،على مناطق النفوذ محوره بلاد الشام و فلسطين .

في تلك الأثناء ساندت اسرائيل (المملكة الشمالية) الجانب المصري مما أثار حفيظة سرجون التاني ، فصمم على إخضاع تلك المنطقة ، وقام بحملةٍ على المملكة الشمالية في عام697 ق.م. فحطم هيكلها وشرد أهلها ، وأخذهم سبياً إلى آشور وانتهى بذلك ذكر المملكة الشمالية، وبقيت المملكة الجنوبية (يهوذا) ردحا من الزمن .

استمر هذا الصراع في عهد ملك بابل نبوخذ نصر الثاني الذي دمر الهيكل ، وأنهى المملكة الجنوبية ، وسبى عددا كبيرا من اليهود في عام 586 ق.م. ومع هذا السبي انتهى أي وضع سياسي جغرافي لليهود في المنطقة .

بقي اليهود في بابل فترة سبيهم التي أمتدت سبعين عاماً ، يعملون في التجارة ويملكون البيوت . وبعد سقوط بابل في عام 539 ق.م على يد كورش الفارسي سمح لهم بالعودة إلى أرض بيت المقدس ، لكن كثيرون منهم فضلوا البقاء في بابل، واستمروا بالعيش هناك ، وسموا بيهود الشتات، بينما عاد بعضٌ منهم إلى أرض بيت المقدس.

نبوخذ نصر الثاني ، لم يشغل كل وقته في الحرب . فقد صمم أن تكون عاصمته بابل الجديدة آية في الجمال و الروعة و الفخامة ، فأعاد بناءها ، وسوّرها بسور يبلغ عدة كيلومترات طولاً . و قد بنى في بابل سورين حول المدينة و شيّد بوابة الإلهة عشتار، و شارعاً للمواكب و معابد وبرج بابل الشهير ، وشيّد الحدائق المعلقة التي كانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع قديما .

مع ذلك فإن اليهود ينسبون حدائق بابل المعلقة ، إلى يهود الشتات الذين بقوا في بابل ، كما ينسبون كثيراً من أساطير وملاحم الشرق لأنفسهم . وهذا ما نراه من خلال كتاب :

(حفريات في التوراة اليهودية) الذي يعتبر من أهم الكتب التي تناولت نصوص التوراة اليهودية ، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أن مؤلفيه يهوديان وهما : عالم الآثار الأسرائيلي إسرائيل فنكلشتاين ، والمؤرخ

والباحث الأمريكي نيل أشير سيلبرمان ،وهما صاحبا خبرةٍ طويلةٍ في علم الآثار. وعلى ذلك فإن شهادتهما هي دلالة موضوعية هامة .

وتتجلى الأهمية الأكبر للكتاب في أنه يذهب إلى نقاش نصوص التوراة مقارنةً بالمكتشفات الأثرية الناتجة عن التنقيبات في باطن الأرض، وبالتالي فهو يثبت عبر الاعتماد على الاكتشافات المباشرة، أن معظم الأحداث الكبرى والهامة التي وردت في التوراة لا أساس لها من الصحة بين المكتشفات الأثرية ، خصوصاً أساس ديانتهم وهو الهيكل.

أما مملكة داود وسليمان التي تغنى بها الكتاب المقدس ، فلم تكن سوى قرية صغيرة مهملة لم تترك وراءها حتى قطعة فخارٍ واحدةٍ يستدل منها على أي نوع من أنواع العظمة المذكورة بتوسع هائل في التوراة.

وببساطة ، فإن المؤلفين وعبر إثباتات واقعية ، يريان أن التوراة كتبت بعد موسى بستمائة سنة ، أي في بداية من القرن الثامن ق.م ، في حين أن الوجود المفترض لموسى هو القرن الرابع عشر ق.م" ...

بابل - متحف بغداد 2003

قبل عامٍ من الغزو الامريكي للعراق وصلت إلى بغداد معلوماتٌ مؤكدةٌ من بريطانيا، تفيد بان مجموعةً من المتخصصين بالآثار يضعون خطةً للاستيلاءعلى آثارِعراقيةٍ محددةٍ عندما تقوم الولايات المتحدة بغزوها المتوقع ! وهذا يتفق مع مطالباتٍ غربيةٍ مرتبطةً بالحركة الصهيونية ، بالحصول على الارشيف اليهودي العراقي الذي يحتوي على قرابة 3 آلاف وثيقة و1700 تحفة نادرة توثق لعهود سبي اليهود في العراق، الأمر الذي دفع الجهات الحكومية للتحفظ عليها .

وبعد يومٍ من احتلال بغداد ، قامت مجموعةٌ مسلحةٌ من 400 شخصٍ ، تحت انظار وحماية دبابة امريكية كانت تبعد 70متراً عن مدخل المتحف باقتحامه من ثلاثة اماكنٍ مستهدفةً مخازن التحف الأثرية بالإضافة الى سرقة السجلات والوثائق الخاصة بالآثار السومرية والبابلية.

الدكتور دوني جورج ألقى محاضرةً في المتحف الوطني بدمشق 2006، ذكر فيها ان التحقيقات التي اجراها مع زملائه في 13 نيسان 2003 ، أي بعد يومين من السرقة ، اثبتت ان السرقة كانت عملية منظمة

وليست عشوائية او نتيجة أعمال شغب وإن من قام بها مافيا كبيرة ، وان هناك تحضيراً وترتيباً مسبقين لها .

كما قامت القوات الامريكية المحتلة بالاستيلاء على الارشيف اليهودي العراقي الذي كان موجوداً في المبنى بإشراف ممثل وزارة الدفاع الامريكية الدكتور اسماعيل حجارة، و هو أمريكي الجنسية أرسل من اميركا للإشراف على نقل الارشيف اليهودي خِلسةً الى نيويورك .

ثم قامت القوات الأميركية المحتلة بالتوجه إلى موقع تخزين كنز نمرود الخرافي، في أحد أقبية البنك المركزي العراقي والاستيلاء على650 قطعة ذهبية أثرية مختلفة الأحجام لا تقدر بثمن.

وللتأكيد فإن القوات الأميركية قامت بعرض هذه النفائس الأثرية أمام الجمهور في المتحف العراقي أواخر عام 2003 بحضور الحاكم المدني بول بريمر الذي اعتبر الأمر فتحاً أميركياً كبيراً، قبل أن تبدأ موجودات الكنز الذهبي بالتناقص شيئا فشيئا، حتى اختفت تماما في ظل أجواء الرعب والفوضى التي سادت العراق إبان سنوات العنف الدامية ، والتي انتقلت إلى سوريا للغرض نفسه ...

الرايات السود

تزداد العتمة ، تختفي إهراءات القمح . يرن هاتف حنا :

- حنا كيفك ؟ أين وصلتم ؟
- أهلاً أمين نقترب من منبج .
- كيف الأمور ؟
- لاشيء يذكر حتى الآن الطريق آمنة .
- حنا اسمعني وافهمني بدقة : أنت في طريقٍ خطر وأهم ماعليك فعله ، ومهما كانت النتائج ،ألا تفرط بالصندوق الأسود الذي معك .
- تقصد البذور ؟
- بالتأكيد حنا ، فالحفاظ على هذه البذور هو المحور الأهم في مهمتكما ، لأن دراستها ستؤكد أو تنفي النية الحقيقية وراء عمل مايكل مور كما أهمية بذور تل تنينير .

- جيد صديقي الأمين أنا معك ، لا توصي حريص ، وأؤكد لك أن بابلو حريصٌ مثلي على إنجاز المهمة بالشكل الدقيق ، فهو مقتنعٌ بما نقوم به ، ومؤمن بالهدف من وراء عملنا .
- سعيدٌ بكلامك حنا ، وسعيدٌ أكثر أن بابلو سيكون طرفاً لإغناء تجربتنا المشتركة .
- صديقي أنا متأكد أن تجاربنا سيستفيد منها العالم في هكذا أزمات.
- أتصور حنا إن حوادث التاريخ تكون متشابهة أحياناً في أسباب حدوثها ، في مساراتها ، حتى في نتائجها وفي طرق وأساليب حلها .
- تبعاً لمبدأ أن التاريخ يتحرك في دائرة ..
- تماماً ، لكن أتمنى أن تعتمد الترجمة العربية حنا :

" التاريخ يعيد نفسه " .

- يبدو أن الترجمة العربية قاصرةٌ صديقي أمين ، فالتاريخ لا يعيد نفسه أبداً ، تدخل بابلو ، فلا يمكنك أن تسبح في ماء النهر مرتين !
- صدقت أخي بابلو . لكن يجب أن تأخذ بالحسبان أن عدم السباحة في ماء النهر نفسه هنا لا يعني الثبات أو عدم التغيير ، بل يعني الحركة باتجاه منتوجٍ جديدٍ ، أي أنه لا تناقض مع مبدأ التطور والتجدد بل متابعة .
- ذلك يعني كما أفهم ، تابع حنا : أن ما يحدث في سوريا حدث قبل الآن ؟
- تماماً حنا . وفي أمكنةٍ وأزمنةٍ مختلفةٍ ، يكون الحدث مختلفاً بشكلٍ أو بآخر ، أكبر أو أصغر، أقل أو أكثر ، لكن في النهاية : الحرب والقتل هي الحرب والقتل ، مهما تعددت التسميات ، ومهما تعددت الأسباب أو اختلفت .
- وهل تظن أن السبب الرئسي للحرب على سوريا هو بذار القمح ؟
- ولم لا ؟ والنفط والغاز أيضاً ، والتدمير بحد ذاته هدفٌ لهم ، إضافةً لأسبابٍ أخرى قد تجدانها في أماكن أخرى من سوريا ، وربما قد

يكون بعضها تاريخياً ودينياً،وقد تجدونها في منبج أو معرة النعمان ، أو في خرائط العثمانيين الذين تركوا بعضاً من أبناء جلدتهم ، في أكثر من مكانٍ في سوريا ، كما تركوا بعض ماسرقوه أثناء انسحابهم من سوريا في جوف الأرض !

- هل يعني ذلك إضافة اسبابٍ جديدة تتعلق بمنبج ؟ نحن نقترب منها الآن !
- ولم لا حنا ، لنبقى على اتصال ، إلى لقاء .
- إلى لقاءٍ صديقي الأمين .

تهدأ محركات الجيب ، يترجل الاثنان إلى مقهى بسيطٍ على الطريق ، يتناولا القهوة ، وزجاجة ماءٍ لكلٍ منهما ، ويتابعان رحلتهما .

- ماهو رأي أمين بقصة سميراميس ، سأل بابلو !
- يرى أمين إن قصة سميراميس هي قصةٌ حقيقية ؟ وحتى لو بنيت على أسطورة ، فهي أقرب إلى الحكايا ممكنة التصديق ، خاصةً عندما تربط بالإنجازات التي قدمتها سميراميس ، ومنها معبد هيرابوليس في منبج .
- ولوقيانوس السميساطي ؟
- لوقيانوس السميساطي أيضاً من منطقة قريبة من منبج ، وكتب عن سميراميس ومعبدها .
- للأسف معظم السوريين لا يعرفونه .
- أعتقد بابلو أنه من أهم المؤرخين السوريين الذين اشتغلوا على أنفسهم من قراءةٍ واطلاع ، حتى صار مرجعيةٍ هامةً لتاريخ سوريا القديم ، خصيصاً ما يتعلق بالمعتقدات السورية في أكثر من فترة زمنية .
- دراسته حول سميراميس مهمة جداً صديقي حنا .
- معك حق ياسيدي ..

تسرع الجيب تتجاوز لوحة الدلالة الطرقية : منبج ترحب بكم .

- وصلنا يا بابلو ، منبج ترحب بنا .

كان حنا يقرأ لوحة الدلالة الطرقية سعيداً ، يفكر كيف سيتخذ طريقاً آمنةً للالتفاف حول المدينة هرباً من المسلحين فيها .لكن تفكيره وسعادته لم يكتملا ، فليس ترحيب منبج كأي ترحيبٍ آخر .

منبج التي احتضنت يوماٍ ما بداية العقيدة الدينية السورية ، لم تعد تلك الحاضنة ، منبج التي شهدت التسامح الديني على مدى آلاف السنين لم تعد منبج ، منبج التي عاشت كجزءٍ من التاريخ السوري الحضاري العريق ، لم تعد منبج ، أي ترحيبٍ ستقدمه منبج لك يا مسكين ، وأي ترحيب ستقدمه منبج للمسكين بابلو أيضاً ! منبج ترحب بكما !! حاكموها اليوم في انتظاركما ، في انتظار مساعدتكما ، لقد وقعتما .

كانت منبج قد خضعت منذ فترة لتنظيم الدولة الاسلامية ، التي وزعت دورياتها عند مداخل المدينة ، والتي ظن حنا أن الطرق الملتفة حولها آمنة ، لكن خلال لحظات ، كانت الأضواء الكاشفة قد انسكبت عليهما من اليمين ومن اليسار وصوت آمرٌ :

- قف

أوقف السيارة فوراً بلا تلكؤ..

الأضواء المنسكبة عليهما ، لم تسمح لهما برؤية من يأمرهما بالتوقف، يتبينا مصدر الصوت ، مسلحون من الجانبين ، يأمرانهما بالترجل ، ينزل حنا وبابلو كلٌ من جهة ، يسيران باتجاه الصوت الذي أمرهما بالترجل .. توضحت الرؤية تدريجياً وهما يتقدمان ..

- أهلاً بكما .

رحب بهما وسط الأضواء المنسكبة عليهما ، رجلٌ لم يتبينا ملامحه ، تابعا صوته ، أجاب حنا :

- أهلاً بك يا أخي . وكأن الاحساس بأنهما قد علقا وصل إليه ، متأكداً بأن من أمرهما بالترجل ليس قوةً صديقة .
- ارفعا أيديكما ، تقدما .

اقتيد الاثنان إلى غرفةٍ مبنيةٍ مؤخراً ، شاهدا في طريقهما عدداً من المسلحين ، وأكثر من سيارة دفعٍ رباعيٍ عليها رشاشات ، وترتفع فوقها راياتٌ سوداء مزينة بـ (لا إله إلا الله) تأكدا بأنهما علقا فعلاً .

كان في انتظارهما في الغرفة مجموعةٌ من الرجال ، كلهم يرتدون الأسود ، وكان أكبرهم ينظر إلى الرجلين بقسوةٍ مشوبةٍ بالاستطلاع ، تحقق من جوازي سفرهما ، اتصل هاتفياً :

- أخي عمر معك لقمان ، لدي رجلان هنا ، تونسيٌ وإسباني ، قادمان من الحسكة . حاضر . تحرك باتجاه الباب ، تفضلا ..

أجلسا في سيارةٍ خاصة ، بجانب السائق أحد المقاتلين ، تتبعهما سيارتهما يقودها مقاتلان مسلحان .

كانت أضواء الفجر تنسكب على أبنية منبج ، وصل الموكب إلى الساحة الرئيسية ، ترجل لقمان ، ومقاتلوه ، أمرهما بالتحرك ، ساروا خلفه ، دخلوا إحدى البنايات ، وصولاً إلى مكتبٍ فخمٍ تزينه رايات لا إله إلا الله خلف الطاولة يجلس أمير المنطقة : رجلٌ أسمر ، طويلٌ رياضي الجسد ، ينهض ، يصافحهما ، يشير إليهما بالجلوس :

- عمر ، أنا أمير هذه المنطقة ، أهلاً بكما .
- حنا السعد تونسي ، باولو باجارو اسباني .
- وهل تتحدث العربية . لبابلو .
- قليلاً ، بعض كلمات فقط .
- وماذا كنتم تفعلون في الحسكة ؟

لا مناص من الاعتراف بطبيعة عملهم ، فوثائقهم ، وأدواتهم ، ستقول كل شيءٍ عنهم ..

- كنا نعمل في التنقيب الأثري بادر حنا .
- أفهم أنكما تعملان في مجال الآثار ؟ ماذا معكما من آثار المنطقة التي كنتما تعملان فيها .

يدخل شخصٌ ومعه الشاي الساخن ، يقدمه للضيفين وللأمير .

- تفضلا ..
- ليس معنا أي شيءٍ .
- أفهم أنكما لم تجدا شيئاً ، ذهب ، فضة ، برونز ... تماثيل ؟ بالمناسبة أنا خريج تاريخ ، وكنت أنوي متابعة دراستي للحصول على شهاداتٍ أعلى ، لكنني آثرت الانضمام إلى تنظيم الدولة ، فأنا مؤمنٌ بأولوية ذلك ، وإلا كنت زميلاً لكما ، لذلك أريد الحقيقة كاملةً .
- أخ عمر ، أنت تعلم إذاً أن مهمة الأثريين ليست دائماً إيجاد كنوزٍ أو تماثيل ، مهمتنا نحن كانت مختلفة فعلاً ، ولا علاقة لها بالكنز ...
- أفهم أن لاشيء معكما .
- حقيقةً لا شيء ، وإذا كنا قد وجدنا شيئاً ، فأنت تعرف أننا نسلمه للسلطات المختصة في حينه . إضافةً إلى أن مهمتنا كانت علميةً بحتة ، وهي دراسة حبوب وبذور القمح في تل تنينير ليس إلا .
- وماذا يفيد ذلك ؟

بدأ حنا يشرح للأمير كيف أن الجزيرة السورية هي الموئل الأول للقمح في العالم،وبأن بذور القمح االسورية هي التي ستضمن للعالم ألا يجوع لندرة نوعيتها ومقاومتها.لكن الأمير كان يفكر بطريقةٍ مختلفةٍ، تجعله يستفيد من وجودهما في إمارته الإسلامية الغنية بالآثار .

رفع هاتفه ، أدار بضعة أرقامٍ :

- أم مهاجر .عندي شخصان يهمك التعرف بهما ، واحدهما تونسيٌ من أهلك والآخر اسبانيٌ ، وهما يعملان في التنقيب الأثري .... أكلف ليز بهذه المهمة ... أجل حاضر .

يدير رقماً آخر : ليز تفضلي إلى مكتبي .

تدخل ليز ... صبيةٌ في منتصف العشرينات ، تلفت الانتباه بعينين زرقاوين وسط سوادٍ كاملٍ ، تحي صباح الموجودين بالخير لكن بلكنةٍ أجنبية ، تجلس إلى مكتب عمر الذي يقدم ضيفيه اللذين يعملان في التنقيب الأثري ، حنا من تونس وبابلو من اسبانيا ، كانا يعملان في الحسكة وهما

في طريقهما إلى اسبانيا ، لكن للأسف طريقهما طويلٌ إلى هناك ، وأعتقد أنك بحاجةٍ إليهما ، فهل نسمح لهما بالمتابعة !

- ولم لا ، نسمح لهما ، قالت ليز ، فهما ضيفان عزيزان .. لكن قبل ذلك أنا بحاجةٍ إليهما .
- إذاً اعذراني أيها السيدان ، فلن تتابعا طريقكما إلا إذا تعاونتما معنا في قضيةٍ كنا ننتظركما من أجلها .
- هل تعني أننا أسيران لديك ؟ قالها حنا بلهجةٍ غاضبةٍ ، وهو ينظر في عيني عمر ، غير عابيءٍ بمكانته وإمارته .

ضحك عمر بود، مؤكداً أن المسألة ليست كذلك ،فهو بحاجةٍ إليهما في مهمةٍ ليست طويلة ، نظر إلى ليز، يبدو التفاهم تاماً بينهما ، بادرت بابلو بلكنةٍ بريطانيةٍ واضحة ، أنها في حاجةٍ ماسةٍ إلى خبراء يساعدونها في عملها ، وقد كانت في انتظارهما تحديداً .

- تنتظرينا تحديداً ، رد بابلو بلهجتها .

أوضحت ليز أن منبج اليوم هي نقطة تجمع وسوقٌ حرة يصل إليها مهربو الآثار مع قطعٍ أثريةٍ مسروقةً من تدمر والرقة والحسكة ، تمهيداً لتهريبها إلى تركيا ، يساعد في ذلك خبراء مع ضباط أتراك ، يأتون خصيصاً من أجل ذلك . وهذا الأمر لن تورطهما فيه ، فمهمتهما ستكون في معبد - هيرابوليس- الذي يعتبر من أهم المواقع الآثرية في المنطقة ، وهو موجودٌ في منبج ، ربما في وسط المدينة ، فقد قام الكثيرون بالحفر في الموقع المفترض ، لكن يبدو أن أحداً لم يصل إلى شيءٍ مهمٍ حتى الآن .

- تقصدين أننا سنحفر في المعبد ؟ وأين ستذهب الآثار إذا عثرنا على بعض منها ؟
- إلى أسواق التهريب حتماً ، ومن خلال الأتراك ، قال حنا غاضباً ، لن نفعل ذلك .

يبدو أنه لم يكن قد اقتنع بعد أن القرار ليس بيده أو بيد بابلو، بل بأوامر عمر و ليز . تدخل عمر موضحاً أن الأمر ليس متروكاً لخيارهما ، بل إنهما سينفذان أوامر ليز دون نقاش ، فهو يبحث منذ

مدة عن يدٍ خبيرةٍ تعمل في المعبد ، لذلك فهو يعتقد أن الله هو الذي أرسلهما إليه . ضحك ، قام عن كرسيه ، صار في مواجهة حنا ، حدق في عينيه بقسوة :

- سيد حنا ، أنا متأكد أن الله عز وجل قد أرسلكما إلي . وهي إشارةٌ مهمة ، لذلك تأكد أنك و بابلو لستما أسيرين عندي ، أنتما ضيفان عزيزان طالما تنفذان أوامر ليز ، ومدة استضافتكما مرتبطةٌ بعملكما بشكلٍ جدي لإخراج الكنوز الموجودة في بقايا المعبد .

يبدو الكلام قاطعاً ، والأمر ليس متروكاً لهما أبداً ، ولا بد من تنفيذ مايريده عمر الذي أوضح لهما أن زوجته أم الليث ، واسمها الحقيقي ليز كلين هارت ، هي بريطانيةٌ درست الأدب الإنكليزي في لندن ، وجاءت إلى سوريا من سنتين ، وهي قائدة كتيبة الخنساء النسائية المقاتلة في المنطقة ، وتتبع للكتيبة الرئيسة بقيادة أم مهاجر .

كما حذر عمر الرجلين من أية محاولةٍ للهرب ، مؤكداً لهما أنها مدربةٌ تدريباً جيداً على القتال ، ولا ينصحهما بالعبث معها .

لم تشأ ليز أن تكون إقامتهما في أحد مراكزهم المحروسة ، فلا خوف من هروب الرجلين ، ولا يبدو أنهما خطران ، لذلك قررت أن تجعل إقامتهما في إحدى الشقق ، في وسط المدينة ، ليكونا قريبين من المعبد .

وصلا بصحبتها إلى منزلٍ مكونٍ من طابقين ، يقف حارسان عند مدخل المنزل ، أكدت لهما ليز كلين هارت ، أن الحارسين موجودان لحمايتهما، ولتلبية احتياجاتهما على مدار اليوم ، وكذلك احتياجات اثنين من العاملين في الآثار ، وهما تركيان سيعملان معهما ، يشغلان الطابق الأول، وهما سيشغلان الطابق الثاني من المنزل .

- كلين هارت! أسر للتعامل معك سيدتي ، بادرها حنا ، اسمك يوحي بالتفاؤل . شكرته ليز للطفه ، أحضرت حقائب الرجلين ، قامت بإفراغها ، محتفظةً بالهواتف المحمولة ، آلات التصوير ، وكافة أجهزة الكومبيوتر الموجودة معهما ، وتركت لهما حاجاتهما الشخصية ، وأكياس بذار القمح معتقدةً أنها للاستهلاك . أمرت أحد الحراس بالاهتمام بالرجلين، وإحضار ما يلزمهما ، ودعتهما على أمل اللقاء صباحاً في يومٍ جديدٍ !

فكر الرجلان كثيراً ، ماذا يمكن لهما أن يفعلا ، لقد وقعا فعلاً ، ولا مناص من المساعدة ، وإن محاولة استرضاء عمر غير واردة ، فالرجل مؤمنٌ أن الله قد أرسلهما إليه :

- "سيد حنا ، أنا متأكدٌ أن الله عز وجل قد أرسلكما إلي"

ضحك حنا بصخب . أرأيت ما يفعله الله عز وجل ! يرسل العلماء لخدمة اللصوص !

تابعه بابلو بضحكٍ صاخبٍ أكثر منه للحظاتٍ ثم سكت الاثنان ، تغير مزاجهما ،عادا إلى التفكير بالوضع الذي صارا عليه، وهما يضحكان منه ، استغرب بابلو كيف يفكر هؤلاء الناس! هل يمكن لإنسانٍ يعيش في القرن الواحد والعشرين أن يعود بقيمه ، ومعتقداته ، وأفكاره إلى القرن السابع الميلادي ! هل يمكن إعادة الزمن مئاتٍ من السنين ، بل ألفاً وأربعمائة عام إلى الوراء ! لم يكد يصدق عينيه وهو يتذكر لباس المقاتلين ، راياتهم ولباس النساء والسواد الذي يغطي أجسادهم رجالاً ونساءاً ، بل كيف لفتاةٍ ولدت وتربت في بريطانيا أن تقوم بذلك !

- المسلمون مجانين يا حنا ، تبعها بضحكةٍ مجلجلة .
- مجانين ، أوافقك الرأي تماماً ، لكني أنا حنا السعد غير معنيٍ بهذه القصة ، ولا علاقة لي بالأمر : فأنا مسلمٌ لأنني ولدت لأبٍ مسلمٍ فقط .

عاد حنا إلى الزمن الواضح في نشأته ،عاد إلى الأسرة السورية التي جابت أركان العالم القديم كله ، وأسست لأهم مملكةٍ بحريةٍ في العالم ، فقد جاءت أليسار بدايةً من صور ، متجهةً إلى شمال أفريقيا ، واستقرت على رأسٍ بحريٍ لا سكن فيه ، زرعت فيه الحياة حين بنت - قرت حدشت - أو القرية الحديثة ، والتي عرفت فيما بعد باسم قرطاج ، وذلك في القرن السابع قبل المسيح .

سادت قرطاج حضارة وتجارة البحر السوري المتوسط لمئاتٍ من السنين ، كما دارت حينها حروبٌ أدت في النهاية إلى تدميرها ، ومن ثم هجرها ، وقتل معظم أفرادها على يد الرومان، في حربٍ لا تختلف عن هذه

الحرب التي نشهدها في القرن الواحد والعشرين ، ولا عن أيٍ من الحروب الكبيرة في العالم ، تلك الحروب التي تنشب لأسباب لا نعرفها ، وتوضع لها أسبابٌ تقنعنا ، لكنها بعيدةٌ كثيراً عن الواقع ، ولا علاقة لها بما يحدث .

جده القرطاجي - مهر بعل- بقي في قرطاج ، لم يغادرها ولم يقتله الرومان، كان يعيش على شاطيء البحر،عندما هَزم الرومان قرطاجة ، دمروها ، وفلحوها بالملح : بالمناسبة بابلو اسمي هو - حن بعل - وهومسجلٌ كذلك ، وليس حنا .

- جميل هذا يعني أن لا علاقة لـ (لا إله ألا الله) بك ، هل ما تزال معتقداً بالبعل .

ضحك الرجلان بصخبٍ ، تابع حنا قصة أسلافه ، وكيف نجا جده من القتل : لقد كان الرومان بحاجةٍ لجدي لذلك أبقوا عليه. كان جدي - مهر بعل - تاجراً نشيطاً ، يعمل في الملاحات على شاطيء قرطاج ، وكان الرومان بحاجةٍ للملح ، لذلك كانوا يشترون كل الملح من ملاحات جدي ، وبأسعار باهظة، وجدي يعمل بجدٍ لتزويدهم بحاجتهم ، كانوا مصدر رزقٍ مهمٍ !

جدي مهر بعل ، طلب منهم في أحد الأيام أن يسمحوا له بمرافقتهم إلى المدينة ، ليلقي نظرةً على موطنه المدمر .

وا.. إيلي .. ماذا رأى !

رأى ما يفعل الرومان بالملح الذي يزودهم به ، أول شيءٍ حصل له أنه فقد النطق ، غامت عيناه ، لم يصدق ما يحصل : الرومان يفلحون أرض قرطاج ، ويبذروها بالملح الذي ينتجه ، يفلحون الأرض بالملح كي لا تنهض وتقاومهم من جديد . وقع على ركبتيه ، قبل الأرض ، إنها مالحة ، ذرف دموعاً مالحةً عليها علها تعذره لما يفعله بها .قام ، انتصب ، بدأ الركض إلى شاطيء البحر ، لا يدري كم قطع من مسافة ، لكن ابنه - عذر بعل - يروي أنه ظل يلهث وهو يجهز الفلك ، والحاجيات التي يمكن أن تلزمه في طريق

السفر، سافر برفقة زوجته وأولاده ، واستمر بالتجذيف وهو يلهث ، وهو يقطع البحر جرياً نحو الشرق .

بابلو مدهوشاً ، غير مصدقٍ ..

- لم أعتقد في حياتي أن فكرةً جهنميةً كهذه يمكن أن يفكر فيها إنسان ! لم أعتقد يوماً أن إنساناً في العالم يفكر بأن يكون الملح سلاحاً ! أن يكون البذار ملحاً بدل القمح.
- جدي لم يمت تابع حنا : مهر بعل تابع حياته ، وصل شرقاً إلى سوريا ، إلى موطنه الأصلي من جديد ، ترك مهنته ، لم يجرؤ بعدها على الاقتراب من البحر المالح . أما أبنه عذر بعل فقد انضم إلى حن بعل الذي غادر مهزوماً إلى سوريا ،بعد انتصاراته المدوية في كل أوروبا . جاء مهزوماً ، لكنه مصممٌ على النصر من جديد ، برفقة ملك سوريا أنطوخيوس الثالث الذي كان يعد العدة لحربٍ مع الرومان . قاتل عذر بعل تحت قيادة حن بعل ، وبقي معه حتى حصار الرومان له وموته فاتجه عذر بعل إلى سلوقية ، وأنشأ أسرةً سوريةً كبيرةً . أما في القرن الثاني الميلادي ، فقد عاصر أحد أجدادي ، وهو المعروف باسم كتب بعل عاصر لوقيانوس السيميساطي 160 ميلادي ، وكان كاتباً مثله ، فقد هجرت العائلة السيف وامتهنت الكتابة .
- وماذا حدث لكتب بعل ، ولوقيانوس السيميساطي ؟
- هاجرا سويةً في تلك السنة إلى مصر وشمال أفريقيا ، وأعيد لم شمل العائلة من جديد في قرطاجة ، تونس المعاصرة ، هي عائلتي وأنا أحد أفرادها في العصر الحديث .
- وماذا عنا الآن ؟ قالها بابلو ضاحكاً ..
- الاستسلام هو سيد الموقف يا صديقي ، فلا مجال لأي تحركٍ يمكن أن ينعكس سلباً علينا .
- وهل سنتعاون معهم، هل سنحقق رغبتهم ،أمرٌ مضحكٌ قال بابلو ، مضحكٌ يا حنا ، لم أتصور أننا سنكون في هكذا وضعٍ ؟
- وماذا يمكننا أن نفعل ، هل نستطيع الهروب ؟
- لا ، نسنطيع البدء بأول يوم عمل .. ضحك الرجلان :
- يوم عملٍ!دعنا نقوم بعملنا غداً،ونرى الإمكانات المتاحة بعدها .

في الصباح الباكر ، كانت تنتظرهما سيارتان أمام المنزل ، في الثانية مجموعةٌ للحراسة، وفي الأولى سائقٌ مع ليز، صعدا إلى المقعد الخلفي لسيارة ليز ، أو إليزابيث كلين هارت التي صارت أم الليث ، و هي الشخص الوحيد الذي يمكن استرضاؤه والاعتماد عليه ، ليز أتت إلى سوريا منذ بداية الحرب، عملت بدايةً مع جبهة النصرة ، ثم انتقلت إلى تنظيم الدولة الاسلامية بأمرة عمر أمير منبج ، وهو من جنسيةٍ سعودية .

طلب منها حنا أن تحضر معها هاتفه النقال ،لأنه يجب أن يكلم شخصاً سيساعدهم في عملية البحث عن الكنوز ، كما يسمونها ، أعطته الهاتف مؤكدةً ثقتها فيه ، وبأنه لن يستخدمه إلا بحضورها .

في الحديقة العامة لمنبج توقف الموكب ، كان عمالٌ بانتظارهم ، انضموا إليهم ، لاحظ بابلو أن الحفر العديدة المتناثرة في الحديقة ليست نظامية، فقرر أن يبدأ بمربعاتٍ نظاميةٍ ، ويكون مربعه الأول في مكانٍ غير محفورٍ في منتصف الحديقة، في المكان الذي تتوضع فيه بقايا بركةٍ تزينية .

أعطى بابلو أوامره كقائدٍ لأعمال السبر ، نبه الجميع إلى إخباره فوراً بأي جسمٍ غريبٍ ، من فخار ، برونز ، عملاتٍ معدنية ،تماثيل حجرية أو برونزية ..

كان حنا قد بدأ اتصاله مع أمين ،آخذا بعين الاعتبار تحذيرات ليز ، بأن لا يخبره إلا ما تسمح به ، تجنباً للمشاكل .

- أنا في منبج يا أمين .
- أنا علي يا حنا ، منبج ؟ ماذا تفعلون هناك ؟
- علي ، لا أستطيع إخبارك بأي شيءٍ آخر ، نحاول أنا وبابلو إخراج الكنوز من معبد هيرا ..
- حنا ، قل لي ماذا يحدث ، انتظر لقد استيقظ أمين ويمكنك الحديث معه .
- أمين طمني عنك

- لا بأس يا صديقي التونسي .
- أمين ، أكرر : أنا في منبج ، لا أستطيع إخبارك بشيء ،وحريتي مرتبطةٌ بمدى تعاملي معهم ،وإخراج كنوز معبد هيرا .
- أفهمك ، أنت معتقل ؟
- أجل . لكن من يعتقلني هي صبيةٌ جميلةٌ واسمها كلين هارت .
- جميل ، اسمها يذكرني بشخصٍ عزيزٍ على قلبي، هل هي بريطانية ؟
- أجل صديقي اللدود ،ليز كلينهارت من بريطانية، أتود الحديث معها !
- أتمنى يا حنا . أهلاً ليز ..
- أهلاً أمين ، آمل أنك ستساعدنا في مهمتنا في معبد هيرابوليس .
- بالتأكيد سيدتي ، هل كنت تعيشين في لندن ؟
- أجل .
- وماذا درست هناك ؟
- الأدب الإنكليزي .
- وأنا أيضاً درست الأدب الإنكليزي في سوريا ، وأعيش الآن في اللاذقية .
- اللاذقية التي على البحر ! هل تعرف فيها قريةً اسمها مشقيتا ؟
- مشقيتا ! أنت تتحدثين مع مختار اللاذقية ، فكيف لا أعرفها ، يا صديقتي البريطانية ! أعرف سوريا شبراً بشبر ، فكيف باللاذقية !
- جميل صديقي أمين ، نتحدث عن ذلك لاحقاً ، إليك بابلو تفضل .
- أهلاً صديقي الإسباني ، ماذا تريدون مني ؟
- كنا نتحدث البارحة عن لوقيانوس ، وسميراميس ، ومعبد هيرا ، والسلوقيين ملوك سوريا الذين بنوا المعبد ، وكيف كتب لوقيانوس عن مشاهدته للمعبد ...
- نعم ، نعم ، تريد معلوماتٍ أدق ، أفهمك ، طيب ، أنت أين تحديداً .
- أنا في وسط منبج ، بل في وسط الحديقة العامة .
- جيد .. يفترض أنك الآن في وسط معبد هيرابوليس ، ويفترض أيضاً أن هذا المعبد أساسٌ للمعابد الحديثة رغم قدم بنائه .
- قلت لي هو بابليٌ بالأصل !

- نعم بابلو معبد هيرابوليس بابليٌ في الأصل . وإذا تتبعت خطا لوقيانوس فستعرف عنه أكثر .
- شكراً أمين ، ما رأيك حنا ؟
- رأيي أن نتتبع خطا لوقيانوس .
- الذي هاجر مع جدك في تلك السنة إلى مصر، وشمال أفريقيا ، وأعيد لم شمل العائلة من جديد في قرطاجة ، فكيف عاد جدك (كتب بعل) إلى قرطاجة ، ومن كان معه ؟
- عاد ومعه سميراميس !
- الملكة الآشورية !
- لا ، صديقي ، نحن وكتب بعل في نهاية القرن الثاني الميلادي ، اي بعد حوالي ألف سنة من ملكة بابل .
- ومن سميراميس إذاً ؟
- يقول جدي في أحد أخباره أنها سليلة أسرة سميراميس الآشورية .
- وهل يوافقه لوقيانوس في ذلك ؟
- يبدو أن جدي هو من أصابته عدوى لوقيانوس في الكتابة من خلال الخيال العلمي، ولست متأكداً أن زوجته هذه تتبع سميراميس الآشورية .
- الاسم نفسه .
- أجل كما هو اسمك مع اسم بابلو بيكاسو ، هل أنتما قريبان ؟
- لا أظن ،مع أننا إسبانبان ومن المدينة ذاتها ملقا .
- لكني أظن أن هناك علاقةً ما بين سميراميس ، أقصد جدتي ، وأسرة بيكاسو فيما بعد .
- وما الرابط بينهما ؟
- الحمام ، فقد ولد بيكاسو في أسرةٍ تحب الحمام ، وكان والده يعلمه رسم الحمام دائماً ، وفي اليوم الذي ولدت فيه ابنته، سماها بالوما أي الحمامة، رسم حمامة السلام الشهيرة ، ويبدو أيضاً أن أسرة كتب بعل ، وأسرة بابلو بيكاسو ، كانتا في المدينة ذاتها ،ملقا ، مدينتك !!
- ممكن أن نكون أقرباء أنا وأنت إذاً ؟
- ولم لا ، لذلك دعنا نتعرف على سميراميس كما رأها لوقيانوس .

هيرابوليس

" إني أكتب كآشوري، ما سأرويه شاهدت جزءاً
منه ، ونقل الكهنة الجزء الآخر إلي، وهو يتعلق
بكل ما سأعرضه من وقائع سبقت عصري "
لوقيانوس السمساطي (125– 180 م).

" لوقيانوس السمساطي، كاتبٌ سوريٌ ساخر، أديبٌ وعالمٌ وفيلسوفٌ ، يعتبر أول من أبحر في علم الرواية والخيال ،وأول كاتبٍ في القصة العلمية الخيالية في العالم ، وأول من كتب عن السفر نحو الفضاء الخارجي ، والحياة خارج الأرض ، والحروب بين الكواكب، كما كان الملهم والمعلم الأول لكثير من الفلاسفة في عصره ، و للأدب العالمي حديثاً ، وله مكانة كبيرة بين العلماء،حيث نجده المعلم لشيكسبير وفولتير.

كتب لوقيانوس باللغة السورية التي كان يسميها آشورية ، رافضاً الكتابة بلغة المنتصر الروماني .

كتب عن هيرابولس المدينة التي كان فيها معبد هيرابولس وهي منبج السورية اليوم ، والتي تجثم فوق حوض ماءٍ واسعٍ والمياه تتفجر منها بشكل ينابيع تغذي البركة المقدسة للمعبد الفخم . وهيرا الآشورية أو السورية هي الربة المشهورة أترغاتيس ، التي توجت آلهةً للخصب إلى جانب عشتار السورية ، التي صارت أيزيس المصرية ، أفروديت الاغريقية ، وعشتروت الفينيقية .

وصف لوقيانوس في كتابه عن الآلهة السورية ، معبد هيرابوليس والاحتفالات التي كانت تقام فيه ، وتحيي في ذاكرته انفعالات الصبا والطفولة ، حيث شارك منذ نعومة أظفاره بالعبادات التي كان بنو قومه

يمارسونها ، وعندما عاد إلى المعبد ، وجد خصلة الشعر التي كان وهبها فيما مضى للآلهة ، واستعاد ذكرياته الأولى .

انتشرت عبادة الآلهة السورية من بلاد الرافدين إلى روما والتخوم الشمالية للامبراطورية الرومانية . وكان عبدة الآلهة السورية يعبدون الشمس في هليوبوليس ، وكانوا يتصورون ان نسراً كان يحمل نفوسهم نحو الشمس بعد الموت ، مما يفسر موجة عبادة الشمس في سوريا وفي مصر .

ويتساءل لوقيانوس : من بنى معبد هيرابوليس ؟ هل هو دوكاليو الذي ينسب الطوفان البابلي إليه ؟ أم هي الملكة الآشورية سميراميس ، أم أن ستراتوس زوجة الملك سلوقوس نيكاتور، هي التي بنته ؟ ويؤكد لوقيانوس : لقد شاهدت بعيني كنوزاً محفوظةً في المعبد، ويزعم الناس أن دوكاليون السيثي هو الذي أسس المعبد، وبأن دوكاليون هذا هو نفسه الذي حدث الطوفان الكبير في عهده ، وقصة ذلك أن البشر اليوم لم يكونوا الجنس الأول ، فقد أتى البشر الحاليون من جنسٍ ثانٍ تكاثر منذ عهد دوكاليون، ويحكي عامة الناس عن الطوفان ، والفلك الكبير، كما يروي سكان هيرابوليس أسطورةً مفاجئةً تماماً تقول إن فجوةً كبيرةً انفتحت في أرضهم فغارت المياه كلها فيها ،أما دوكاليون فقد بنى فوق هذه الفجوة معبداً كرسه لهيرا ، حيث يقول لوقيانوس :

لقد رأيت هذه الفجوة أيضاً ، وهي صغيرةً جداً وموجودةٌ تحت المعبد ، وفي ذكرى هذه الأسطورة يقوم الكهنة ومعهم أعدادٌ كبيرةٌ من الناس مرتين في السنة ، بجلب مياه البحر إلى المعبد،يفرغونها أولاً في المعبد ، لتغور المياه في الثقب الذي يمتص كمياتٍ هائلةٍ منها رغم صغره، ويقولون أنهم بذلك يتبعون عادةً أسسها دوكاليون .

وهناك بعضٌ من الناس يعتقدون أن سميراميس الآشورية هي مؤسس هذا المعبد ،وأنها أسسته على اسم أمها التي كانت تدعى دركيتو ، وليس على شرف الآلهة هيرا ، ولقد رأيت في فينيقيا تمثالاً لدركيتو ، وهو ذو منظرٍ غريب ، فالصورة تمثل امرأةً حتى منتصفها ، أما النصف السفلي من الجسم من الفخذين وحتى القدمين فيتطاول بشكل ذنب سمكة . لذلك فإن

أهالي المنطقة لا يأكلون السمك لأنه مقدسٌ كون دركيتو لها شكل سمكة ، ولا يأكلون الحمام أيضاً لأن سميراميس رباها الحمام ، وتحولت إلى حمامة بعد موتها . وهذا ما يرجح أن تكون سميراميس هي من بنى المعبد .

لقد خلقتني الطبيعة امرأةً

لكن أعمالي ساوتني باشجع الرجال ....

سميراميس 800 ق . م -

سميراميس ملكةٌ آشورية ،واسمها تحريفٌ إغريقيٌ لأسم سمورامات الذى يعنى الحمامة او محبوبة الحمام . دام حكمها 42 عاماً مع زوجها شمشي حدد ، ومع ابنها حدد نيرارى ، ويبدو أنها في السنوات الخمس الأخيرة ، حكمت بمفردها بعد وفاة زوجها.

بدأت حكمها ببناء ضريحٍ فخمٍ في نينوى تمجيداً لزوجها ، وعثر على نقشٍ حجريٍ تذكاريٍ في آشور، تصور فيه بالملكة العظيمة .

لم تكتف سميراميس بالسلطة السياسية والإدارية ، بل تعدتها إلى التأثير في الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية ، وكذلك في الكهنوت الآشوري وعموم الحياة في نينوى ،وقد أضافت نوعاً من الرقة و الروحانية على المذهب الآشوري الذي يقدس رجولة الإله آشور ، كما نجحت في ابراز إله الحكمة نبو ابن الإله مردوخ كبير آلهة بابل، وإعطاء القيادة الفكرية واللاهوتية لنبو ولحكمته .

ذاعت شهرتها معظم أرجاء العالم القديم ، وحاول كل شعب الادعاء أنها تنتمي إليه : البابليون ، الآشوريون ، الإيرانيون ، الأرمن، لكنها بقيت في النهاية سورية .

دارت حولها أحاديث كثيرة ونُسبت إليها أعمالٌ عظيمةٌ، كالحروب وتأسيس المدن، والمشاريع العمرانية الواسعة، وأهمها بناء مدينة آشور بمعابدها وقصورها الضخمة، وإحاطتها بالاسوار العالية . ومن الأعمال الجبارة التي قامت بها هذه الملكة بناء نفقٍ مقببٍ من الحجر تحت مجرى نهر دجلة ليوصل طرفي المدينة. كما واشتهرت ببناء الشوارع والجسور

والقصور ، وكان أهم انجازاتها العسكرية فتوحاتٌ كثيرةٌ، استطاعت من خلالها السيطرة على بلاد الشام ومصر .

بنت سميراميس ، كالملوك العظام مسلةً لتخليد ذكرها في ساحة المسلات في معبد آشور ، وقد كتب عليها :

سمورامات
ملكة سيد القصر شمس حدد ملك الكون ملك آشور
والد حدد نيراني ملك الكون ملك آشور
وكنة شلمنصر ملك الجهات الاربع .

سميراميس

" هي الأجمل والأقسى بين ملكات الشرق".

لم أكن قد مت بعد .

كنت يومها ما أزال أعيش على ضفاف الفرات أرعى الأغنام ، ضمن مجموعةٍ تهتم بأغنام آشور ، نقتات على سمك الفرات الذي كان وفيراً حينها ، كانت الأمطار خيرة ، وكان الفرات يرمي الكثير من أسماكه إلى الشواطئ .

يومها ، كانت الأمطار غير متوقعةٍ ، ففاض الفرات بغزارة ، مما أدى وكالعادة إلى خروج الاسماك الى الشاطيء بشكلٍ كبيرٍ ، كثرة الأسماك لم تك هي المفاجأة ، لكن المفاجأة الكبيرة كانت خروج سمكتين كبيرتين ، اتجهتا الى وسط النهر ، ثم خرجتا وهما تدفعان بيضةً كبيرةً باتجاه الشاطىء، فكرت بالذهاب إلى الشاطيء للتأكد مما يحدث ، لكن زوجاً من الحمام ناصع البياض كان أسرع مني في التقاط البيضة ، احتضناها ، داعباها قليلاً ، ثم حملاها وأخذاها بعيداً عن مجرى النهر.

أكلني الفضول في أن أتابعهما ، لكن إلى أين ، كانت الحمامتان اختفتا بعيداً ، مع ذلك بقيت هذه القصة معلقةً في ذهني لسنوات .

خلال هذه السنوات فقست البيضة ، فكانت المفاجأة الكبرى :

خرجت من البيضة طفلةٌ رائعة الجمال بيضاء كالثلج ، يحيطها الحمام بالعناية والحماية من الحر والبرد، لتعيش هذه الطفله بصحبة الحمام ورعايته وحمايته حياةً هنيئةً لم تعرف فيها الشقاء .

من ناحيةٍ أخرى ، وجد الحمام المكان الذي يخزن فيه الرعاة ما تنتجه أغنامهم من حليبٍ ، وما يصنعون من جبنٍ ، فكان يأخذ منه ما يقدر عليه بمناقيره الى هذه الطفلة ،التي صارت فتاةً ناصعة البياض جميلة.

هذا الأمر كان سبباً في كشف سرٍ كبيرٍ بعد كثيرٍ من السنين ، نسيت فيها قصة السمك والحمام والبيضة ، ففي يومٍ ربيعيٍ ، والخير

كثير ، لاحظت نقصاً كبيراً في منتجاتنا من الحليب والجبنِ ، شككت في أحد الرعاة في البداية ، كان فقيراً جداً ، وكان أحياناً يأخذ دون معرفتنا بعض الحليب والجبن لأمه المريضة، كنا لا نشعره بأننا نعلم بذلك ، وكنت من طرفي أسامحه على ذلك ، لكن الكميات هذه المرة كبيرة .

أنكر عبدو مؤكداً أنه ومنذ مدة ، لا يأخذ أبداً من مخزون الرعاة ، ولمعرفتي الأكيدة بصدقه أصابتني الحيرة ، واحتار الجميع معي ، مالذي يحدث ! من وراء نقصان المخزون ! قررنا وضع أحدهم ليراقب ما يحدث، تبرع عبدو بذلك ، ربما لإثبات براءته ، وقبلنا أن يكون هو ، خلال يومين كانت المفاجأة الكبرى حين دعانا عبدو لنرى ما يحدث :

كان الحمام يحط على الحليب والجبن ، ويحمل ما يقدر منه الى أشجار التل المجاور ، فأسرعنا جميعاً نلحق بالحمام حتى وصلنا التل، حيث كانت المفاجأة أكبر مما نتصور ، أو يتصور أي عقلٍ بشريٍ :

بين الأشجار عشٌ كبيرٌ من الأغصان الناعمة ، يزينها ريشٌ ناصع البياض ، يحيط بالعش الذي يبدو كسريرٍ ملكيٍ مئاتٌ من الحمامات ، وتستلقي عليه هادئةً هانئةً فتاةٌ ، يظهر منها رأسها وكتفاها ، وجزءٌ من صدرها ، وساقاها من القدم حتى الركبتين ، بينما يغطي الريش بقية جسدها. تبدو حسناء رائعة الجمال ، أشرت للجميع ألا يقتربوا أكثر ، خشية إثارة الحمامات اللواتي من الممكن أن تهاجمننا ، ومن الحكمة أن ننتظر الليل حين ينام الجميع ونأخذ الفتاة ..

لم تك تلك الليلةً مقمرةً ، الظلام يلبس المكان تماماً ، الحمامات سرقهن النوم في أعشاشهن على الشجر ، والفتاة تنام وحيدةً هانئةً سعيدةً بعيدة عن البشر .

اقتربت منها، أنفاسها لا تكاد تسمع ، وضعت يدي بهدوءٍ على فمها ، حملتها بالأخرى ، كانت كالريشة ناصعة البياض ، خفيفةً كنسمةً ربيعيةٍ تطفو على الفرات العذب ، صامتةً بشكلٍ كاملٍ غير عارفةٍ بما يحدث لها .

سار الرعاة خلفي بهدوء وصلنا خيمنا ، أنزلتها في خيمتي ، وجهها لم تعبره أية مخاوف ، أو وساوس ، تنظر إلي بحبٍ ، لأول مرة في حياتي أرى ما يشبَه وجه القمر، لا وجهها أجمل من القمر ، أكثر بياضاً حليبياً ، أكثر لمعاناً قمرياً ، وأكثر نوراً ،ذلك الذي يقولون عنه إلهياً :

- لا تخافي يا صغيرتي : تنظر دون خوف ، بل دون فهم ، إنها لاتفهم ما أقول .. ألح عليها ، تجيب بكلماتٍ ليست كالكلمات ، صوتٌ أنسيٌ لكنك لاتفهم منه حرفاً ، لا ليس أنسياً ، بل كلماتها سجيع الحمام وليس صوت البشر ، أنا لا أفهم شيئاً ، لا أفهم منها حرفاً ، وهي لا تفهم مني حرفاً ما الحل ؟ وكيف لي أن أحدثها وتحدثني ، أفهم منها وتفهم مني ؟ .

كان الحكيم (حدد الراعي) مربياً في بلاط الملك قبل أن يشيخ ، فطلب من الملك أن يسمح له أن يعيش أيامه الأخيرة على ضفاف الفرات معنا ، لاحظ الحوار العبثي بيننا اقترب مني بهدوء :

- أنت أمام مشكلةٍ حقيقيةٍ يا صديقي ، قال لي الحكيم حدد الراعي ، لكنها مشكلةٌ قابلةٌ للحل ، فلا تخف .
- وماذا أفعل ؟
- تحتاج الوقت فقط ، وكل شيءٍ يصبح قابلاً للحل .
- تبدو الفتاة في الثانية عشرة فقط .
- أوافقك لكنها من الناحية المعرفية واللغوية ما تزال تحبو ..
- وماذا أفعل ؟
- هذا شغلي يا صديقي ، فكم أخرجت من أولاد وبنات الملوك من الصمت إلى النطق ، وكم جعلت الساكت فيهم خطيباً بليغاً ! فقط لنتعامل معها كطفلٍ رضيع ، ليس في الغذاء والمسكن والحياة بشكلٍ عام ، بل في الكلام وهنا الأهم .
- أتقصد نعلمها كيف تحكي مثلنا ؟
- تماماً ، بعد أن تفهم منا ونفهم منها ، يصبح الأمر بسيطاً . لأن الفتاة لا تعرف اللغة التي نحكيها، واللغة الوحيدة التي تعرفها حتى الآن هي سجيع الحمام .
- لكن كيف نفهم سجيع الحمام ؟ كيف يمكننا أن نساعدها ، قال أحد الرعاة .
- ليس مطلوباً منا أن نفهم لغتها ، أكد حدد الراعي ، ولا يمكن لنا أن نفهمها ، بل أن ننسيها لغة الحمام بتعليمها لغتنا .
- تصبح بشريةً حينها ، سأل أحد الرعاة .
- مثل أي واحدٍ منا ، سأل آخر مستغرباً !

- الإنسان بطبعه متعدد المكونات الخام ، أضاف حدد الراعي ، هكذا يأتي إلى الحياة ، ثم يصبح مع نشأته وبتأثير محيطه ، مثلك أو مثله ، أو مثلي أنا .
- أو مثل ملكنا مثلاً !
- كيف ، سأل آخر غير مستوعبٍ لما يدور حوله !
- عندما يولد طفلٌ ما ، في مكانٍ ما في هذا الكون ، فهو لا يعرف أية لغةٍ ولا ينتمي لأي معتقد ، إلا اللغة التي تعلمه إياها أمه وأسرته ، والمعتقد الذي يلقنه إياه أبوه ومجتمعه . أكد لهم حدد الراعي .
- إذاً ستفهم مع الأيام لغتنا وتتحدثها ؟
- أجل يا صديقي ، ومعتقداتنا ستصبح معتقداتها ، فاللغة والمعتقد يكتسبهما الإنسان من محيطه ، ولا يرثهما .
- يعني ! اعذرني أيها الحكيم : عندما ولدت أنا هنا ألم أكن آشورياً ؟
- لأنك ولدت هنا أصبحت آشورياً ، ولو ولدت في مصر لأصبحت مصرياً .
- وكنت أتحدث لغة مصر ؟
- بالتأكيد .
- إذاً ، لافرق بين البشر في أي مكانٍ من هذا العالم ، فهم يولدون بلا لغة ولا معتقد .
- الفرق يا بني يكمن في قدرة البشر العقلية ، في طريقة ونوع المعرفة التي يقودهم إليها مجتمعهم وأسرهم ، فالآشوري كالمصري والإغريقي في الولادة ، لكن مجتمعهم يلبسهم لغةً ومعتقداً ، يختلفان من مكانٍ إلى آخر .
- إذاً هذه الحمامة ناصعة البياض ماذا ستكون ،سأل عجوزٌ بلسانٍ ضعيفٍ ..
- لا أظن من الحكمة أن تعيش بيننا ، رد آخر ..
- حرام أن تصبح من مجتمعنا ، يليق بها أن تكون ملكة !
- قلت الحق تماماً ، أجبته وسرحت خلف أفكاري ، كم ستكون مكافأتي من الملك ، وكم سيشكرني على هديتي له !

اتفقنا جميعاً ، على أن نأخذها إلى الناظر ، وهو الذي سيقدمها بالطريقة المناسبة إلى الملك ، كما اتفقنا أن نتقاسم المكافأة ، وأن سيما ناظر خيول الملك ، هو من سيقرر مكافأتنا ، بينما نترك مصير الفتاة ناصعة البياض بين يديه ، كان الراعي حدد قد سمى الفتاة سميراميس أي حبيبة الحمام لأننا وجدناها بين الحمام الذي كان الآن يحوم حولنا

بكثافة ، إذ أدرك أنها بيننا ، وهو يريد ابنته . لكننا وإذ أدركنا رغبة الحمام الشديدة ، فقد أخفيناها عن عيون الحمام ، وقررنا ألا ننقلها تحت نظر الحمام ، بل سننتظر فجر اليوم التالي .

لم يك من السهل المرور في شوارع وأزقة نينوى ، فاليوم ربيعيٌ جميلٌ ، ويصادف الاحتفال برأس السنة السورية ، الذي يحضره بالعادة جميع أهل نينوى بمن فيهم كبار المسؤولين ، والملك شخصياً .

سرت برفقة حدد الراعي ، وعبدو وإثنين من زملائي، قاصدين بيت سيما الذي عثر علينا في طريقنا إليه . اندهش من جمال الفتاة ، فطلب منا اللحاق به بسرعة إلى منزله القريب من ساحة نينوى ، والمقابل لبيت الملك،دخلنا إلى منزله، استقبلت زوجته الأولى الفتاة وأخذتها إلى مسكنها .

بعد أن رويت وبالتفصيل الممل قصة الفتاة من الفيضان ، إلى نقص المواد ، إلى الحمام ، لم يبد السيد سيما مقتنعاً بكلامنا ..

- أصدقوني القول ، من أين حصلتم على هذه الفتاة ناصعة البياض !
- سيدي ، تعرفني صادقاً طيلة حياتي .. أقسم بآلهة آشور أني لم أكذب بحرفٍ واحد، وأصدقائي يؤكدون ذلك .

نظر سيما في عيون الجميع ، كانت عيونهم صادقةً محبةً لا تعرف النفاق ، كانت عيون رعاةٍ ألفوا الطبيعة بكل مافيها من صدقٍ وعايشوها ، أقسموا بآلهة آشور إضافةً لقولهم الصدق فارتاح سيما ، أمر لهم بجائزةٍ كبيرةٍ ، ووعدهم بأن يبقوا رعاة الملك مع أسرهم طيلة حياتهم .

- سيدي سيما ، لي طلبٌ واحدٌ منك .
- تفضل .
- أسميناها سميراميس ، هل تحافظ على الاسم إن أعجبك ؟
- أحافظ بالتأكيد ،اسمٌ جميل .
- يعني حبيبة الحمام .
- حبيبة الحمام ، رائعٌ .
- سيدي ، نظراً لكرمك ، لي طلبٌ آخر ممكن ؟
- تفضل يا بني .
- الفتاة لا تعرف لغتنا ، ويبدو أن صديقنا العجوز الراعي حدد قد فهم مشكلتها ، هل تستضيفه معها كي يعلمها لغتنا ؟

- بالتأكيد .. حدد مشهودٌ له بالعلم والعقل .

سيما،ومن زيجاتٍ ثلاث ، لم يحظ بولدٍ ولا ببنت ، فكان دخول سميراميس الى بيته وإلى أسرته،حدثاً جميلاً قلب حياته وحياة أسرته كلها ، فرحت زوجاته بها ، ساعدن في تربيتها باشراف حدد . وكل واحدةٍ منهن عاملتها كابنتها .

بعد أربع سنينٍ بالتمام والكمال ، صارت الفتاة في السادسة عشرة من عمرها ... كبرت الفتاة ناصعة البياض واشتد عودها ، صارت أجمل نساء نينوى، اكتمل تعليمها وتثقيفها ، وكان حدد الراعي على قدر المسؤولية ، كان يعمل لساعاتٍ طويلةٍ معها ، وكانت زوجات سيما على قدر المسؤولية أيضاً ، فخلال أربع سنوات صارت ناصعة البياض في السادسة عشرة من عمرها جديرةً أن تقدم إلى مجتمع نينوى :

منتصبة القوام رشيقته ، شعرها ليلٌ منسدلٌ يغطي ظهرها ، تمشي وعيناها السودوان الواسعتان مثبتتان للأمام لا ترمشان ، في حركة قدميها رقصٌ دائمٌ منضبطٌ بإيقاع متينٍ ، صبيةٌ قويةٌ بنعومة طفلٍ ، امرأةٌ قاسيةٌ بشموخ أنثى ، وأحلى مافيها جمال وجه فتاةٍ لم تره نينوى ، وثقافة امرأةٍ لم تصلها ملكات وأميرات نينوى .

كان سيما فخوراً بسرعة تقبل سميراميس لكل ما قدمته لها زوجاته بإشراف الراعي ، فقد أتقنت خلال هذه السنوات الثلاث اللغة والرقص والعزف على أكثر من آلةٍ موسيقية ، كما كانت بارعةً في الصيد وركوب الخيل ، ولم تعد بحاجةٍ إلى أي تعليمٍ آخر .

... وجاءت المناسبة ، سيقدمها غداً إلى مجتمع نينوى في حفل رأس السنة السورية الكبير ، والذي يتوج عادةً بسهرةٍ كبيرةٍ في ساحة القصر، يدعى إليها أعيان المملكة ، وضيوفها من الممالك المجاورة ، ومن أجل هذه المناسبة لا بد من زيارةٍ أخيرةٍ برفقتها فجر الغد :

رحيلٌ بطيءٌ للظلمة ، يبزغ من خلاله ضوءٌ خافتٌ تبعثه قناديل الزيت الفخارية والنحاسية التي تتوزع معبد عشتار المقدسة . يمتد الضوء إلى باب معبد عشتار ، حشدٌ من الزوار الاستثنائيين للمعبد ، ينقسم إلى مجموعتين تتباعدان لتفسحا المجال أمام فتاةٍ في السادسة عشرة من عمرها ، تتكيء يدها على يد أبيها بحنانٍ، وهو يقودها باتجاه المذبح ...

راقصة المعبد ترفع يديها تدريجياً ، دخان البخور يتغلغل في خصلات شعرها الغجرية ، ويتوزع حولها، تتسارع حركتها في النهوض ، وتنهض شعرها الطويل إلى ما لا نهاية معها ، تقف بثقة وهدوء ، تدور على نفسها ،مع صوت طبولٍ متسارعةٍ وأنين نايٍ سعيدٍ يغني .. سبع فتيات غجريات الشعر المنسكب على كامل أجسادهن ، يدرن معها ، يرقصن معاً مع تسارع صوت النايات والطبول ، ويزداد دخان البخور متغلغلاً بين شعور الفتيات وحولهن ، يفسحن الطريق أمام الفتاة وأبيها .

تتقدم ثابتة الخطوات ، رافعةً رأسها بثقة ، خطواتها منسجمةٌ مع خطوات أبيها ، نظرتهما واثقةٌ باتجاه كاهنة معبد عشتار ، يحنيان رأسيهما أمامها ، والبخور يتزايد حولهما :

- مباركةٌ أنت بين النساء من عشتار . محميةٌ أنت من عناة البعل .
  ترفع راهبة معبد عشتار صوتها .

تركع سميراميس ، ترفع نظرها إلى كاهنة المعبد :

- أضع نفسي في خدمة ربتي عشتار ، كي تستمر سوريا أبد الدهر .
- انهضي يا بنتي ، مباركةٌ أنت بين النساء ، وعظيمةٌ بين الرجال .
  تكرر راهبة معبد عشتار رافعةً صوتها .
- مباركةٌ بين النساء، عظيمةٌ بين الرجال !يردد سيما ! ينظر تارةً باتجاه كاهنة معبد عشتار ، وتارةً أخرى برهبةٍ باتجاه ابنته: من أين جاءت! وإلى أين تمضي ! ماالبطن الذي حملها ! كيف يفسر ذلك إذا سئل ،وهل سيصدقه أحد ! والراهبة ! يبدو أنها تعرفها ، تعرف مصيرها ، مستقبلها ، ترى أي مستقبلٍ ينتظرها !

تنسحب سميراميس بهدوء ، ملامحها لم تتغير،لأن ما قيل لها ، كان يتكرر كثيراً ،ولا تعرف من أين ، أو من يقوله ! هي تسمعه من طفولتها ، وحتى عندما لم تك تعرف لغة بابل . راقصة المعبد ترفع يديها تدريجياً ، تقف بثقة تدور على نفسها ، مع صوت طبولٍ متسارعةٍ وأنين نايٍ

سعيدٍ يغني .. تخرج سميراميس من معبد عشتار ، تتجه برفقة أبيها إلى معبد مردوخ كبير آلهة بابل :

يمتد الضوء خارج باب المعبد ، حشدٌ كبيرٌ من الزوار، يفسح الطريق لدخولها مع أبيها ، ما تزال يدها تتكيء على يد أبيها بحنانٍ،وهو يقودها باتجاه المذبح .

راقصة المعبد متقدمةً سبع راقصاتٍ ، ترفع يديها تدريجياً ، دخان البخور يغطي الراقصات ، يتغلغل في شعرهن الغجري المتماوج ، يرقصن بإيقاعٍ سريعٍ ، فاتحاتٍ أيديهن لاستقبالها ، تصبح جزءاً من الرقصة والراقصات ، ترقص على إيقاعهن وكأنها تعيش معهن منذ سنوات.

تدور الراقصات وهي معهن ، مع صوت الطبول المتسارعة، وأنين القيثارات العذب ، الراقصات غجريات الشعر المنسكب على كامل أجسادهن ، يدرن معها ، يرقصن معاً ، دخان البخور يزداد حولهن وبينهن ، تهدأ حركة الراقصات ،الحشد الكبير من زوار معبد مردوخ مندهشاً يفسح الطريق لوالدها ، الذي ينضم إليها ، تتكيء يدها على يده ، يقودها باتجاه المذبح:

تتقدم ثابتة الخطوات ، رافعةً رأسها بثقة ، خطواتها منسجمةً مع خطوات أبيها ، نظرتهما واثقةً باتجاه كاهنة معبد مردوخ ، يحنيان رأسيهما أمامها ، والبخور يتزايد في المكان :

- مباركةٌ أنت بين النساء من مردوخ . محميةٌ أنت بالحكيم نبو، ترفع راهبة معبد مردوخ صوتها .

تركع سميراميس ، ترفع نظرها إلى كاهنة المعبد :

- أضع نفسي في خدمة إلهي مردوخ ، واتمنى أن أصبح بحكمة الإله نبو ، كي تستمر سوريا أبد الدهر .

تنهضها كاهنة مردوخ ، ترافق والدها ، تخرج من المعبد والجموع تشيعها ، أصوات موسيقا منبعثة من الصالة الرئيسية لقصر الملك تدعوها إلى الحفل السنوي لرأس السنة السورية .

- اليوم يومك يا بنتي . يقول لها سيما واثقاً ، ويدها تتكيء على يده ، يجتازان باب القصر الكبير ، يصلان مدخل الساحة الرئيسية لقصر شمس حدد ملك آشور، ملك الكون الذي يبهره الضوء القادم من مدخل قصره ، يقف مشدوهاً ، يقف الجميع .

صمتٌ وكأن الملك ومن معه في هذه الساحة كانوا بانتظارها . آلاف العيون انشدت تتطلع بحبٍ إلى تلك القادمة ، آلاف العيون تتطلع إلى تلك التي كانت ناصعة البياض ،وصارت سميراميس ، آلاف العيون لا تكاد تصدق أن في العالم جمالاً كهذا ! عينان بين هذه الآلاف كانتا تستعجلان وصولها ، تستعجلان خطواتها التي تباطأت في عيني ملك الكون ، ملك آشور شمس حدد ، الواقف متلهفاً وصولها .

كان سيما يحدق في صديقه العتيق ، محاولاً معرفة تأثير الفتاة ناصعة البياض عليه ، اطمأن ، عينان بين آلاف الأعين كانتا هدفه فاطمأن ، عينان بين آلاف الأعين كانت مقصده ، رآهما فرحتين ففرح .

كان وجه ملك الشمس فرحاً ،عاد إلى طفولته ، لم يتأخر قلبه في الارتسام على وجهه ، نقل ما يجيش في صدره ، لم يستطع التحمل أكثر ، نزل خطوةً أو خطوتين عن عرشه ، كانت سميراميس قد أفلتت يد أبيها ، وسبقت الملك لتركع أمام قدميه ، لكن الملك كان أسرع منها ، وبيدين قويتين ، أنهضها ، فصارت في مواجهته :

- مولاي ، شمسك تملأ الكون فرحاً .
- من أنت أيتها الفتاة !
- أنا ابنة الحمام ناصع البياض حباً وسلاماً .
- ومن أين أتيت !
- من نسائم الفرات عفةً ورقة .
- وما تفعلينه في قصري !
- أعيد ولادة عشتار من جديد .

- ولماذا !
- لأخلق من جديد عشقاً يليق بالشمس ..
- هل أنت ابنة عشتار ؟
- عشتار أمي الأبدية الخالدة ، لتأمر جلالتك بالموسيقا .
- لترافق موسيقا النايات صوتها ، أمر الملك .

صوتٌ يمزج بين سجيع الحمام وعذوبة النساء ، بدأ يرتفع تدريجياً ببوح العشق الكامن داخلها ، منشدةً النشيد الإلهي الأزلي :

أولى الخلائق المدركة ذاتها بذاتها

المستغنية بحالها

عشتار الخصب اللانهائي

العذراء معطية الجميع

التي كلها نقاوة وتوق

العاشقة الطاهرة

زبد البحر

عشتار قمري

وأنت شمسي

- وأنت ستصبحين القمر الذي يرافق شمس طيلة حياته .
- مولاي سأتبعك كظلك .
- تكثرين ذريتي ياقمري .
- وأحفظ اسمك يا شمسي .

يرفع الملك الشمس يده ، هدوءٌ كاملٌ في الصالة ، العيون شاخصةٌ إليه ، عينا سيما تكادان تصلا إليه ، تسبقهما أذناه بانتظار أن يبدأ الملك بالكلام ، موسيقا الصنوج ترتفع لثوانٍ وتخفت :

- أبنائي ، أطلب من ابنة سيما أن توافق على رغبتي الملكية بالزواج منها في هذا اليوم المقدس . واعداً أن أرعاها كابنتي ، أتمنى من أبنة سيما أن توافق على رغبتي الملكية بالزواج منها ، لتصبح مليكتي .

تحني سميراميس رأسها أمام الملك الشمس ، يصل إليها والدها سيما ، يقف إلى جانبها ، يحني رأسه أمام الملك الشمس ، تصدح الموسيقا من جديد ، تبدأ السهرة الراقصة المميزة لهذا العام يدعو الملك الشمس سميراميس لمراقصته ، تتصاعد موسيقا الفرح .

***

3

المحاولة الثالثة للبقاء على قيد الحياة ..

لم أكن قد مت بعد !

جسدي ما يزال ينزل بسرعةٍ كبيرةٍ إلى هوةٍ بعيدة . جاذبيةٌ تسحبني إلى منحدرٍ لا مرئي . الخدر يشل جسدي تدريجياً ، هل هو طريق الموت ؟ وصلت ؟ لم أصل ؟ مت ؟ لم أمت ؟ تشويش ...

كنتُ ما أزال ممدداً في التابوت :

صوت رقاص الساعة يتزامن مع صوت دقات قلبي ، حاولت أن أهدأ حينما فُتح الباب بهدوء :

وفاء و ممدوح يشبكان أيديهما . كانت ترتدي قميص نومٍ رقيقٍ شفافٍ ، لا يستر شيئاً من جسدها ، وكان يرتدي بيجامتي الصيفية البيضاء ، وكان الشبق يرتدي وجهيهما .

- ويلييييي هوون ، وهلق ؟

حاولت هذه المرة جاداً أن أنهض لم أستطع ، هل متّ ! ربما شل جسدي ! شدّها ممدوحٌ إلى الأريكة ، انبطحت فوقه ، فكّرتْ :

- ربما كانت صفاء ابنته وليست ابنتي :

ـ ارتحنا ، قالت له .

ـ الحمد لله ـ الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه ـ أجاب .

ـ و صفاء ؟

ـ يجب أن نزوجها من موفق .

ـ لا مانع لديّ ، أضافت وفاء ، وهكذا لا تأخذ شيئاً من الورثة .

ـ لن تحتاجها ، موفق يصرف عليها منذ عامين .

(موفق) ! يا ويلييي .. هادا الدكنجي !

هذه المرة لم أعد أستطيع الاحتمال ، هل أخرج من التابوت؟ لا ، يجب أن أعرف إلى أين ستقودني هذه الميتة ؟ .

كان ممدوحٌ قد لفّ وفاء ، وسقطا من الأريكة إلى الأرض ، لم أعد أرى شيئاً ، لكن فحيحهما كان يملأ المكان . كنت على وشك أن أموت فعلاً . قامت تودعه إلى الباب بقبلةٍ لم أحصل عليها طيلة حياتي .

الآن فقط ، وبعد عشرين سنة زواج ،عرفت لماذا كانت تتهرب من تقبيلي . الآن فقط أدركت أني يجب أن أموت ، وأن أُلعن في كل مكان ، وأن أداس بالصرامي الحمر العتيقة لكن كيف سيعرف الآخرون ما حدث ؟ لا لا ، تشجع يا ولد ، ابق على قيد الحياة ، هذا موضوعٌ مهمٌ ، ستفجر قنبلةً بكتابة ما حدث لك . ابق كما أنت لتعرف أكثر .

ليز كلين هارت

بعد يومٍ طويلٍ من اللصوصية الأثرية ، عاد عالما الآثار إلى بيتهما المختار بعنايةٍ وسط مدينة منبج . لم يكن لديهما أي نوعٍ من التسلية ، هواتفهما وأجهزة اللابتوب محجوزة،السينما والتلفزيون ممنوعان إسلامياً ، التسلية الوحيدة هي عودتهما إلى الوراء مئات السنين ، وتمضية وقتهما بالحديث والكلام ...

- وأين مات لوقيانوس ؟وهل تابع رحلته ؟ قال بابلو ، وكأنه صحا من نومٍ طويلٍ ، أجابه حنا :
- أجل تابعها ، وأظن إذا نجونا من هؤلاء المسلمين المجانين ، فإننا سنسير في طريقه .
- إلى قرطاج ؟
- أجل ، وبعدها إلى أسبانيا .
- ولماذا ؟
- لنتابع خطا لوقيانوس ، ومعها خطا أسرة كتب بعل وأسرتك .
- تقصد بابلو بيكاسو !
- تماماً ، وتحري من بقي من أسرته بعد وفاته ، وخصيصاً بالوما بيكاسوو ابنته التي ولدت يوم رسم حمامة السلام.
- القصة يا صديقي قبل بيكاسو وقبل سميراميس هي قصة معبد هيرابوليس ، الذي نعمل فيه الآن ، فمعبد هيرا بوليس ، الذي يتربع فوق حوضٍ واسعٍ من المياه تغذي بركته المقدسة ، يعتبر ذا أهميةً كبيرةٍ كأول معبدٍ متكاملٍ في العالم .
- والربة هييرا التي بني المعبد على اسمها ، من هي ؟
- هي الربة المشهورة أترغاتيس ، التي توجت آلهةً للخصب إلى جانب عشتار ، ويفترض حسب الوقائع التاريخية ، أن ستراتوس زوجة الملك سلوقوس نيكاتور، هي التي بنته ؟
- أي أننا نعيد إحياء هذه السيرة من خلال استكشاف المعبد ؟
- هذا لو كنا نعمل كأثريين ، وليس كلصوص آثار .

- وهل نعمل ذلك بإرادتنا ، وهل نستطيع الهروب من هذا المجنون عمر ، وخليلته البريطانية ليز ..
- بل زوجته بابلو ، هؤلاء المسلمون الذين تسميهم مجانين ، متمسكون جداً بهذه المؤسسة المقدسة ، مثلهم مثل المسيحيين المؤمنين ، كل متعصبٍ يشبه الآخر .
- ولا يختلف أي متدينٍ عن الآخر ، إلا بالاسم ، التعصب ذاته والتهور ذاته والانغلاق ذاته !
- الأصعب يا صديقي أن أي متعصبٍ لأي معتقد يرى في الآخر من غير معتقده عدواً له .
- حنا ، دعنا من المعتقدات ، فكر بليز ربما تساعدنا في الهروب ، أرأيت كيف كانت سعيدةً في الحديث مع أمين !
- وما قصة اهتمامه باسمها : كلين هارت ؟
- لا أدري ، لكني متأكدٌ أن ليز معجبةٌ بك . نظراتها وانت تتحدث في الهاتف تشي بذلك ، متابعتها لك وأنت تحفر ، وأنت تعطي التعليمات للرجال ..
- ماذا تقول يارجل ؟ مصيبة .
- أين المصيبة ؟
- إذا كان ذلك فعلاً ، فإن ذبحنا قريبٌ ، إن شاء الله وباسم الله .

قال إن شاء الله بفخامة الاسم ، متذكراً نظرات ليز وكلماتها المتعاطفة معهما ، مستبعداً هذه الفكرة التي فيها نهايته على يد المجنون عمر ، الذي لابد سيذبحه من الوريد إلى الوريد شرعاً وباسم الله ، كأي رجلٍ يمكن أن يخطيء معه ، ذهب إلى النوم مبكراً ، اندس في سريره خائفاً ، أرعبته فكرة إعجاب ليزا فيه .

هل يشعرنا الحب بالخوف ، وهل يشعرنا الجمال بخوفٍ أكبر يمكن أن يسبب لنا التعاسة ؟ هل يمكن للحب أن يسبب لنا الحزن والخوف ! هي امرأةٌ تهيم بحنا ، عشقٌ كبيرٌ لحنا الذي يمكن أن يكون العشق الأخير في حياته . المرأة مخلوقٌ غريبٌ ، ناعمٌ كأفعى ، قويٌ كفرس ، لكن قرب ليز من حنا يرعبه ، عشق ليز الذي اكتشفه بابلو قبل حنا يميته خوفاً

في ظل دولةٍ إسلامية ، تستخدمهما في اللصوصية ، وغير قادرين على فعل شيء.

كان الرجلان قد أمضيا حوالي الشهر في الحفر ، يتبعان أي جزءٍ ، أو لقيةٍ أثريةٍ تدل على ما كان يعرف بمعبد هيرا ، ومن حسن حظهما أنهما صادفا بعض العملات الذهبية ، التي سر عمر بها كثيراً ، وتمثالاً ذهبياً صغيراً يعتقد أنه من التقدمات الدينية الجنائزية ، أدخل السرور إلى قلب ليز عندما اصر عمر أن يكون هديته الشخصية لها ولإخلاصها له . إضافةً إلى ذلك فقد زادت ثقة عمر بالرجلين ووقوفهما إلى جانبه ، ومساعدته ، فأوصى ليز أن تهتم بهما أكثر ، ليجدا له ذهباً أكثر .

في الوقت ذاته ، استطاع الرجلان التكفير عن ذنبهما في الحفر في هذا الموقع ، من خلال إخفاء بعض أجزاءٍ من مواد برونزية وفخارية وبعض الرقم الطينية ، التي هي أهم أثرياً من الذهب ، فقد كانا يرميان هذه القطع بلا اهتمامٍ ، بين بقايا الردميات في نهاية يوم العمل ، كي لا يثيرا انتباه العمال ، وكان من السهل إعادتها إلى باطن أرض المربع الذي يعملان فيه ، وإغلاقه نهائياً بانتظار أن يظهرها أحدٌ ما فيما بعد .

كان الطابق الثاني الذي يشغله رام وبابلو عبارة عن صالةٍ كبيرة ، على جانبيها غرفتا نومٍ ، تطلان على مدخل البناية ، وكان بإمكان الحراس معرفة أي حركةٍ يقومان بها ، لذلك فضل الاثنان إغلاق النوافذ المطلة على الحراس ، ليصبح لهما شيءٌ من الخصوصية في نومهما .

كانا يعودان من مهمتهما مع غروب الشمس ، يحضران طعاماً مما تجلبه لهما ليز في النهار ، فقد كان الرجلان يفضلان أن يحضرا الطعام بنفسيهما ، وبسبب عملهما من شروق الشمس إلى مغيبها فقد كان الإرهاق الجسدي يسيطر عليهما ، والنوم يتسلل إليهما كالأطفال .

كان سرير حنا واسعاً ، ويبدو أنه كان سرير زوجية ، أغطيته حريريةٌ وردية ، يندس فيه وكأنه في رحم أمه ، ينام عميقاً حتى الصباح ، لا شيء يوقظه إلا صوت ليز الصباحي الناعم ذو اللكنة البريطانية المرحة :

- استيقظ عزيزي حنا .

يبدو أن صوت ليز قد تأخر الليلة ، أو أن الوقت لم يحن بعد ، لم يكن حنا متأكداً ، لم يستطع رفع رأسه ليتأكد ، فقد كان الحشد كبيراً جداً ...حشدٌ كبيرٌ يملأ الساحة الرئيسية في مدينة منبج ، وهو في وسط هذا الحشد ، أصواتٌ تتداخل يطغى عليها : الله أكبر . إن شاء الله . وباسم الله.

الله أكبر .. تتردد بأصواتٍ مرعبةٍ ، تسد أذني حنا الذي فقد النطق تماماً :

كان حنا راكعاً ، ورجلٌ ضخمٌ يحمل سيفاً يقف فوقه ، استعداداً لأمر قطع رأسه ، هذه هي النهاية التي كان يخشاها فعلاً ..

أله أكبر ... تتكرر العبارة ، حشدٌ من الملابس السود ، فوقها عمائم سودٍ ، إلى اليمين نساءٌ يرتديهن السواد من رؤوسهن وحتى الأرض، إلى اليسار ، في المقدمة عمر ، وبعضٌ من قادته ...

أله أكبر ... تتردد العبارة ، مع التوكيد عليها بأصواتٍ مرعبة ، يحاول حنا الوقوف متماسكاً ، ساقاه لا تساعدانه ، من مكانه يواجه عمر ،لا يجرؤ على النظر في عينيه ، يهرب من عيني عمر المرعبتين ، تواجهه على مسافةٍ تقل عن المتر الواحد ، عينان أكثر رعباً ، ويدان تحملان سيفاً ، يبيحث لثوانٍ عن صديقه بابلو ، لا يجده في أي مكانٍ ، وعن ليز ، لا أثر لها ، هل نال منها السياف قبله ؟ هل هربت ؟ اختفت ليز ، لكن اين ؟ حاول أن يتحرك ، فقط يتحرك ، ليس إلى أي مكانٍ ، بل يتحرك ، جسده مشلولٌ تماماً ، هل هو في حلم ؟ حركة يمين السياف كانت أسرع منه ، هوى بالسيف باتجاه رأس حنا :

أله أكبر ..

حاول حنا أن يقفز هارباً من ضربة السياف ، لا قوى لديه تساعده ، كان مخدراً لا يستطيع الحراك ، حاول ، وحاول ، أصر ، قفز ثانيةً وبكامل القوة المتبقية لديه ...

سقط من السرير إلى الأرض .

حنا في غرفة نومه ، المكان معتمٌ ، لا أحد حوله ، لكن رأسه ممتليءٌ ببقايا ضجيج ساحة حرب ،فقد كان الحلم ثقيلاً جداً ، رفع جسده بتثاقل ، عاد إلى سريره ، وضع غطاءً خفيفاً على جسده ، أغمض عينيه ، ترى أيستطيع النوم مرعوباً ! تسللت مجدداً بضع صورٍ قبل سكونه للنوم مجدداً:

سواد ، سياف ،عمر ، الله أكبر، غياب بابلو ، عدم ظهور ليز ، تلك الافعى الملساء الناعمة أين كانت !

أغمض عينيه الناعستين المرهقتين من مشهد الذبح ، تذكر بابلو ، ما يزال يفكر فيه ، أين هو ، نهض إلى الغرفة الأخرى ، بابلو يستسلم لنومٍ عميقٍ كالأطفال ،اطمأن عليه ، عاد إلى سريره المبتل بالعرق ، لا قدرة لديه كي يستبدل الشراشف ، ولابد من النوم ، كان مرهقاً ، متعباً ، ساهماً فيما رأى أثناء نومه ، استلقى كميتٍ .

بدأ النوم مع الصور المرعبة يتسلل إلى فراش حنا ، أصوات هسيسٍ تملأ غرفة نومه ، تتسلل أفعى من مكانٍ ما يقارب طولها المترين، أحس بها ، لم يجرؤ ، بل لم يستطع فتح عينيه تعباً ورعباً ، التف على نفسه كثعبان ، غفا كطفل ، بينما كانت الأفعى تتسلل إليه باسمةً ، عيناها زوقاوان لامعتان تنظران إليه بحب ، و بهدوء ما قبل العاصفة كانت تغلق باب غرفة نوم حنا ، وترمي آخر قطعة ملابس عن جسدها . تنسل تحت غطائه أفعى بيضاء نعومتها قاتلة ، تلتف حول جسده الرجولي ، وتتحول من سيافٍ فاجرٍ إلى امرأةٍ بيضاء كالثلج ناعمة ، قدها مثاليٌ ممشوقٌ ، تلبس غلالةً حليبيةً تبرز نهديها الدائريين المكورين بشكلٍ رائع ، تشمخ على رأس كل نهدٍ منهما حلمةٌ مشرئبةٌ باتجاه عنقها الثلجي، اقتربت من حنا بهدوء، التفت حول ساقيه ، تحركت باتجاه رقبته ، بدأت تفح تحت أذنه اليسرى ،جزؤها السفلي يلف مؤخرته، أصابع ناعمةٍ ولدت للأفعى ، راحت تعبث بين ساقيه ، شعر ببرودتها التي لم تطل ، بل صارت أدفأ بثوانٍ ، بدأت توقظ رجولته ، وبدأ يستجيب للأصابع الناعمة التي تعبث

بلطفٍ بين ساقيه ، تحولت الأفعى إلى امرأةً تعبث بلطفٍ بين ساقيه ، تسارعت حركاتها ، قابلها بالمثل . صارا جسداً واحداً بأربع أذرعٍ تلعب لعبة الحب المحرم :

- صحا ، رأى ، سمع :
- بحبك حنا .

هست شبقاً في أذنه ، فتح عينيه غير مصدقٍ كيف يصير السياف امرأة ، غير مصدقٍ مايرى وما يسمع ، نظر عميقاً في عينيها الزرقاوين اللامعتين رغم الظلمة ، إنه الحب ، والرغبة ، الشوق والهيام ، استسلم ، بل أقدم غازياً ، أطبق على شفتيها ، بدأ قبلةً مديدةً ثم غزا بلسانه لسانها ، لسانان يلتفان كزوجٍ من الأفاعي، أيدٍ تتحرك على كامل جسدين شبقين، التفت بوجهه وجسده إليها ، قبض بقوةٍ على كتفيها، ألصق جسده بجسدها ولسانيهما يلتفان ويلعبان ، أبعد ساقيها عن بعضهما قليلاً فقط ، ناصباً عند مثلث الرغبة عضواً جائعاً منذ شهور ، هائجاً قاسياً تحول في ثوانٍ إلى نارٍ تغزو جسداً أبيض كالثلج ، وبكل الجوع الذي يأكل جسده ، تابع بين ساقيها:

- بحبك ليز...

همس بشبقٍ في أذنها ، أراحها على ظهرها ، رفع ساقيها على كتفيه ، قيدها بيدين ثابتتين من كتفيها ، وبدأ رحلةً حرثٍ طويلةً في جسدٍ ناصعٍ كبياض الثلج راوده عن نفسه بصمتٍ خلال أشهر ، تذكر حديث بابلو ، لم يخف ، زالت مخاوفه ، نسي الله أكبر، في جسد هذه الربة المقدس :

- جميلٌ أن سميراميس عادت إلى معبدها .
- جميلٌ أن مليكي انتبه إلي أخيراً في معبده .
- كلين هارت ؟ أم تكوني ستراتوس ؟
- أنا لك حبيبي كومبابوس ، وأبقى كلين هارت إلى جانب حنا السعد أبد الدهر وأعوضك مافاتنا .
- أنا لك حبيبتي ستراتوس ، بل كلين هارت . ما قصة كلين هارت واللاذقية ومشقيتا ؟

- قصة طويلة يا قمري ، حكاية أمي وعشقها الذي ولد في لندن ، وانتقل بعد رحيل حبيبها إلى اللاذقية ، ولقد جئتها مغرمةً ، لكني خدعت ، صدقني حنا ، جئت إلى سوريا في محاولة معرفة سر هيام أمي فضعت ، واتجهت وجهةً ستنكرني أمي بسببها ، جئت سوريا مخدوعةً ، لكن القدر رحيمٌ دائماً . ربما كان عشق أمي هو الذي جاء بي إلى سوريا ، تركتها مريضةً في لندن ، وجئت أستكشف عشقها ، ربما قصة حبها هي التي أوقعتني بحبك حنا .
- ربما ، وأمين ماذا يعرف عن قصة أمك ؟
- هو شاهدٌ عليها وصديقٌ لحبيبها ، أتصدق هذه المفاجأة ؟ جئت إلى سوريا بإغراءٍ من إمام جامعٍ في لندن ، وبحب اطلاعٍ على قصة عشق أمي وتعلقها بحبيبها، لكنني بدل أن أتبع طريق أمي في العشق ، اتبعت طريقة الإمام في القتل ، وعندما رأيتك وسمعتك وسمعت أمين زالت الغشاوة عن عيني ، ورجعت ، ما أحلى الرجوع إلى العشق ، ما أحلى الرجوع إليك .
- ما أحلى العشق ليز ، ذكرتني ونحن في المعبد بالعاشقة التي بنته. سأحبك طيلة العمر القادم ليز ، وحيث يكون الأمان بيتاً لنا .
- الأمان ،كلمةٌ صعبةً في هذا الزمان .
- لا شيء يقف أمام الحب حبيبتي .
- لا شيء يقف أمام الحب حبيبي .
- على أن يكون حقيقياً .

السلوقيون ملوك سوريا

312 ق م – 64 ق. م

تعود تسمية السلوقيين إلى مؤسس سوريا الحديثة سلوقوس نيكاتور 358 ق.م 281 ق.م . فقد امتدت المملكة السورية في هذه الفترة من الخليج العربي حتى المتوسط،وكانت عاصمتها سلوقيا، قبل أن ينتقل منها سلوقوس نيكاتور تاركاً حكمها لزوجته ، ويبني أنطاكية عاصمةً دائمةً لسوريا ، استمرت حتى القرن السابع الميلادي لتخلفها دمشق عاصمةً للدولة الإسلامية الأموية .

دُعيت مدينة أنطاكيّة " مهد المسيحية " ، ودعي المؤمنون بيسوع ، باسم مسيحيين أول مرة في مدينة أنطاكية في نحو سنة 42 للميلاد.

وكان ملك سوريا الأول سلوقس نيكاتور قد بنى أربع مدنٍ هي: لاوديسيا على اسم أمه ،اللاذقية حالياً، أباميا على اسم زوجته أفاميا ، سلوقيا على اسمه ، وأنطاكيا على اسم أبيه أنطوخيوس ، وكانت المدن الأربع تشكل اتحاداً باسم الشقيقات الأربع .

احتلها الرومان 64 ق.م ، واحتلها العثمانيون الأتراك 1939 م .

يوسف الصديق في هيرابوليس

لم أكن قد مت بعد .

كنت أعيش يومها في بلاط الملك سلوقوس الأول ملك سوريا . في تلك الأيام انتشرت قصةٌ مثيرةٌ للجدل حول زوجته الجميلة ستراتوس ، التي حلمت بأن هيبرا أمرتها ببناء معبدٍ لها في هيرابوليس وهددتها بالويلات والمصائب إن لم تستجب لطلبها .

في بداية الأمر لم تأبه ستراتوس وتناست الموضوع ، ولم تأخذ التهديد بشكلٍ جادٍ ، لكن مرضاً خطيراً أعيا الأطباء جعلها تتذكر وعدها لهيبرا ، فأخبرت سلوقوس بوعدها في بناء معبدٍ لهيبرا ، طمأنها سلوقس بأنه سيساعدها في بناء المعبد ، ونصحها فوراً باستسماح هيبرا .

خلال أيامٍ تعافت ستراتوس، وأعلنت استعدادها للبدء في بناء المعبد .

أمر الملك بفريقٍ كبيرٍ يرافق زوجته من أجل تنفيذ مهمتها ، يتضمن مجموعةً من أمهر المعماريين والبنائين ، وبعض الضباط لقيادة العمل ، وأمر بتزويدهم بالمال والمؤونة اللازمة ، وبقي اختيار من سيقوم بقيادة المجموعة ، ومصاحبة الملكة ، فلم يكن أفضل من صديقه المقرب منه والموثوق كومبابوس ، والذي سيصبح أسطورةً بعد أن ينهي مهمته بنجاح في بناء المعبد ، هذه الأسطورة لم يكن سببها مهارته في البناء ، بل قصةُ عشقٍ لم تنته بسلام ، فربما تقف أشياءٌ كثيرةٌ في وجه الحب !

حاولت وقتها أن أجعل سلوقوس يختارني بدلاً من كومبابوس ، لكنه ، ورغم صداقتنا الكبيرة ، أصر على كومبابوس ، فاستدعاه آملاً أن يرضى بهذه المهمة الصعبة ، معتمداً ثقته الكبيرة في شخصه ، وفي عمله ، وفي وفائه وتفانيه في سبيل صديقه وملكه :

- إني أعرفك رجلاً شريفاً ، يا كومبابوس ، وأحبك جداً من بين أصدقائي كلهم، وأثني عليك دون تحفظٍ لما تقدمه من حكمةٍ وثقةٍ وأمانةٍ تجعلني أفخر بصداقتك .
- آمل أن أكون عند حسن ظن مولاي الملك بي دائماً .

- يا صديقي كومبابوس أنا اليوم بحاجةٍ لكامل أمانتك ،وأنت تحديداً ، إذ يفترض أن أكون أنا في هذه المهمة الصعبة ، لكن أمور الدولة لا تسمح لي بترك العاصمة ، لذلك سترافق زوجتي ستراتوس إلى هييرابوليس لبناء معبدٍ للربة هييرا ، وتقدم النذر والأضاحي بالنيابة عني وتقود الحملة والجيش، وعندما تنتهي سيكون تكريمك عظيماً .

ما أن سمع كومبابوس بهذا الكلام ، حتى أخذته رعشةٌ تكاد تفقده توازنه ، فأخذ يلح بشدة على الملك، ألا يفرض عليه رحلةً تفوق إمكاناته ، وإمكانات حفاظه على قدسية المشروع .

أما في دخيلته ، فكان مرعوباً من مرافقة الزوجة الجميلة التي لا يقف شيءٌ في وجه طموحها ، وكانت أفكار كومبابوس تأخذه بعيداً ، فسيكون وحيداً معها ، وهدفاً لغطرستها وأنوثتها الطاغية .

وكان يعرف أنه القائد الأكثر جاذبيةً بين أصدقاء سلوكس ، الأكثر رجولةً في ساحات القتال ، وكون سمعته ترعب الأعداء ، فقد كانت تسر أهل مملكته وتثير فضول نسائها . في هذه النقطة فكر كومبابوس ملياً ، وخاف كثيراً ، هو الذي يعرف جمال ستراتوس الآخاذ ، ويدرك غرورها وطموحها الذي يمكن أن يجعله هدفاً لها.

لكن هل تحصل عليه ؟ يعرف أنه لن ينقاد إليها مهما كان الثمن،لأن صداقته للرجل الذي يحب ، صداقته لسلوكس وليف الصبا ورفيق الشباب ، لا تسمح له أن يقترب ولو بكلمة من التي عشقها سلوكوس وجعلها مليكته. لا بد من الاعتذار بأي ثمن لكن بتهذيب رجلٍ محبٍ :

" أيسمح مولاي أن أرفض له طلباً واحداً في حياتي
وأهبه بالمقابل حياتي كلها؟ "

لم يشأ سلوقوس أن يستمع إلى كومبابوس ، هو صديقه المقرب والأول ، هو ثقته الأكبر في المملكة ، هو الذي كان دائماً الملازم له في حروبه الكبيرة ، والذي استقبل أكثر من ضربة سيفٍ ،ورمحٍ بالنيابة عنه ، هو الوحيد الذي لن يخون أمانة مليكه مهما حدث .

- لا رجل غيرك أثق فيه بهذه المهمة يا كومبابوس .

- مولاي ، طلب كومبابوس بعد أن تأكد أن الملك لن يسمح له برفض هذه المهمة المقدسة ، أتسمح لي بمهلة سبعة أيامٍ أنجز فيها أعمالاً لا تتأجل ، قبل أن أصبح جاهزاً للسفر .

سمح الملك بالمهلة ، عاد كومبابوس إلى بيته حائراً ، نادباً حظه في هذه الثقة المطلقة من الملك ، وشكى بؤسه ، عارفاً بإخلاصه أن هناك مشكلةً في الأفق . كيف له أن يكون برفقة امرأةٍ رائعة الجمال ، وهو الرجل الجذاب الذي يخشى على النساء من نفسه،وكيف له أن يحتاط لإنقاذ نفسه ، لقد كان يرى منذ اللحظة التي كلفه فيها الملك بهذه المهمة أنه في خطر . إذاً لا بد من التضحية ...

بقي سبعة أيامٍ في بيته :

في اليوم الأول فكر ، وفي اليوم الثاني بحث ، وفي الثالث وجد الحل ، في اليوم الرابع خلق ، وفي اليوم الخامس قرر ، في السادس نفذ . ثم استوى في اليوم السابع واستراح .

وفي صبيحة اليوم الثامن توجه إلى الملك ، قدم له إناءاً ، راجياً منه عدم سؤاله عما يحتويه ، لأن فيه الكنز الوحيد الذي بقي له من هذه الحياة بعد سلسلةٍ من المعارك الطاحنة ، وقد قدم كومبابوس الإناء بوجود شهودٍ كثر في ذلك اليوم :

- مولاي ، لقد أنجزت أعمالي ، وأنا مستعدٌ لتنفيذ مشروعك المقدس ، إن هذا الإناء أغلى مالدي ، وهو ثروتي الوحيدة ،وأعهد به إليك لتحفظه بأمانةٍ ، أرجو أن استعيده عند عودتي غير ممسوسٍ ، فالحق إن ثمن هذا الإناء يعادل حياتي .

أخذ الملك الإناء ، وختمه بختمه ، وذلك أمام شهودٍ كما رغب كومبابوس ، وسلمه لي متأكداً أني سأحافظ عليه سليماً ، حتى انتهاء أعمال بناء المعبد ، وعودة كومبابوس إلى الوطن .

انطلق كومبابوس وستراتوس ، كلٌ على حصانه ، يتقدمان فريق العمل ، وبعد يومين وصلا منبج ، واختارا سهلاً واسعاً ، يحميه جبلٌ من الجهة الشمالية الشرقية ، بدأ العمال بنصب الخيام اللازمة ، وكانت البداية

بخيمتين متقابلتين في أسفل الجبل ، تقيم في إحداها الملكة ، والثانية خصصت لكومبابوس .

منذ وصولهم إلى هييرا بوليس بدأ العمال مهمتهم بجدية ومثابرة ، وكان كومبابوس خيار الملك ، خير قائدٍ لمجموعة العمل ، واستطاع الفريق بقيادته خلال ثلاث سنواتٍ تقريباً الوصول إلى المراحل النهائية في بناء المعبد ، وقارب فيها العمل على الانتهاء ...

لكن آمال ستراتوس كانت تضمحل يوماً إثر يوم ، إذ وقعت في الحب المحظور ، وكان الرجل يزداد رجولةً وشهامةً في عينيها ، كلما ابتعد عنها وصدها ، كانت تقضي معظم الوقت خلال هذه السنوات برفقته ، علقت في غرامه ، هامت في وجهه الجميل ، في شخصيته المحببة ، في جديته بالعمل.

عندما شعرت بأنها تسير إليه غير واعيةٍ حاولت الهرب ، فلم تستطع ، ازداد تعلقها وعشقها له . كان كومبابوس يشعر بحركاتها وبكل تفصيلٍ تفعله ، فيهرب منها ، كان خائفاً مما وصلت إليه ستراتوس ، وكان هذا الخوف يتملكه منذ اللحظة التي استدعاه فيها الملك ، وكلفه بمهمة بناء المعبد برفقتها ، لم يلتفت إليها ، حاولت التزام الحذر ، خافت أن يكشفها غرامها ، حاولت إخفاء عشقها ، لكن عشقها صار أقوى من الصمت ، فأخذت أوجاع العشق تظهر عليها ، صارت تبكي في كل يوم ، صارت تنادي كومبابوس بصوتٍ مرتفعٍ معلنةً عشقها له ، معلنةً أنه صار كل شيءٍ بالنسبة إليها . لم تعد تستطيع إخفاء حبها ، لجأت إلى الخمر ، تشرب منه حتى تترنح وتسكر وتسقط ، لكنها تنهض ، تشعر أنها أقوى ، وأنها قادرةٌ على التحدث إليه والبوح له بمكنونات قلبها ، ففي هذه الحالة ، إن أي رفضٍ من قبل كومبابوس ، لن يؤدي إلى الخزي ، لأنه ناتجٌ عن سكرها ، وهي فعلت ذلك عن غير وعيٍ فلن تلام في ذلك ، بل يلام هو ...

ليلٌ ربيعيٌ، يستند القمر فيه على كتف الجبل ، معظم القريبين منها نائمون ، يشدها القمر إلى جناح كومبابوس ، تسير بهدوء ، تراه من بعيدٍ ، يجلس بهدوءٍ وحيداً ، يعزف لحناً حزيناً على قيثارةٍ عتيقة ، مترنحةً من السكر تدخل إليه دون استئذان ،تستعطفه ، تقبل ركبتيه ، تعلن حبها له .

كان قاسياً في مواجهة اعترافها ، رافضاً دخولها إليه ،أنبها لسكرها ، هددته أنها ستعرضه وتعرض نفسها لمخاطر كثيرةٍ إذا لم يستجب لها ، لم

يتاثر كومبابوس ، ولم يخف ، فتهديدها لن يؤثر فيه ، أو يخيفه ، وهو الذي حسب وبدقةٍ لهذا الموقف منذ اللحظة الأولى لتكليفه بهذه المهمة الصعبة . لم تستكن و استمرت ، اعتقدت أنها ستجعله يضعف وستنال ماتريد منه ، لكنه كان يزداد قوةً وإصراراً ، أصرت على المتابعة ، أصر على الرفض ، كانا كديكين يدميان نفسيهما دون رحمة ، وكانا كلما طالت مدة القتال ، اشتد القتال وكثرت الجراح .

صرخت ستراتوس يائسةً بأعلى صوتها :

- كومبابوس يحاول الاعتداء علي ..

كبرت الصرخة ... صارت دوائر متعددةٍ تكبر وتكبر حتى وصل صداها إلى الملك حيث الوشاة كثر ، والحاسدون الناقمون على كومبابوس أكثر، فبدؤوا بنشر سمومهم بين الملك وكومبابوس ، آملين التخلص منه .

عظم الأمر على ستراتوس ، جرأت على إعلان حبها دون خجل، زاد غضب الملك بإعلانها عن الحب المحرم بينها وبين صديقه الحميم ، والأخبار عن اللقاءات الليلية بينهما تحت ضوء القمر الذي ظنت ستراتوس أنه يمكن أن يكون شاهد براءتها ، وشاهد غدر كومبابوس بزوجة صديقه .

صمت كومبابوس ، كان يخشى غضب الملك ، فهو يحبه ، ويحرص عليه ، كانا أخوين منذ ولادتهما في ذلك الكوخ البحري على شاطيء البحر السوري ، اصطادا السمك سويةً ، غاصا في أعماق البحر إلى أعماق لم يجرؤ أحدٌ على الوصول إليها ، وصلا جزراً لا يعرفها أحد ، اجتازا البحر السوري إلى طرفه الغربي ، وانضما سويةً إلى الاسكندر المقدوني ، قاتلا برفقته ، بقيا مخلصين له حتى آخر يومٍ عاشه في هذا العالم.

ثار الملك واستدعاني : ماذا يحدث يا سيريس ؟ هل وصلتك الثرثرة ؟

- للأسف يا مولاي ، أجل .
- وهل تصدق ؟
- أنا لا أصدق يا مولاي كومبابوس ليس قذراً .

- لكن الثرثرة كبيرةٌ وقذرة ... ثرثرة الواشين كثيرة ٌ و صراخ ستراتوس عالٍ ، و صمت كومبابوس عميقٌ ... من أصدق ؟

سلوقس كما هو لم يتغير : لم يعشق في حياته بهذا الصفاء كما عشق ستراتوس، ولم يحب رجلاً كما أحب كومبابوس . أصاب الملك سلوقوس حزنٌ عميقٌ ، أيهما تجرأ وأيقظ غيرته ! صديقه وحبيبه، أم زوجته وحبيبته ؟ ماذا يفعل ، كان في حيرةٍ لم يقع فيها لا في خوض المعارك ولا في بناء المدن ،ولا في إدارة الحكم .

- أحضروا كومبابوس وستراتوس على الفور .

الكلمة التي أراحت نفس كومبابوس ، الكلمة التي ستكشف كل شيء ، الكلمة الفصل التي ينتظرها ليتخلص من وهمٍ رافقه ثلاث سنوات .

انطلق إلى الملك مطمئناً ، لكنه ما أن وصل إلى القصر حتى أخذ الملك يعنفه لخيانة الثقة الكبيرة التي أولاه :

- أنت يا كومبابوس مدانٌ بثلاث جرائم : خيانتك الأخلاقية لصديقك ، وسوء ائتمانك على زوجته ، وسلوكك غير الأخلاقي تجاه الآلهة في معبدها . ولأن هذه الجرائم حدثت أثناء خدمتك لي ، وتمثيلك للملك في معبد هييرا ، فمحكومٌ عليك بالموت .

كانت فرصةً ليشهد الكثيرون ضد كومبابوس ، مؤكدين أنهم رأوا الحبيبين تحت ضوء القمر يتبادلان القبل علانيةً ، ويقومان بأسوأ من ذلك يفضحهما ضوء القمر البريء .

كان كومبابوس حتى اللحظة واثقاً من نفسه ، صامتاً لا يتكلم ، لكن عندما شعر أن العقوبة ستنفذ بحقه ، طلب من الملك أن يسمح له بالكلام ، فسمح له :

- جلالة الملك ، أود أن أشرح لك ما حدث ، فأنا لم أذهب في هذه المهمة لأكسب شهرةً أو مالاً منها ، بل لأنفذ طلب مليكي وصديقي الذي أحب، وأقول لأخي يوم انتقيتني لهذه المهمة قلت لك :

" أيسمح مولاي أن أرفض له طلباً واحداً في حياتي
وأهبه بالمقابل حياتي كلها "

فلم تسمح لي ، كنت متاكداً مما سيحدث ، لذلك قمت بما تمليه صداقتي لسيدي ومليكي ، واتخذت ما يمكن أن أفعله لأحافظ عليك ، هل تعلم ما فعلت يا مولاي ! بل هل تظن أن رجلاً غيري كان يمكن أن يقوم بما قمت به ! لا ياسيدي أنا فقط من يقوم بذلك فداءً لرجلٍ أثبت صداقته لي.

- ماذا فعلت ؟
- هل تعيد لي وديعتي قبل أن تعاقبني، لأثبت لك أن لا امرأةً ولا رجلاً ، يمكن أن يغرر بي لأخونك !

أمام شك كومبابوس لم يتأخر الملك ، بل أمرني على الفور بإحضار الإناء وتسليمه لكومبابوس الذي فض الختم عنه ، وأظهر ما كان في داخله ..

لم يكن أحدٌ ليتوقع ما كان في داخل الإناء الزجاجي ... كان رمز رجولة كومبابوس يسبح في خليطٍ من الطيب والكحول، محافظاً على شكله ، يستحم ليناً ناعماً ، حزيناً حد الموت .

لم يكتف كومبابوس بذلك ، فأمام الملك والوشاة والحضور، ومن بينهم ستراتوس التي فتحت فاهاً لم يعد باستطاعتها إغلاقه ، كشف كومبابوس عن نفسه ، وبكل جرأة خلع لباسه وأظهر الحالة بين ساقيه .

خيم الصمت على الجميع ، سكونٌ لا يدري أحدٌ كيف ينتهي ، لا يجرؤ أحدٌ على الكلام في هذا الحال ، إلا من وقع عليه ظلمٌ قاتلٌ ، خرق الصمت بصوتٍ حزينٍ :

- كنت يا صديقي خائفاً مما وقع ، متوقعاً أنه سيحصل ، أتذكر كم حاولت إقناعك أن تعفيني من هذه المهمة ، ولما كانت أوامرك قد جلبت عليي ضرورةً قاسيةً ، فقد قمت بصنيعٍ قاسٍ لم يكن في صالحي، وعلى الرغم مما أنا فيه أتهم بجرمٍ لا يقدر عليه إلا رجل .

أفاق سلوقوس من صمته ، هرول إلى كومبابوس وعانقه بشدة :

- لماذا يا كومبابوس ، لماذا آذيت نفسك كل هذا الأذى ؟ لماذا اقترفت بحق نفسك عملاً مؤلماً ومحزناً إلى هذا الحد ؟ ليس بإمكاني أيها البائس الموافقة على الأذية التي ألحقتها بنفسك ، انتهاكاتٌ ما كانت الآلهة لتسمح بأن تقترفها أنت ، وأصبح أنا شاهداً عليها . ولكن بما أن إلهاً شاء أن تهين نفسك هكذا ، فإني أهبك قبل كل شيءٍ

موت المفترين الواشين عليك ، انتقاماً لك منهم ، وأولهم ستراتوس التي لم يعد الملك والقصر يليقان بها ، ولك أن تعاقبها بالطريقة التي تراها وأنا موافق . أما أنت فستنال بشكلٍ شخصي الكثير من الذهب والفضة والأقمشة السورية والجياد المخصصة للملوك ، وستدخل علي دون استئذان حتى لوكنت في سريري ، ولن يستطيع أحدٌ إقصاءك عن ناظري .

- مولاي اسمح لي : ليعدم الوشاة ، لكن لي رجاءٌ واحدٌ : لا تقتل الملكة ، أعرف مقدار ذنبها لكني، وبمقدار حبي لك ،أرجو أن تدعها في حال سبيلها كي تتعذب بمقدار ما عذبتني .

ركعت الملكة بين قدمي سلوقوس ، أنهضها، صرفها جانباً ، ركضت كريح مجنونةٍ خارج القصر ، ومن يومها كان البعض يراها على أسوار المملكة العظيمة ، أو على جدران هيكل هيرا ، شبحاً لم يستعد إنسانيته .

اقتيد الوشاة إلى ساحة الإعدام ، أما كومبابوس فقد غمر بالهبات ، وتضاعفت محبة الملك له ، ولم يظهر منذ ذلك الحين سوريٌ واحدٌ يعادل كومبابوس حكمة وشهرةً .

بعد ذلك طلب كومبابوس من الملك أن يأذن له بالذهاب إلى هييرابوليس لإتمام بناء المعبد ، فسمح له الملك ، وأمرني أن أرافقه لإتمام مهمة بناء المعبد .

بعد أن أتم بناء المعبد ، بنى كومبابوس في وسط المعبد تمثالاً من البرونز يمثله بشكل امرأةٍ ، إنما بثياب رجل ، سألته :

- ما معنى ذلك !
- في إحدى المرات يا صديقي ، و كنت ما أزال أرتدي ثياب الرجال ، تعلقت بي حاجةٌ أجنبية ، عشقتني بجنون ، ولما عرفت أني غير مكتمل الرجولة قتلت نفسها ، لم أسامح نفسي على ذلك ، فأنا السبب ، لذلك لبست ثياب النساء كي لا تعشقني امرأةٌ بعد ذلك .

من يومها اتفق معظم أصدقاء كومبابوس المقربين منه على مقاسمته شدته لكي يخففوامن بؤسه ، وهكذا فقد خصوا أنفسهم ، وانتظموا في طبيعة الحياة نفسها التي عاشها كومبابوس .

وهكذا درجت العادة بين خدم المعبد ، ففي كل عام يخصي الكثيرون أنفسهم ويلبسون ثياب النساء . وهذا ما يحدث حتى اليوم في معبد هيرا ، حيث النساء تعشق خدام المعبد ، وخدام المعبد يتولهون بعشق النساء ، ولا يغار أحدٌ من ذلك ، ويعتبر هذا التعلق بين الطرفين فائق القداسة ...

ميري كلين هارت

همس حنا بشبقٍ في أذنها : بحبك ليز ، كان مستلقياً على ظهرها الأبيض الناعم هذه المرة ، كامل جسده يغطي كامل جسدها :

- جميلٌ أن يعود أمبابوس إلى معبده .
- جميلٌ أن مليكي انتبه إلي أخيراً في معبده . لأعوضه حباً كبيراً .
- أنا لك حبيبتي ليز ، وسأحبك طيلة السنين القادمة .
- لا شيء يقف أمام الحب حبيبي .
- ولن يفرقنا حبيبتي : إلا الموت .
- أيفرقنا الموت ؟

يرن هاتف حنا الذي تحمله ليز معها ترد :

- هاي أمين ، سعيدةٌ أن اسمع صوتك ثانيةً .
- لم تقولي لي بعد ، من أين لك أن تعرفي مشقيتا ؟
- من أمي فقد زارتها منذ عدة سنوات .
- أمك؟
- أجل ميري كلين هارت .
- صديقتي العزيزة ميري ؟ ماذا تقولين ؟
- أجل أمين ، ميري أمي .
- ماهذه الصدف ؟
- أعتذر أمين نتكلم لاحقاً ، لدي مكالمةً ضرورية .

كان هاتف ليز يتابع رنينه ، تهمله ، يتابع رنينه تستغرب هذا الرنين في السادسة فجراً ، تنظر إلى الهاتف ، تنهض فوراً كالملسوعة ، إنه عمر ، تشير إلى حنا أن يبقى صامتاً ..

- حاضر ..

يتابع عمر حديثاً ، يشعر حنا من نظرات ليز أنه هامٌ جداً ، تتابع :

- حاضر ، حاضر .. الاثنان معاً ؟

يا إلهي ، ماذا يحدث : الاثنان معاً ! يبدو أن الموت سيفرقنا ، يعنياننا أكيد ، فكر حنا،هل ينوي عمر التخلص مني ومن بابلو بعد أن نال ما يريد!

- حاضر ..

وكيف سيقتلونا ؟ ذبحاً ، خنقاً ، بالساطور أو الفأس !هل يحقق ذلك السياف المرعب حلمي فوراً ! هل يتحقق ذلك ! إنه الحلم الأسرع تحققاً في العالم .

نهض حنا مسرعاً ، أشارت ليز إليه أن يبقى في مكانه بلا أي صوت.

- سأوافيك إلى هناك ومعي الرجلان خلال ساعة ... حنا انتهت مهمتكما هنا .
- ماذا تقصدين ! وماذا ستكون مهمتنا القادمة وأين ، وهل سنكون أحراراً ؟
- ليس تماماً ربما .
- ليز أوضحي رجاءً .
- ما أزال أفكر منذ مدة وأنا أحاول إيجاد فرصةٍ لإنقاذكما ، وقد جاءت مهرولةً إلي .
- إنقاذنا أو التخلص منا ؟
- ثق بي لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى ، وفكرت بأنقاذكما ، ففي إنقاذكما ، إن استطعت ذلك ، إنقاذٌ لي ...
- كنت تفكرين بالهرب من عمر فعلاً ؟
- ليس من عمر ، بل من كل هذه الورطة الفظيعة التي وضعت نفسي فيها، خصيصاً بعد لقائي معكم ومعرفتي لكم،بالأخص أمين وعلاقته المميزة مع أمي،ما جعلني أفكر بالخلاص من الجهاد الخادع ، هذه الكلمة المقيتة التي جعلني أحد أئمة المساجد في لندن أقتنع بها،بل وأراها الحل الوحيد،والوجهة الوحيدة إلى الفردوس والخلاص ..
- أفهم أنك انضممت إلى تنظيم الدولة بقناعة ؟
- نعم ، لكن ما رأيته هنا من فظائع ترتكب باسم الدولة والاسلام جعلني أكفر بالدين الذي اعتقدت يوماً أنه الاسمى ،وتركت جيسوس كرايس واتبعته .
- والآن ؟

- منذ مجيئكما وأنا في جدالٍ مع روحي ونفسي : ماذا حققت حتى الآن ؟ وماذا قدمت للدين السمح إلا القتل والذبح ، ترى هل سيسامحني جيسوس كرايس على ذلك ؟ بل هل ستعفو بلادي عني إذا ما استطعت الفرار والوصول إليها ؟
- الجيد في جدالك مع روحك يا ليز أنك بدأت تفكرين في الاتجاه الصحيح... وحسب فهمي البسيط للدين والدولة ، فإن جيسوس كرايس جاء من أجل الخطاة ، وأنت منهم ، أي أنه سيسامحك ، أما دولتك فأعتقد أن تفكيرها ليس كتفكير جيسوس كرايس ، لذلك ستعاقبك عندما تصلي إلى هناك ، لكن هل سيتم ذلك فعلاً ؟ حينها ربما تكون العقوبة أقل في حال قدمتِ خدماتٍ لدولتك ، وعملتِ ضد التنظيم في الأيام القادمة ..
- حنا ، هذا ما قصدته حين قلت لك أني أحاول إيجاد فرصةٍ لإنقاذكما ، وقد جاءت مهرولةً إلي .
- كيف جاءت ؟
- لقد وصلت سمعتكما الجيدة إلى أم مهاجر ، ومنها إلى الخليفة الذي أوصى عمر بالاهتمام بكما والحرص عليكما ، لذلك لم يترك عمر مهمة العناية بكما إلى أي شخصٍ سواي ، لمعرفته بإمكانيتي التعامل معكما ، وقد قيم هذا التعامل منذ أيامٍ بأنه ناجحٌ جداً ..
- إذاً ؟
- التنظيم بحاجة لكما في تدمر، هكذا يرى الخطاب زعيم تدمر .
- من تحت الدلف لتحت المزراب !
- ماذا تقصد ؟
- أقصد من سيءٍ إلى أسوأ .
- لكنك لم تفهم قصدي .
- ماذا أفهم ؟وكيف أفهم ، وهل لديك حلٌ آخر ؟
- أعتقد أن الذهاب إلى تدمر سيعطيناً وقتاً ومجالاً أفضل من هنا للهرب لأني أفكر بإيجاد طريقةٍ ما لمساعدتكم .
- مساعدتنا ، تهريبنا مثلاً ! وماذا سيكون مصيرك ؟

- لن أدعكما ، سأقنع عمر بضرورة وجودي معكما دون غيري في هذه المهمة ، عندها ربما نهرب سويةً .
- أنت جادة ليز ؟
- ولم أك جادةً أكثر من ذلك في حياتي كلها ،هي فرصةٌ لي لتقديم خدمةٍ لكما ... أولاً لن تصدق أن صديقك أمين هو الصديق الوحيد لأمي ! وهو صديقٌ مقربٌ من هاني الراهب ، صاحب قصة الحب الكبيرة مع أمي ! وأن أمي منذ بضع سنواتٍ زارت سوريا ، واللاذقية ، وقرية مشقيتا ، لتلقي نظرةً على الحجارة الجميلة التي ضمت هاني برفقة أمين !
- من هو هذا الأمين ، رد حنا ، أعرفه جيداً ولا أعرفه ، هو ليس فرداً، أحياناً في ريف اللاذقية ، وفي بابل ، بعدها في هيرا بوليس ، في تدمر التي سنذهب إليها ! هو هديل سميراميس ، بوح حمامات أبي فراس الحمداني الحزينة ، صديق حن بعل ، مرافق المعري الكبير .. وأخيراً صديق أمك؟
- أشعر أنها فرصةٌ للتعويض عما قمت به من فظائع ، أنت لا تدري مافعلت ، ولا تعرف كم من الفتيات الصغيرات كنت أحضرهن لمغتصبيهن ، خصيصاً لهذا الوحش عمر .. أتدري ! قبل أن يأتي إلى سوريا ، اغتصب عمر أختيه في السعودية ، لم تصلا إلى العاشرة من عمريهما عندما اغتصبهما ، ولم يحاسب على ذلك أبداً ! أما هنا ، خصيصاً في منبج ، فقد كان لهوه الوحيد الاغتصاب ، هو مريضٌ حقيقيٌ ، لا يحلو له ممارسة الحب معي إلا اغتصاباً ، لا يحلو له ذلك بشكلٍ طبيعيٍ .. لا أدري كيف كنت منقادةً له أنفذ كل مايريده مني ، لا أدري بأية قوةٍ كان يسيطر علي لأنفذ مايأمرني به ! لكن ذلك أفادني في النهاية ، كل أسرار عمر لدي ، فأنا ثقته الوحيدة ، وأنا الوحيدة التي يلتزم معها زوجةً حقيقيةً رغم كل حالات الاغتصاب التي ارتكبها ، أفادني ذلك بأن هذه الثقة ستكون طريقنا إلى الخلاص منه ، لكن كيف ؟

يظهر بابلو أمام باب غرفة حنا مندهشاً من رؤيتهما معاً ، كانت تجلس إلى جوار حنا وكانا عاريين تماماً .

- صباح الخير بابلو ، حان الوقت للتحرك ، هل نرتدي ثيابنا ؟
- لتبدئي أنت و حنا أولاً ، قالها ضاحكاً .
- صدقت ، لنسرع يا شباب .

ارتدت ثيابها على عجل :

- أنتظركما أمام البيت . لا تتأخرا .

أخبر حنا صديقه بابلو بما يحدث باختصارٍ شديد ، وبدأ الرجلان بارتداء ثيابهما وتحضير أمتعتهما سريعاً ، فهما سيبدآن مهمتهما قريباً في تدمر ...

- حنا هل نثق بليز ؟
- تبدو جادةً بابلو ، ويبدو أنها غير قادرةٍ على إكمال الطريق الذي اختارته دون فهمٍ دقيقٍ له ، فقد عرفت الآن أنها وصلت إلى مفترق طرقٍ ولا بد أن تختار .

تنطلق الجيب مع سائقها ، و ليز إلى جانبه ، جيب ثانية تنطلق خلفهما ، يصلون مكتب عمر ، وحيداً بانتظارهم يصافح الرجلين بود ، يقبل ليز بشكلٍ مثيرٍ يفاجيء الرجلين ، يضحك عمر :

- ليز مختلفة عن نساء الأرض كلها حباً وثقةً ، وأحببت أن أريكم كم أحبها وأثق بها .
- هذا واضح أخ عمر ، رد حنا ، أنا وبابلو أعجبنا جداً بشخصيتها والتزامها مع زوجها ، مما يدل على أصلٍ ترفع له القبعة .
- أشكرك حنا ، هل أقر أنكما سعدتما بصحبتنا هنا ؟ وأن ليز كانت معيناً لكما ، وسهلت لكما المهمة التي قمتما بها ؟
- بالتأكيد أخ عمر ، رغم معرفتك أن الكنوز والتحف ليست مجالنا الأثري ، وأن مهمتنا مختلفةٌ فعلاً .
- عرفت ذلك أخ حنا ، وأقدر عملكما ، لكن تدمر في انتظاركما ، ومهمتكما لا علاقة لها بالقمح .
- ليكن أخ عمر ، لكن لي طلبٌ بسيط إن أمكن .!

- تفضل أخ حنا .
- هل تساعدنا بزيارة مركز أبحاث المناطق الجافة - الإيكاردا - في حلب ؟
- لكما ذلك فقد كنتما صادقين معي ، وقدمتما لي كنوزاً هامةً ، وكرد الجميل لكما ، سأرسل معكما ليز لتبقى مسؤولةً عنكما حتى انتهاء مهمتكما في تدمر، وسأكون بانتظاركم على نار ريثما تعودون بخير ، صدقني حنا ، أنا لست سورياً ، ولا أهتم بمصالح النظام في سوريا ، لكن فكرة سرقة البذور أغرتني بمساعدتكما . أقتل نعم ، أغتصب نعم ، أقطع أوصال أعدائي ولم لا ؟ لكني لا أسرق ! وأنت لعبت على الوتر الحساس ،فأنا كسعوديٍ أشعر أن أمريكا تسرقني ، وتسرق مملكتي، بل ومتأكدٌ من ذلك ، وأرغب أن تنجحوا في كشف الدور الأمريكي في سرقة بذور القمح السورية، ربما تنتهي هذه الحرب اللعينة ، و أنشر يوماً الأرقام المرعبة والمليارات الهائلة التي تسرقها أمريكا علناً من بلدي، من مملكتي السعودية ،وتحت الكثير من الذرائع. سأتصل مع أبي بكرٍ غرب حلب ، وسيؤمن لكم جولةً في - الإيكاردا - وأنتم متجهون إلى تدمر ، هل يرضيك ذلك ؟
- أكيد أخ عمر ، هذا معروفٌ أقدره لك ، ولحرمك المصون التي ساعدتنا كثيراً في مهمتنا هنا .
- ليز ، الشباب في عهدتك ، وأبو بكرٍ في انتظاركم ، وبعد أن ينتهي الشباب من الإيكاردا ، خبريني وانتم في طريقكم إلى تدمر .
- هل لنا أن نزور معرة النعمان أخ عمر في طريقنا ، سأل بابلو ؟
- تكرم أخ بابلو .

قالها متسرعاً على ما يبدو ، ثوانٍ معدودةٍ ، بدأ وجه عمر بالتغير ، نظر إلى الرجلين بطريقةٍ ساخرةٍ لأول مرة منذ التقاهما ، فكر بتغيير رأيه ، لم يعجبه أن يظهر مترددا في نظرهما :

- لا بأس ، مع أني غير سعيدٍ بزيارتكم ، يبدو أنكم تنوون زيارتها للتبرك بكلب المعرة ، أعمى البصر والبصيرة ، زنديق المعرة وخليفة إبليس ، أبي العلاء ! .

- ليس للتبرك أخ عمر ، بل رغبةً في معرفة المكان ، فهو في طريقنا إلى تدمر ليس إلا .
- لا أدري إذا سمعتم بأننا قطعنا رأسه ثانيةً ... وسنقطع رأس أي زنديقٍ من أمثاله ، أو رأس صنمه لا فرق ، وسترون بأعينكم نموذجاً ، بل شكلاً مختلفاً في تدمر !

ميرا شمسٌ تنير عمري

كانت بضع كلماتٍ ترتسم على أغطية الأسرة والستائر البيضاء ، كان نادر يحاول لفت انتباهي إلى الرنين المستمر لهاتفي ، وكان علي قلقاً كعادته ، ينقل نظراته بين نادر وبيني ، يحاول نادر لفت انتباهي ، أفهم من شفاهه أن المكالمة من حنا ..... ترى ماذا حصل لهما في منبج ؟ وهل هما هناك حتى الآن أم أفرج عنهما لتعاونهما ؟

أفاجأ بطيفٍ إلى يساري ، ميرا ، ويبدو أنها مثلي لا تسمع رنين الهاتف ، يبدو أننا موجودان في مكانٍ آخر ! عيناها لاتغادران عينيي ، تطلبان مني أن أعيد تكوينها .

لم أكن قد مت بعد ...

أنا ابن السما الأوغاريتي ، أعيش في زمن صديقي نقماد الثاني ملك أوغاريت ، مكلفاً بإدارة مصلحة الحبوب في المملكة . وقتها تعرفت بميرا التي كانت خبيرة بذور القمح في مملكة سيانو ، جارة أوغاريت ، والتي كان سهلها مستودع قمح مملكتي أوغاريت وسيانو . وبسبب مهمتي لدى المملكة كنت دائم التنقل بين المملكتين ، وتربطني علاقة صداقةٍ قويةٍ مع ملكيهما .

كانت رحلاتي إلى سيانو متعددة ، وكانت اجتماعاتي دائمةً مع ميرا بحكم طبيعة عملنا ، مما ولد علاقة حبٍ جارفٍ بيننا . هذه العلاقة الغرامية خلقت أكثر من مشكلةٍ بين المملكتين .

كانت ميرا مخطوبةً لسائس الخيل عند ملك سيانو ، وكان السائس يعبدها عشقاً وهياماً ، ونتيجة لقاءاتنا الدائمة بدأت الإشاعات حول قصة حبٍ جارفٍ بيني وبين ميرا . هذه الإشاعات ، أو الحقائق كما يجب علي أن أقول معترفاً ،وصلت إلى ملك سيانو الذي كان يعاملني بشكلٍ جيدٍ يعكس طيبة علاقته مع مليكي نقماد . لكن كل ذلك لم يشفع لي ، فثارت ثائرته وجن جنونه ، وطردني من سيانو معلناً عدم الرغبة في استقبالي هناك ثانيةً . شكرت الملك أن القصة انتهت عند هذا الحد ، وكذلك لم تأخذ

شكلاً مأساوياً عند مليكي نقماد الذي لم يعاقبني نتيجة حبه الشديد لي و اكتفى بأن أمرني بترك ميرا ، كما منعني من السفر إلى سيانو ثانيةً .

عدم السفر إلى سيانو و ترك ميرا ! يظن جلالته أن هذه العقوبة بسيطة لكنها بالنسبة لي أني أفقد شمس حياتي وقمري ميرا !

لازمت بيتي ، لازمت فراشي ،لازمت وحدتي ، لازمت آلامي ، لازمت عشقي ، وقررت أن أموت على فراشي دون الخروج إلى الناس .

- ليس من حقك أن تعشق ميرا ، ميرا شابةٌ وأنت عجوز. ميرا كلها حيويةٌ وأنت لا شيء ... هكذا تكلم عقلي ..
- لا من حقي . .. من حقي أن أنبض كما أريد ، ولمن أريد ... كان قلبي يسارع بالرد مهاجماً عقلي .
- كانت روحي تنصت لصراعهما ، وكانت تلين وتهدأ لسيرة ميرا .

ميرا شمسٌ تنير عمري ، بل شمسي و قمري ، دخلت إلى روحي كعاصفةٍ تخترق البرود الذي كان يغلف حياتي ، جسدٌ شابٌ يخترق قلبي ، ونظرةٌ حادة تفيض ذكاءً وتحدياً وكبرياء ، لكنها لا تخفي حزناً عميقاً . يومها كنت أقترب من الستين الباردة ، وكانت تتجاوز الثلاثين الحارة بهدوء .

لم أكن قد مت بعد ، كانت بضع كلماتٍ ترتسم على الأغطية والستائر البيضاء ، كنت أسافر في حلمي بعيداً ، أسرع الخطو لألحقها ، تزداد نبضات قلبي ضرباً مؤلماً على جدار القلب ، كان الجميع قد تخلو عني ، كنت أوشك أن أموت ...

- لا تمت ختياري ، أنت أكبر من الموت .

لم أصدق : هو صوتها ، هي نظرتها المتحدية التي لا أرى ، هي جرأتها التي أعرف ، والتي لم أشك فيها يوماً ، هي الحارة التي جاءت تدفيء عمري متأخرةً .

- لم أتأخر ياعمري قدري أن ألتقيك الآن فقط :

كانت تهمس في أذني ، أنا فقط من يسمعها ولا أحد يدري، ترى ماذا يفعلون ؟ هل يرونها ، أم أنها ليست حقيقية ، هل هي حلمٌ معلقٌ في سمائي ! اقتربت ميرا مني أكثر ، بدأت تهمس في أذني أشياء ، وتعيد علي أشياء :

- ختياري ، ألست من كونني ! أنهض سنكون معاً من جديد . ألم أعدك أني سأبقى معك ، وسأنير ستين عمرك مهما طال الزمن !

عندما بدأت بتكوينها كانت في الثالثة والثلاثين الحارة ، وكنت في بداية تلك الستين الباردة ، قلت في نفسي : تأخرت كثيراً، لكني تابعت ... في الشهر السابع كونَتْ ميرا واسترحْتْ . حلمت باللعب بشعرها الأسود الغزير الناعم الجميل القادر الوهّاب المثير الطويل الواصل قبل الساقين بقليل ، الأجمل من الليل.

لكنها لم ترسل أي رد .

في اليوم السابع من الشهر السابع جاءت ، كما تجيء النسمة أواخر صيفٍ جاءت... غزت عينيّ وفمي وقلبي ووجهي وشعري وجسدي وروحي و أيقظتني من عمري ..

وفي ذلك اليوم السابع من الشهر السابع بدأت الرحلة : بدأت أصابعي تتلمس أصابع قدميها ساقيها السرة الصدر العنق الفم الوجه .

وبدأ لساني يتلمس أصابع قدميها ساقيها السرة الصدر العنق الفم الوجه . وأخيراً حققت حلمي :

غزوتُ الشعرَ الأسودَ الطويل الكريم الرحيم الغزيرَ الناعمَ كالليلِ . أصبحنا جسداً واحداً ، عندها ضجت بالحديث :

ـ كونّي من جديد .

وتراجعت إلى الخلف بحركةٍ سريعة : رائعةً عاريةً راكعةً ساجدةً فاتحةً يديها للسماء ، ناثرةً شعرها الأسود كالليل في كل الغرفة ، جاهزةً كي تتكون :

ـ كـونّـي .

نظرت فوقي : وا بعل . صرخت بأعلى صوتي :

كيف لي أن أرسم تلك الصورة التي كونتُها أنا ، ثم كونَتها هي ، وذلك التكوين الذي ضم جسدينا معاً ؟ .

حينها فقط تدخل " ذاك اللامعروف من أوغاريت " وجاء ممسكاً بكمشةٍ من تراب أوغاريت ليبدأ بتكويننا .

في اليوم السابع أيقظْنا النومَ ونهضنا . كنا قد تداخلنا وتكونّا معاً ، وكان ذاك اللا معروف من أوغاريت ينظر إلينا مسروراً :

ـ لقد كونتكما كما يليق بكما ، أنتما تنتميان إلينا الآن ، انهضا. ونهضنا عاريين إلاّ من كمشةٍ من التراب الأوغاريتي الذي به جبلنّا .

ـ اقرأا باسم أوغاريت ، فأنتما منها .

عندما بدأت بتكوينها لم أكن أعرف إلى أين المصير . لكن بعد أن كونتُها أدركت ، الآن فقط أدركت أنها الخسارة الوحيدة في حياتي :

ـ وا بعل الطيب ، ماذا يحصل لنا أنا وأنت ؟ أنا أكوّن و أنت تكوّن ، ثم يتحطم الطين فجأةً ، ونخسر كل شيء . أيا بعل الطيب ، كم هو ثقيلٌ هذا الحزن الذي يلفنا أنا وأنت ؟ وا بعل أيها الـ ... وضع يده بهدوءٍ على فمي ، لم يتركني أكمل كلامي ، أحس بعذابي،عرف مقدار خسارتي،أمسك بيدي ، قال لي اللامعروف من أوغاريت :

- انهض .

نهضت عارياً إلا من بذرة قمحٍ ، وكمشةٍ من تراب أوغاريت .

- انهض .

نهضتُ ، قرأتُ باسم أوغاريت ، صليتُ لذاك الساكن في حضن صافون ، تابعت تجوالي بين الحقول ، وهناك رأيتها ، رأيت ميرا كما عناة تحمل رحاها ، وتستعد لطحن موت ، وذرّ بقاياه في الأرض.

كان اللامعروف من أوغاريت ينتظرنا .

رفع الدرجة الأولى الثانية الثالثة الرابعة الخامسة السادسة فالسابعة :

متشابكةً أيدينا . متداخلةً أجسادنا . ملتصقةً شفاهنا . متصالبةً شراييننا . وبقلبٍ واحدٍ . ونفسٍ واحدةٍ . وروحٍ واحدةٍ :

دخلنا ذلك المكان الجميل ، صار الظلام أسود ، ازداد سواده ، كنا نمتلك بعضنا في عناقٍ أبديٍ، وكانت روحنا الواحدةُ تهدأ ، تستعد للانطلاق، كانت كمشةٌ من تراب أوغاريت تعيد خلقنا في أحسن تكوينٍ ...

... وترتسم الكلمات الدافئة على الأغطية البيضاء ، تتلون الأغطية وتتداخل مع جسدٍ ساخنٍ كرغيف قمحٍ يركض من التنور ليرتمي حاراً دافئاً في الحضن ...

- بحبك يا شمسي .
- بحبك يا قمري .
- بحبك يا ختياري .
- بحبك يا طفلتي .

اقتربت ميرا قبلتني من جبيني البارد ، مرقت أصابعها بين خصلات شعري الأبيض ، أبتسم لها ، تشعر بذلك ، سمحت لأصابع يسراها أن تعبث بصدري ، تتسع ابتسامتي ، تتسع فرحتها لاستجابتي ، تقرب أصابع يمناها من شفتي، تدخل أصابعها بينهما ، تعبث بلساني ، أستطيع تحريك لساني بشكلٍ جيد ، جميلٌ إذاً ، صار اللسانان جسدين ، بل جسداً واحداً مكوناً منها ومني، عانقا نفسيهما ، مارسا حب نفسيهما .

قربت شفاهاً من جمرٍ إلى أذني :

- لا تمت ختياري رجاءاً ، سأكون أتعس مخلوقٍ في الكون عندما تموت ، تصور : سأبكي ، وأصرخ ، وأحزن من قلب قلبي يا قلبي ، ليس لأنك فارقتني فقط ، ليس لأنك مت فقط ، هل تتصور لماذا !

كنت اتابعها بقلبي ، تزداد نبضاته ، ينقبض حزناً لسيرة الموت ، أهمس دون كلماتٍ :

- أعدك لن أموت .

كانت قد رفعت شفتيها المحمومتين عن أذني ، قبلتني بسكينةٍ على فمي ، رفعت شفاهها ، نظرت في عيني :

- لن أموت لأني أعرف الحزن الذي سأسببه لقمري .
- ليس لأنك تموت وتفارقني ، لا بل لسببٍ آخر ، هل تتوقع ماهو !
- رفعت حاجبي معلناً عجزي .
- لأني لن أستطيع إعلان حزني! لن أجرؤ على لفظ اسمك وأنا أبكيك ! لن أستطيع البوح بعشقي لك ! أترى كم سيكون بكائي قاسياً ،أتتخيل كم سيكون حزني عارياً من الحزن ! وقلبي بلا قلب ! ختياري لا تمت ، أخشى وقتها أن أعلن حبي لك ، أن أقلب الطاولة على العالم كله ، عندها فقط أعلن حزني لأنه سيكون أكبر من أي احتمال !

شمسٌ تنير عمري ...

بعد أن أعدت تكوينها في أوغاريت . أعادت ميرا تكوين حياتها التعليمية ، فأنهت دراستها في الهندسة الزراعية ، ثم اتجهت إلى نيل شهادةٍ أخرى في اللغة الإنكليزية والترجمة ، لتتفرغ بعدها لرسالة الدكتوراة في الهندسة الزراعية ، واختارت لذلك موضوعاً شائكاً هو " بذور القمح السورية " نالت درجة الامتياز عن رسالتها ، وتفرغت لمتابعة بحوثها في الإيكاردا ...

كنت يومها أعمل في الإيكاردا عندما سمعت بما تقوم به تركيا وقطر ، بدعمٍ أمريكيٍ ، من سرقةٍ موصوفةٍ لبذور القمح السورية تحت ذريعة حمايتها . وهذا عملٌ غريبٌ حقاً ، إذ أن الحكومة السورية لم تقصر في تزويد هذه الحبوب للدول الراغبة والطالبة لها ، كما أعطت الصفة الرسمية الحكومية للمركز ، المدعوم أصلاً من الأمم المتحدة .

وقتها عرفت متأخراً أن المركز يحتوي على بذورٍ نادرةٍ للقمح ، وأن هذه البذور يمكن أن تنمو وتنتج في أسوأ بيئةٍ مناخيةٍ في العالم . عرفت بهذه المعلومة وأنا أجهز هذه الطرود لإرسالها .

سألت ميرا ، أجابتني :

- هناك سرٌ أو لغزٌ في تربة الجزيرة السورية ، وصولاً إلى ساحل حلب والساحل السوري ، يجعل التربة قادرةٌ على إنتاج أنواعٍ نادرةٍ من البذور، وهذه الطرود كنوزٌ غذائيةٌ بشريةٌ نادرة ، وكانت تعوض النقص الحاصل في السلة الغذائية لأي دولةٍ في العالم ، وخصيصاً تلك التي تواجه ظروفاً مناخيةً صعبةً واستثنائيةً .

و يؤكد المسؤلون في منظمة الزراعة والاغذية الدولية أن مقر المركز في حلب يحتوي ثروةً لا تقدر بثمن ، وهي بنك الجينات الخاص بالنباتات وأهم ما يميز المحاصيل في هذه المناطق ، ويعطيها الفرادة والأهمية ، منذ آلاف السنين ، هو وجود المورثات المتأقلمة طبيعياً مع الاختلافات البيئية خصيصاً ، في المناطق الجافة التي تتعرض لانتكاساتٍ بيئية.

سألت ميرا ثانيةً :

- وما دور منظمة الزراعة والأغذية الدولية ، وكيف لا تتدخل في هكذا حالة ؟
- المنظمة لم تقف مكتوفة الأيدي ، لكن بعض الدول التي لها مصلحةٌ في الحرب على سوريا كأمريكا وتركيا وقطر، تمنع هذه المنظمة من أداء دورها ، بذريعة أنها وحلفا ءها قادرون على الحفاظ على هذه الثروة ضمن المركز ، ما يعني أن المتشددين الاسلاميين هم من يسيطر عليها اليوم . لكن المنظمة لم توقف جهودها فنقلت عام 2014 نسخةً من معظم المصادر الوراثية النباتية من الإيكاردا ، إلى قبو البذور العالمي في النرويج ، بغية الحفاظ عليها ، لأن بنك الإيكاردا للمصادر الوراثية يخزن أكبر مجموعة عالمية من محاصيل الحبوب ، و يحوي ما يقارب 150 ألف عينة ، 65 بالمئة منها سلالات محلية فريدة وبرية من الحبوب والبقول والأعلاف، تم جمعها من مناطق عرفت أقدم ممارسات تدجين المحاصيل في الحضارات البشرية، وكمحصلة يجب أن نعرف أن القمح السوري المنتج في هذه المناطق ومناطق حلب ، هو من أجود أنواع القمح في العالم، وتعتمد الكثير من دوله على بذور القمح السوري .

****

شهد الألف السابع قبل الميلاد بداية زراعة القمح ، في سوريا .

ويشهد الألف الثالث الميلادي سرقة بذور القمح في سوريا .

... قمح

في البدء كان ماء ، وكانت حبةً .

في البدء كان إنسان
وجد الحبة على الأرض
أعاد الحبة إلى قلب الأرض

بذرة يأكل منها الإنسان

ثم يأكل الإنسان الإنسان

ويقتل الإنسان الإنسان

من أجل الحبة

ويستمر الإنسان في قتل الإنسان

من أجل القمح

الحرب العالمية الثانية

روسيا - لينينغراد

واجه فريقٌ روسيٌ من علماء الحياة خياراً قاسياً كشتائهم ، في نهاية عام 1941 ، وخطورة أن تذهب جهودهم في الحفاظ على مجموعةٍ من البذور الهامة مهب ريح كانون القاسية .

عشرات السنين وفريق (معهد فافيلوف لصناعة النبات) بقيادة مؤسس المعهد نيكولاي فافيلوف ، يجمعون البذور الهامة والنادرة من جميع أنحاء العالم ، ويحفظونها ، كونها ستساعد في خلق محاصيل يمكنها تحمل الظروف الجوية القاسية، وبالتالي إنقاذ العالم من أية مجاعةٍ قادمة .

عندما حاصر النازيون المدينة ، اعتصم علماء النبات في المعهد لحماية بذورهم ، التي لم يعلنوا عن وجودها ، وكان عليهم حمايتها من المحتل النازي، ومن الطقس المتجمد، ومن الفئران، وأيضاً من المواطنين الجياع .

مات ثمانيةٌ من العلماء ، وأصيب رئيس المجموعة ، للحفاظ على بذور القمح والأرز والبازلاء ،رافضين أكلها .

بعدها مات فافيلوف في معسكر اعتقالٍ ليس نازياً ، بل سوفييتياً عام 1943 متهماً من سلطات بلاده بإضراره بالزراعة !!!

الشّعوب تُحكم بالخبز و ليس بالسّلاح

هنري كيسنجر

ما حدث في سورية على مدى عشر سنواتٍ ، يؤكد أن لأمريكا أسباباً معروفةً منها سرقة النفط السوري ، وكما سرقت آثار متحف بغداد لن نستغرب ضلوعها في سرقات كثيرٍ من الآثار السورية ، إضافةً إلى ذلك فلديها أسبابٌ غير معروفةٍ ، تجعلها تغذي هذه الحرب ؟ وأولها سرقة بذور القمح السورية ، بشكلٍ مباشر ، أو عن طريق تركيا وقطر .

وإذ تسرق هذه البذور ، فهي تبقيها لنفسها ولا تشارك بها دول العالم الآخرى ، بل تزود تلك الدول ببذورٍ مختلفةٍ غير قابلة للزراعة والإنتاج ثانيةً ، وهو ما يطلق عليه البذور المذكرة أي أنها للاستهلاك فقط !

أمريكا توزع البذور المذكرة الميتة ، وتسرق بذورالقمح الحي الذي يعيد خلق ذاته ، هذه البذور هي السورية التي لا تموت ، وهي نقيض القمح الأمريكي الموات .

ولأن سوريا لا تقع ضمن دائرة الشعوب التي تحكم بالخبز،ولأن سوريا تمتلك قمحاً يرفع سوية عزتها وكرامتها ، فإن راعي البقر الأمريكي سيستمر في السرقة إلى أن يجد العالم الحر بديلاً أخلاقياً له .

السرقة .

تحرك الموكب المكونٌ من ثلاث سياراتٍ إلى الإيكاردا في الأولى أنا وبابلو في المقعد الخلفي أمامنا ليز إلى جانب سائقها الشخصي، ترافقنا سيارتا حراسة .

ينطلق الموكب بسرعةٍ كبيرةٍ خارج منبج باتجاه حلب ، كي نتفادى أي تماسٍ مع الجيش السوري المتواجد في حلب ، حسب نصيحة عمر ، سار الموكب باتجاه طريق حلب إدلب ، تجاوز إدلب منعطفاً إلى اليسار باتجاه سراقب ،ومنها إلى طريق عام حلب دمشق ، حيث الإيكاردا ،حيث فاجأتنا المساحات الخضراء الكبيرة على يمين طريق حلب دمشق ، ومرتفعٌ يضم مركز الأبحاث ، لكن المفاجأة الكبرى كانت بانتظارنا :

رجلٌ ستينيٌ لا يمكنك تمييزه عن أمين ، جسمه ، شعره الأبيض ، طريقة لبسه :

- سيد أمين ؟ سأل حنا بالإنكليزية ..
- عفواً أنا سامي ، خبيرٌ زراعيٌ سوريٌ .

تشويشٌ على رادارات ذاكرة حنا ، بدأت تعمل بقوة ، ينظر إلى سامي غير مصدقٍ ، ويتبادل النظرات مع بابلو ..

- أنا حنا وصديقي بابلو نعمل في الآثار ، ومهمتنا الأخيرة كانت زراعيةً أكثر منها أثرية .
- ليس في منبج على ما أظن .

يضحك الثلاثة ، يشاركهم البعض ، وإن كان معظم المستمعين لا يفهمون شيئاً من حوار الثلاثة باللغة الإنكليزية . لكن حنا لا يمرر كلمة منبج بسهولة :

من أين للسيد سامي أن يعرف أننا كنا في منبج ، ويبدو أنه يعرف شيئاً عن طبيعة عملنا هناك ! مما يزيد اعتقادي بأن صديقنا أمين يعرفك ، وتعرفه ، إن لم تكونا شخصاً واحداً ، يتابع حنا: وربما تعرف عن مهمتنا في تدمر حيث طريقنا بعد قليل .

- لا أحسدكما على مهمتكما الجديدة !

تتدخل ليز التي كانت تتابع الحديث ، باستغراب :

- ماذا يحدث حنا ! أتعرف الرجل !
- يخطر لي ذلك ، لو لا أني متأكدٌ أنه يرقد بين الحياة والموت في المشفى العسكري في اللاذقية ، ويستيقظ في فتراتٍ قليلة ، فيستغل الفرصة ويحادثني .
- أتقصد أمين ؟
- أجل ليز .
- سعيدٌ بالتعرف إليك سيدتي ، أنا سامي ، لا يبدو أنك من المنطقة ، إلا إذا كنت من الساحل ، فلدينا الكثير من الشقراوات .
- وكيف عرفت أني شقراء سيد سامي ؟
- ولو ، بياض الثلج وزرقة البحر ، يجب أن يغلفا بشعرٍ أشقر .
- صدقت ، على كلٍ سعيدةٌ أيضاً بالتعرف بك ، لكن ما الذي جعلك تخاف من مهمتنا الجديدة ؟
- الأمور سيئة جداً في تدمر سيدتي ، لهذا أخشى عليكم .
- أنت تدري أن من يسيطر على تدمر اليوم هم جماعتنا .!
- لذلك أخشى عليكم، هذه السيطرة لن تدوم طويلاً ،لذلك خذوا حذركم .
- سيد سامي ، نحن نعبر من هنا إلى تدمر ، وسمعنا قصةً لا تصدق عن سرقة البذار ، وتحديداً بذار القمح الذي تحتفظون به هنا .
- أجل صديقي ، مع أن الحكومة السورية ...
- سامي ، أما زلت تعمل لصالح الحكومة السورية ؟
- بالتأكيد ، والجميع هنا يعرفون ذلك صديقي بابلو ، فهم في حاجةٍ إلي هنا ، وبقيت في مكاني رغم كل التهديدات والمخاطر ، ورغم كل السرقات والنهب للبذور ، وتعدد الجهات التي تسيطر على المنطقة ، وتنوع الميليشيات وأسيادها ، فالكل مقتنعٌ بالحاجة إلى عملي هنا ، مهما كان انتماؤه . مع أنهم استغنوا عن بعض من كانوا يعملون هنا ، ومنهم ميرا التي اضطرت إلى مغادرة المركز والالتحاق بالمركزالجديد الذي أنشأته الحكومة كبديلٍ عن هذا بداية الحرب .
- من هي ميرا ؟
- ميرا صديقتي ، تعذبت كثيراً قبل أن تصل إلى دمشق ، وأهينت كثيراً على يد اللصوص المسلحين ، كانت ترفض مساعدتهم ، وكانوا يجبرونها . في النهاية تمكنت من الهرب والوصول إلى دمشق
- وماذا عن الحكومة السورية ، ماذا كنت تنوي أن تخبرنا! سأله حنا .
- لم تمتنع الحكومة السورية عن إعطاء أي طالبٍ لهذه البذور ، مع ذلك كان الجميع يسعدون بالاستيلاء أو السرقة أو النهب ، غريبٌ

أمر هذه الجماعات وغريبٌ أمر أسيادها ، لا يسعدون بأخذها بسهولة ، يرغبون باغتصابها فعلاً لا اسماً ، يحلمون بغزو البذور .

رنين هاتف حنا..

- حنا أنا آسف ، لم استطع الرد عليك ، لم أستطع إيقاظه إلا الآن ، هو يسمعني ، ويبلغك التحية ، لكنه لا يستطيع الحديث معك ..
- جيد ، هل أمين بخير ! جيد ، لاباس .. أنا الآن في الإيكاردا ، وسنتحرك بعد الظهر إلى تدمر .
- هل تتصور صديقي سامي قال بابلو ، أن يكون ما تبقى من بذورِ هنا في خطر ؟
- أخي بابلو ، الحكومة السورية لم تقصر في هذا المجال ، فمنذ بداية الحرب على سوريا ، قامت الحكومة بواجبها في إخفاء ما يمكن إخفاؤه بعيداً عن عيون من يقاتلون جيشها ، لكن من سوء حظ الحكومة هنا أنها وقعت في مشكلةٍ لم تنتبه إليها إلا متأخرةً ، فقد وضعت الكثير من البذور في مركز أبحاثٍ تابع لها في مدينة دوما قرب دمشق ، في المركز الذي نقلت إليه ميرا ، وأثناء العمليات العسكرية ، احتل الإرهابيون دوما ، وتعرضت ميرا ثانيةً للكثير من المضايقات ، كما كلف ذلك الحكومة الكثير من التضحيات كي تنقل بعضاً من مخزونها خارج دوما .

- هذا يعني أن الحكومة حافظت على مخزون قمحها ؟
- إلى حدٍ ما ، فقد فقدت الكثير منه خلال الحرب . فلم تتوقف تركيا عن إثبات أطماعها المختلفة في سوريا، وظهر ذلك جليا خلال الحرب، حيث عمدت إلى احتلال مناطق واسعة من شمال سورية، وقامت السلطات التركية بسرقة أجود أنواع القمح السوري، بحجة خوفها على مصيره ، وذلك بالتعاون مع الهلال الأحمرالقطري ، لقد سرقت 17 صنفاً من أصناف القمح السوري وزرعتها ضمن مشروع خاص بهذه الأقماح ، في المناطق المحاذية للحدود السورية لتشابه خواص أراضيها الزراعية مع الأراضي السورية. أمريكا هي الشيطان الأكبر في هذه القصة ، يتابع سامي ، فما إن بدأت تشعر بالخطر إزاء محصول قمحها ، حتى جن جنونها ، وبدأت تبحث عن البديل ، ولم يطل بها الأمر حتى وصلت إلى البذور السورية ، فماذا حدث :

تقارير رسمية بحثية وعلمية ...

تقريرٌ أمريكي

تبدأ المشكلة في تغيرات المناخ العالمي ، حيث أدى ارتفاع درجات الحرارة إلى تدني إنتاج المحاصيل، وهدد بانخفاض آخر قد يصل إلى 4% في العام ، وبدأت الآفات والأمراض في قلب سلة الحبوب والأقماح الأمريكية ، من خلال الظروف الحارة والجافة التي ارتفعت متغلبةً على المبيدات الزراعية. مما جعل العلماء يبحثون عن مصادر مقاومةٍ فعثروا عليها في سوريا موقع ولادة الزراعة المدجنة .

يحتشد جمعٌ من الذباب فوق نباتات القمح الطرية في أحد البيوت الزجاجية في ولاية كانساس ليتلفها،ويلحظ البحاثة أن نوعاً منها يسلم من التلف ، وهو النوع السوري المعروف بإسم القمحية - أجيلوبس تاوتشي -

على بعد حوالي 40 كيلومتراً جنوب مدينة حلب السورية يوجد أهم بنوك بذور القمح في العالم وتحديداً القمحية. وذلك في بلدة - تل حديا - تحت إدارة الإيكاردا ، وحيث تخصص المركز المرتبط بالأمم المتحدة في حفظ البذور وإجراء الأبحاث عليها في المناطق الجافة والحارة، وهي ظروفٌ تواجه الكثير من مناطق زراعة الغذاء في العالم ، وخاصةً بذور القمح .

تقريرٌ علمي 1

يقول البروفسور منج تشين أستاذ علم الحشرات الجزيئي إن يرقات الحشرة كانت تموت بفعل برودة الشتاء. ولكن ذلك البرد بدأ يتأخر خلال الموسم بحيث تنجو اليرقات وتتحول إلى ذباب. ويبدو استنفاذها للقمح أقرب للخيال العلمي. فهي لا تمتلك اسناناً لذلك تحقن مادةً ذات أساسِ بروتيني في النبات يحوله إلى سائل مغذٍ ولزج تستطيع امتصاصه وهضمه.

عمل مونج تشين من تشرين الثاني، حتى نهاية نيسان مع عالم النبات جيسي بولاند في سلسلةٍ من التجارب التي كشفت في البيوت الزجاجية عن فعاليةٍ قاسيةٍ ، حيث زرعوا الأقماح التجارية الأمريكية بجانب

مجموعة من الأعشاب البرية القريبة من القمح المأخوذة من خزنة البذور في سوريا ، بالإضافة إلى مجموعة عشوائية من البذور الأخرى. تنمو البذور ، تترك لمدة أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع بعدها تطلق عليها الحشرات . ما هي النتيجة ؟ لم ينج من الحشرات إلا القمحية السورية التي التي لا تقهر ، وهي تنمو بشكلٍ بري على الهضاب المحيطة بمدينة حلب.

تقريرٌ علمي 2

يقول بولاند إن تجارب - ذبابة الهيسيانية - التي انتهت مطلع شهر نيسان، دعمت خطة جامعة كانساس ، من أجل إدخال النباتات الناجية من هجوم الذباب في أصناف القمح التجارية الأمريكية. وبعد الإنتهاء من التصنيف ، توزع القمحية السورية على محطات إكثار البذور الأمريكية لتنتهي فيما بعد في حقول الغرب الأوسط الأمريكي، وتنتهي معاناة أمريكا مع القمح وبذور القمح ، ومن الحقائق الواضحة أن الخبز الأمريكي سيصبح في خطر مع حلول عام 2030 . وتبعاً للسياسات الاحتكارية الأمريكية في المحاصيل الاستراتيجية ، فإن الخطر سيعم العالم كله .

تقريرٌ عسكريٌ سياسيٌ اقتصادي

ما بنته سوريا خلال عشرات السنين في تطوير القطاع الزراعي ، دمره الجهل من قبل من استباحوا أرضها وتعرضوا لأهم المراكز الدولية العاملة على مكافحة التصحر وتطوير الزراعات ، وهو المركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة .

فقد تعرض المركز خلال الصراع الدائر في مدينة حلب للسطو والنهب أكثر من مرة ، وتمكن العابثون بمستقبل سوريا من سرقة العديد من المحتويات والآليات والممتلكات لدى الإيكاردا . كما أن العصابات الإرهابية تحاول دائماً الاحتفاظ بالمركز ، الذي يوجد فيه حوالي 500 موظفٍ من المنظمة ، وبموجب اتفاق غير مكتوب بين هؤلاء المسلحين وادارة المنظمة فإنهم يحصلون على أغلب إنتاج المزرعة البحثية ، ويستمر باحثو الإيكاردا متابعين لعملهم .

***

4

المحاولة الرابعة للبقاء على قيد الحياة ..

لم أكن قد متّ بعد

لكن يبدو هذه المرة أني نمت طويلاً وعميقاً . لم أشعر إلا وجسدي يتراقص يميناً ويساراً ، مع هبوط المشيعين درج بيتنا ، وهم يحملونني على أيديهم ، لم أهدأ إلا عندما وضعوني على ظهر السيارة ... سار الجميع ، وعبارات الرحمة على أمين ساكت المنكود تدّق أذنيّ من كل مكان . لم أكن أعرف من الذي يطلق هذه العبارات لأتأكد إذا كان صادقاً أم لا ؟ لم أجرؤ على فتح عينيّ ولو مواربةً ، ربما ينتبه أحدٌ ما وتكشف اللعبة ، أجل لعبة الموت .

يا لهول هذه اللعبة التي فتحت عينيّ أخيراً ، وجعلتني أرى ، كم أنت عادلٌ يا إلهي ، تجعلني أرى في آخر لحظة ... شكراً لك يا رب ...

كان كلام الرب يقرأ عندما وضعوني قرب حفرةٍ من التراب ، مع أني أوصيت الجميع أن يستبدل هذا الكلام بموسيقا لباخ ، لكن أحداً لا يجرؤ ، حفرة التراب جهزت للميت الذي هو أنا ، قلت في نفسي:

ـ لم يعد أمامك الكثير يا أمين . انهض . لكنني خفتْ هذه المرة ، لنؤجلها قليلاً .

بدأت الكلمات ، وصار الجميع يمدحونني ، يمدحون الستين بالصلاح والتقوى، والعمل الصالح ، والإيمان ، كدت أنفجر من الضحك ، لأول مرة أعرف أنيّ مؤمنٌ وتقيٌ ، لكن صديقي القاص خالد شريقي كان الوحيد الذي تحدث عني بشكلٍ واقعيٍ ودون مبالغة ، قال خالدٌ في كلمته :

- أيها السادة لا أحب أن أكون متجهماً عندما أذكر أمين ، أعرف أن المتحدثين قد انتقوا اللحظات المؤثرة، وتحدثوا عنها وسيتحدثون عن الصفات الرائعة التي يتمتع بها ، لذلك اسمحوا لي أن أتحدث عن الفنان الذي كان يلتقط الصورة بشكل يصعب على الإنسان العادي أن يلتقطها :

كنا ندخل سوق الخضار في اللاذقية ، ونسمع العديد من اللهجات ، وكان أمين يسمع بائعاً للخضار يصيح:

ـ بامي .. ويمطها : با ... مي ...

كان يردد الكلمة وراء البائع ويقول لي ـ اسمع هاللهجة ، ولك أللهِ ما بتجنن ؟ أما عندما كان يسأل عن شيء ما ، ويتلقى الجواب : ما فا . كان يتكركر ويضحك ويهز جسده كله :

ـ ما فا ، قال ، ما فا ...

تعالت الضحكات ، ويبدو أن خالداً قرر ألا يتابع لهجته اللاذقانية هذه ، فقد تحولت المناسبة الحزينة إلى كوميديا ، وصار الجميع يضحكون ، وأنا منهم بالطبع .. فعلاً شي بيضحك .

ـ يخرب ذوقك يا خالد . هلق وقت هالحكي ؟ .

ضحكت كثيراً ، خشيت أن يُفتضح أمري ، لكن خالداً أدار الدفة من جديد، نظر بتركيزٍ إلى جمهور الحاضرين ، تأكد أنه سيطر عليهم ، وبكامل الجدية تابع :

كذب الظن لا إمام سوى العقل
مشيــرا في صبحه والمســـــــاء

صمتٌ كاملٌ ، جعل خالد يستمر مرتاحاً ..

- كان أمين يقول لي إنه صديق المعري ، وإنه التقاه في زيارته إلى اللاذقية ، وكان دليله في رحلته ، بدأ الحاضرون بالضحك ثانيةً ... هكذا كان يقول لي : وحياة الرب هذا كلامه، وليس كلامي ، بدأت بعض التعليقات من الحاضرين تشوش متابعة خالد ، الذي تابع قائلاً : لست متأكداً حتى الآن إن كان يقصد أنه التقاه بشكلٍ شخصيٍ أو ... أظن أن أميناً لا يقصد كما فهمتم ، أظن أنه كان يعيش معه من خلال أفكاره وكتبه ومعتقداته .. هدأت التعليقات ، فاستمر بجديةٍ هذه المرة :

في اللاذقية ضجةٌ ما بين أحمد والـــمسيح
هذا بناقوسٍ يدق وذا بمئذنةٍ يـــــــــصيح

كان أمين يؤكد دوماً أنه لم يحدث أي قتالٍ أو نزاع بين المسلمين والمسيحيين حينها في اللاذقية ، ولم يتعد الأمر نقاشاً بين مجموعةٍ من طالبي المعرفة ، الذين جمعهم دير الفاروس الذي كان قائماً خلف هذه المقبرة ، في مؤتمرٍ حول أصول الأديان ،وكان النقاش حاداً جداً ، من هنا أتت الضجة ، وليس من النزاع الديني ! .....

في اللاذقية ألفةٌ مابين أحمد والمسيح

لم أكن قد مت بعد .

ألف سنةٍ تفصلني عن تلك اللحظة ، كنا في نهاية القرن العاشر الميلادي ، حين عاد أبو العلاء المعري من طرابلس قاصداً اللاذقية ، كان أول ما قمت به هو تحضير استقبالٍ يليق به من قبل ابن عمه الأمير التنوخي .

استقبلته عند النهر الكبير الشمالي ، واصطحبته إلى المدينة ، وبدأت أشرح له جمال مباني اللاذقية ، ودورها الواسعة ، وحدائقها الغناء ، سألني بصوتٍ هاديءٍ :

- هل حضرت لي الموعد الذي اتفقتا عليه في دير الفاروس؟
- بالطبع يا معلم ، وقد سر رئيس الدير الراعي الصالح كثيراً بمجيئك ، فهو يعرف عنك الكثير .
- وهل قمت بحجز مكانٍ هاديءٍ للنوم في أحد خانات اللاذقية ؟
- بصراحة لا ، لم يسمح لي بذلك ! حاولت كثيراً بلا جدوى .
- ولماذا ؟ من الذي يمنعني أن أستريح في مكانٍ هاديء ؟
- تستريح في مكانٍ هاديءٍ لن يمنعك أحدٌ ، لكن الراعي الصالح أصر أن تكون إقامتك عندهم في الدير .
- جميل ، هذا يعطيني وقتاً أطول للقائهم وحوارهم ، وهل يكون في العادة ضيوفٌ كثر في هذا الدير ؟
- أجل يا معلم ، فقد أخبرني الراعي الصالح أن بضعة ضيوفٍ موجودون بترتيبٍ مسبقٍ من قبله كي تلتقيهم ، وتتعرف بهم، وربما تناقشون أموراً فكريةً هامةً سويةً .
- جيد ، أشكرك صديقي أمين ، أنا سعيدٌ أن تكون دليلي في اللاذقية ، رغم أن أولاد عمي ، سيتضايقون من تحضيراتك !

- تضايقوا فعلاً يا معلم ، لقد وبخني الأمير التنوخي على ذلك ، لكني دافعت عن نفسي بقوة ، وأخبرته إن رغبة أبو العلاء أهم عندي من أية تحضيراتٍ رسمية .
- جيد جيد ، مخالفة الأمراء ليست هينة ، فكيف إذا كان الأمير ابن العم ! قالها المعري من ألف عام ..

حين قالها لم يكن يدري أن أميراً آخر سيكون أقسى معه ، بل مع تمثاله ومع قبره ،حتى مع الضيوف الذين يرغبون في زيارته ! هذا الأمير المسلم - الذي استعار السلطة من الله - وصل به الأمر إلى أنه قطع رأس تمثال المعري ، بعد حوالي ألف عامٍ من موته !

غريبٌ كيف لا يقدر البشر هذا المبصر ، ولا يعطونه حقه . لم يستطيعوا فهم حوار الأديان الذي دعا إليه المعري في اللاذقية، فدمر الإفرنج قسماً من اللاذقية عندما احتلوها ، بعدهم أتى الفاتح المسلم صلاح الدين الأيوبي ليدمر اللاذقية ، بحجة تخليصها من الإفرنج ، دمر اللاذقية باسم حربه مع الصليبيين . و المأساوي في الأمر أن الإفرنج دمروا قسماً كبيراً من إرث المعري ، عندما احتلوا المعرة ، والذي لم يدمره المحتل الإفرنجي،دمره المسلم صلاح الدين الأيوبي عندما فتح معرة النعمان ، وخلصها من الإفرنج !

دير الفاروس

دير الفاروس أعظم ديرٍ بالشام ومصر

يقصده النصارى من الآفاق في يوم معين من السنة ،

وكل من نزل به من المسلمين يضيفه النصارى،

وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل البكر."

ابن بطوطة 1332 م

عرف دير الفاروس في اللاذقية شهرةً كبيرةً منذ القرن السادس الميلادي ، أقيم خارج المدينة وقتها ، وبقي منه اليوم آثار كنيسةٍ ضخمةٍ ، و آثار ديرٍ طوله حوالي 35 متراً ، بعرض حوالي 28 متراً ، مزودٌ ببرجين مبنيين من حجارةٍ مصقولةٍ ، بقطر عشرة أقدام . وكان بداخل البرجين سلالم مدعومةٌ صاعدةٌ نحو قمتيهما .

يحيط بالدير بساتين الزيتون وكروم العنب ، التي كانت تكثر في اللاذقية يومها، ووجد الآثاريون مؤخراً معالم معصرةٍ ضخمةٍ مع خزانٍ ضخمٍ ،وجرةٍ فخاريةٍ كبيرة الحجم مغروسةٍ في الأرض ، خصصت لتخزين الزيوت و الخمور.

يعرف الدير من قبل المؤرخين باسم دير الفاروس ، و يقال إن كلمة فاروس يونانية ، وتعني المنارة ، كما يؤكد المؤرخون أن الكنيسة كانت في الأصل على اسم القديس جاورجيوس، وكان جميع المسيحيين يجتمعون فيه في أحد أيام السنة ، ومن آثار الدير إنجيلٌ مهمٌ للطائفة الأرثوذكسية، محفوظٌ في مطرانيتها اليوم .

في اللاذقية حوارٌ للأديان

لم أكن قد مت بعد ، ولم أكن في المعرة ، كنت في اللاذقية ، في نهاية القرن العاشر الميلادي ، عندما قمت بصحبة فيلسوف الشعراء بزيارة أمير اللاذقية الذي سر جداً باستقبال فيلسوف الشعراء ، وأقام على شرفه وليمةً كبيرةً ضمت أعيان اللاذقية ، وأقرباء أبي العلاء من التنوخيين أمراء اللاذقية . وقد سر الأمير أكثر بحضور فيلسوف الشعراء مجلسه الأدبي الذي ضم مهتمين وأدباء وشعراء من أرجاء المنطقة .

بات أبو العلاء ليلته الأولى في اللاذقية بضيافة ابن عمه ، تناول إفطاره ، وتحرك باتجاه دير الفاروس . لم يترك الأمير فيلسوف الشعراء وحيداً في طريقه إلى دير الفاروس ، بل اصر أن يرافقه سيراً على الأقدام ، ليحكي له عن اللاذقية وجمالها ، وعن أهمية دير الفاروس بالنسبة لأهل اللاذقية ، الذين يهتمون بالدير ، ويقدمون النذر فيه ، بغض النظر عن دياناتهم ، فأبناء اللاذقية يعيشون معاً كعائلةٍ واحدة . لذلك فهو على علاقةٍ جيدة مع رهبان الدير ومع مطارنة اللاذقية الذين يقيمون الاحتفالات الدينية المشتركة مع معتنقي الأديان الأخرى . كما أخبره الأمير بأن وفوداً وجماعاتٍ من مختلف أنحاء العالم تزور اللاذقية ، ويكون الدير على رأس قائمة زياراتهم .

وصل الجميع إلى الدير، وكان الراعي الصالح مع جميع المتواجدين بانتظار وصول فيلسوف الشعراء ، وسر الراعي الصالح أكثر بمرافقة أمير اللاذقية لفيلسوف الشعراء ، كما رحب بي بشكلٍ استثنائيٍ ، فهو من رشحني لمرافقة فيلسوف الشعراء .

دعا الجميع لدخول الدير ، عرفهم على أقسامه ومهامه وتاريخه ، مشيداً بالدور الهام الذي يلعبه الدير في حوار الأديان ، والألفة بين الأديان ، من خلال التركيز على الأمور الإيجابية المشتركة بينها ، والابتعاد عن أي نقاط خلافٍ يمكن أن تكون موجودة . وأكد أن أمير اللاذقية ، وعائلته هم المثال الذي يحتذى في هذا المجال ، ويشكلون مع أسرة الدير عائلةً واحدةً سمتها المحبة والألفة والتعاون .

أبو العلاء ، نيتشه، داروين ..

كان صباحاً جميلاً هادئاً ، أطل على اللاذقية يومها ،وأنار بناء الدير الفخم الذي تحيطه بساتين الزيتون المزهرة بنحوٍ لافتٍ هذا الموسم ، كما كثرت كروم العنب حول الدير ، وكانت حينها وريقات الدالية قد بدأت بالظهور .

بدأ أهل الدير وضيوفهم بالتوافد إلى صالة الطعام الرئيسية ، وكان الراعي الصالح على رأس الطاولة ، وقف بانتظار وصول فيلسوف الشعراء ، الذي كنت أشرح له مايحدث بشكلٍ دقيق ، تقدم بخطاً واثقةٍ باتجاه الراعي الصالح ، الذي شد يده مصافحاً ، وطلّب منه الجلوس إلى جانبه .

كان الطعام مؤلفاً من الخبز والجبن والزيتون الأخضر والأسود والخل البكر، وكانت الفواكه المجففة من تينٍ وزبيبٍ وجوزٍ ولوزٍ ، وكان العاملون في الصالة يصبون الحليب للضيوف .

بدأ الراعي الصالح بشكر الرب ، وشكر أخوته في الدير على اهتمامهم بأراضي الدير ، وتقديم الطعام لأي راغبٍ أو محتاجٍ أو عابر سبيلٍ يمر بهم ، كما أشار إلى تعاون الأمير التنوخي مع أسرة الدير، ليستمر الدير في تقديم رسالته إلى أبناء اللاذقية وأبناء المدن المجاورة.

- سعيدٌ جداً أن يكون بيننا اليوم شاعر الفلاسفة ، وفيلسوف الشعراء أبو العلاء، وسعيدٌ جداً أن لبى دعوتنا الأخ شنودة من مصر، و الأخ موسى من دمشق ، والأخ سمعان من إنطاكية ، والشيخ خالد من مكة ، كما سررت بمجيء الفيلسوف جابر تلميذ أبي علي ابن سينا المفضل من سمرقند . واسمحوا لي أن أعرفكم بإخوتي في الدير الذين سيشاركوننا جمعيتنا الاثني عشرية هذه:

  الأختان تيريزا وماري ، و الأخوة فيليب و لوقيان ويوسف .

  داعيكم الراعي الصالح في سبيل سعادة الإنسان والارتقاء بعقله ، والسمو بروحه ، أرغب أن نبدأ إفطارنا ، قبل الانتقال إلى قاعة الاجتماعات ، كما أرغب في التنويه أننا غداً نحتفل بأهم مناسباتنا السورية ، وهو عيد راس السنة السورية ، بالطبع قصدت أن أدعوكم في هذا التوقيت لمشاركتنا هذا الاحتفال الكبير .

حوار العقل

ترى هل نكون واقعيين عندما نقول أن أبا العلاء لخص ماجاء على لسان زرادشت ، قبل تسعة قرونٍ من نيتشه ، بيتين واضحين لا غموض فيهما :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زورٍ سطروه

وكان الناس في عيشٍ رغيدٍ فجاؤوا بالمحال وكدروه

أو نتصور ، وقبل تسعة قرونٍ أيضاً أنه كان يفكر كما داروين :

والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جمادٍ

أو أنه يدحض نظرية الخلق التوراتية كاملةً :

جائزٌ أن يكون آدم هذا قبله آدمٌ على إثر آدم

غريبٌ كيف أن رجلاً توفي منذ حوالي ألف عامٍ يفكر - ليس كما نفكر اليوم بعد الكثير من المعجزات العلمية والفكرية - بل يفكر بعقلٍ يتجاوزنا ، ويتجاوز تطورنا العلمي اليوم بكثير !

كانوا اثني عشر عاقلٍ على طاولةٍ واحدةٍ ، لا تختلف عن طاولة العشاء الأخير إلا بخلو المسيح جسداً منها . كان العقل هو المحرك لحوارهم ، حوار عقائد متعددةٍ ، لا تعصب فيه ، بل بحثٌ عن الأصل ، وتركيزٌ على الجوانب التي تجمع ، بدأه فيلسوف الشعراء أبو العلاء بصوته الهاديء الشجي بتحيةٍ إلى المجتمعين في اللاذقية ، وبإثارةٍ للحوار :

في اللاذقية ضجةٌ ما بين أحمد والـــمسيح
هذا بناقوسٍ يدق وذا بمئذنةٍ يـــــــصيح
كلٌ يعظِّم دينه يا ليت شعري ما الصحيح

الضجة أخوتي تنتهي بوصولنا إلى فهمٍ مشترك ، هي ليست حرباً بيننا بل نقاش ، وحوار أديانٍ بين رجال دينٍ متنوعي العقيدة .

أجل ما الصحيح ، بل سأسأل ، قال الأخ شنودة ، ما الخطأ ؟ وهل يشك أيٌ منكم أيها الأخوة أننا لسنا من أصلٍ واحدٍ ولو لثانية !

إن القدسية التي تسم الأديان ، تقود معتنقيها إلى تعصبٍ غير مسبوق، ورغم أن منشأ وأصل هذا التعصب بسيطٌ وواضح ، فإن من يمارسونه في شعائرهم لا يلحظونه ،لأن كل دينٍ من الأديان يعتبر نفسه الأصلح دينياً ودنيوياً والآخر على ضلال ، مما يجعل أتباع أي دينٍ جاهزين للدفاع عنه ضد الأديان الأخرى ، ويؤدي إلى صراعاتٍ نتيجتها: القتل، الحرق، التدمير، الاغتصاب ، الفقر ، الجوعٌ ، التشريد . لأن الانتماء إلى أية عقيدةٍ والتعصب لها، يعني رفض العقائد الأخرى، وبالتالي فهو مشروع تطرفٍ ، يؤدي إلى نزاعاتٍ لها طابعٌ دينيٌ أو عرقيٌ ،هي في النهاية تطرفٌ من جهة ضد جهة ومن كل الجهات ضد كل الجهات .

- فعلاً أخ شنودة نحن من أصلٍ واحدٍ . أكد ذلك الراعي الصالح ، وأضاف :
إن العقائد كلها تنهل من مصدرٍ واحد ، وبالتالي فإن كان هناك أي خلافٍ فسببه نحن البشر ، طبيعتنا البشرية تجعلنا نختلف ، لكن ما الذي يمكن أن يجمعنا ؟
- العقل يا أخي الصالح ، قالت تيريزا مشددةً على حروفٍ ثلاث: ع ق ل ، العقل فقط .
- أيها الأخوة تعرفون ابن سينا معلمي وصديقي ، قال الفيلسوف جابر من سمرقند ، وتعلمون أن الصفتين الرئيسيتين اللتين عرف بهما هما :

مالك جميع العلوم ، وداعية العقل

- لم يك ذلك صدفةً ، بل استحق هذا اللقب كما يستحق صديقنا و معلمنا أبو العلاء صفتي فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة . قالها الراعي الصالح .
- لقد كان معلمي ابن سينا يرى أن تجاربي في الطب متممةٌ لطبه ، وآرائي مكملةً لآرائه فيما وراء الطبيعة ، وكان معجباً بحججي ، غير أنه كان يأخذ علي نشر أفكاري بكثيرٍ من الجهر ، في مجتمعٍ لا يرغب حاكموه برؤية أو سماع من يعلن أفكاره في العقل والعلم ، فكلفني هذا العيب عدة إقاماتٍ في السجن ، وثلاث عملياتٍ جلدٍ أمام

الملأ ، كان آخرها في ساحة سمرقند العامة ، وكان عدد السياط التي انهالت علي فيها مائة وخمسين سوطاً - ضحكٌ من الجميع - ولم يرض اللئيم بجلدي في ساحة سمرقند إلا بحضور جميع أهلي وأقربائي .

- تستحق ، قالها أبو العلاء ضاحكاً ، أتعرف لماذا ! لسببٍ واحدٍ فقط ، وهو أنك تعرف مقدار لؤم أبي نصر خان صاحب طبرستان - ضحكٌ من الجميع - وتعرف أن القتل عنده هواية ، لكن أبا طاهر قاضي قضاة سمرقند أنقذك منه كما سمعت !
- أجل يا صديقي ، وكأنك كنت معي !
- لا سمعت بالرواية من أحدهم عندما كان يزورني في المعرة . وليس ذلك فقط أيها الأخوة ، تصوروا : قام أبو نصر بحرق وتدمير جامع بخارى الكبير عن آخره ، بعد أن اختبأ فيه بعضٌ من معارضيه المسلحين .

- أبا العلاء ألست القائل: الأمراء هم أجراء الأمة ! سألت ماري .
- طبعاً ، رد أبو العلاء ، الأمراء والملوك والحكام ، يجب أن يكونوا خادمين لشعوبهم ، وإلا لا يكون الشعب مطيعاً لهم .
- نحن من أصلٍ واحدٍ ، أوافق الأخ شنودة تماماً ، و العقائد كلها تنهل من مصدرٍ واحد ، كذلك أوافق الراعي الصالح كليةً ، لكن كيف نشأت العقائد ، وما الذي حدث لتتوزع وتتعدد إلى أديان وطوائف بلغت المئات ! سأل الأخ سمعان من أنطاكية .
- يا صديقي ، رد موسى من دمشق ، المنشأ الوحيد للأديان هو الله الذي كلم موسى وأعطاه الشريعة .
- أجل ، وهو الذي نفخ من روحه عز وجل ، في مريم عليها السلام ، قال الشيخ عمر من مكة ، وأسرى بنبيه ، وعرج به إلى السماء .
- ألهذا قلدته يامعلم في رسالة الغفران سأل فيليب !
- ليس تقليداً كاملاً يا صديقي ، ربما في الشكل أجل أما في المضمون ، فهو مختلف . رد أبو العلاء .
- أرغب أن نؤجل الحديث حول رسالة الغفران ، قال الراعي الصالح ، ونكمل بحثنا في العقيدة . لقد أعطى كلٌ من الأخ موسى ، والشيخ عمر ، رأيهما ، فما رأيك أخ لوقيان بذلك ؟

- مع تقديري واحترامي لما بحث حول العقيدة ، أرى أن الإنسان بدأ بالتعرف على محيطه ، عندما ألحت مداركه العقلية عليه ليتعرف ويكتشف العالم المحيط به . بدأ ذلك منذ نشأة الإنسان الأولى في الكهوف، وتشعب مع خروجه من الكهوف ، ثم تأكدت أشكال العقيدة والعبادة مع استقرار الإنسان في البيوت وبناء القرى ، فجاءت العقائد الدينية للإنسان متناسبةً مع التطور الاقتصادي الاجتماعي وبالتالي الفكري للإنسان .
- جيد هذا الكلام ، قال يوسف ، متابعاً : يمكن القول إذاً : إذا أراد البشر استقراراً وسلاماً في الأرض ، فيجب أن يكون التسامح لا التعصب ، هو معتقدهم . فالانتماء إلى أية عقيدةٍ يترافق معها رفض العقائد الأخرى ، وهذا بحد ذاته مشروع تطرف .

تابع أعضاء الجمعية الإثنا عشر نقاشهم ، تحدثوا في الفلسفة الإنسانية إجمالاً ، تطرقوا إلى تطور هذه الفلسفة منذ نشأتها الزراعية الأولى في بابل ، عشتار، جلجاميش ، أتنابشتم ، تموز، البعل ، أدونيس .... مروراً بالفلسفة الإغريقية، وصولاً إلى المدارس الفكرية الحديثة في الشام وبغداد ، وبالأخص الحركات الإسلامية الصوفية ، البعيدة عن أي تعصبٍ عرقيٍ أو طائفي ، و المنفتحة على القلب والعقل . تأخر النقاش طويلاً بين الأخوة الأعضاء ، كان موعد مغادرة الشمس إلى البحر قد قرب ، دعا الراعي الصالح أخوته إلى نزهةٍ على الأقدام باتجاه شاطيء اللاذقية ، يريحون عقولهم فيها قليلاً ، قبل العشاء .

العشاء السري

قبل صياح الديك ثلاثاً ، وضع الإخوة الإثنا عشر في حساباتهم أنهم سيصلون إلى اتفاقٍ واضحٍ في قضية العقل والدين أثناء عشائهم السري في دير الفاروس باللاذقية ، وسيقرون كما قال فيلسوف الشعراء- رغم اختلاف عقائدهم - أن :

لا إمام سوى العقل

كانت نظرية العقل عند أبي العلاء متقدمةً عن الفكر الإنساني بسبعة قرونٍ ، ولم تظهر أشباهها في أوروبا إلا ابتداءً من القرن السابع عشر، ثم عصر التنوير والعصر الحديث. حيث أن العقل كي يصل إلى أعلى العمارة

يلزمه أن يبني بجهدٍ كبيرٍ سلماً متيناً من أجل ذلك. أما كي يصل إلى الفضاء أو القمر ، فيلزمه ابتكار سفينةٍ فضائيةٍ .

أما الدين فيوصلك إلى قمة العمارة ، والقمر ، والسماء السابعة والسبعين ، عبر معراجٍ هوائيٍ اسمه أجنحة الآلهة ، وهو نائمٌ في فراشه يرتل : " إن الله على كلّ شيءٍ قدير ".

أما حين يتحدث فيلسوف الشعراء عن العقل، فإن عقله في كثيرٍ من الأحيان، يقوده إلى الشك ، ويقدم العقل على ما سواه ، وخاصةً على الدين .

- أما أنت القائل ، سأل موسى :

إثنـــان أهـل الأرض: ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخـــــر ديّنٌ لا عقل له؟

- أجل ياصديقي ، رد أبو العلاء ، وأقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيـــرا في صبحه والمساء

- وأين الدين يا أخ أبو العلاء ،اعترضت تيريزا ، أنت تهاجم الأديان !

- إذا كان الدين واحداً يا أختاه ! لماذا كل هذه الطوائف والمذاهب؟
- هل يعني ذلك أنك غير متفقٍ مع طوائفنا ! سألت ماري !
- الاتفاق شيء والعقيدة شيئٌ آخر ، الإيمان شيء وما يقوم به البعض من شعائر دينيةٍ باسم الطوائف شيءٌ آخر ، وغريب أحياناً ، اسمعي إذاً :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إلهٌ يضام ويُظلمُ حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إلهٌ يحب رشاش الدماء وريح القتر
وقومٌ أتوا من أقاصي البلاد لرمي الحجار ولثم الحجر
فواعجبي من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر

- لم يسلم أحدٌ من لسانك يا معلم ، قال جابر ، وتلومني على جرأتي !
- لا يا جابر لا ألومك ، ألوم الظرف الذي وجدت فيه أنت ، ربما كان ظرفي أفضل فقط ! وبالنسبة لي فإنني :

أعتقد بما لا يعتقدون وأفكر بغير ما يفكرون

- أنا معك كليةً يا معلم . لقد عشت عن كثب الخلافات التي كانت قائمة في عهدك بين الفلاسفة و معتنقي العقائد المختلفة الذين اتهموكم كفلاسفة بالإلحاد والكفر . ومعروفٌ عنك أنك عشت أفكار الفريقين واتصلت بهم .
- نعم صديقي لقد استقيت من الفلاسفة بعض آرائي ، فقد كنت أريد معرفة الحق ، وهذه هي غاية الفلسفة العملية .
- إن الدارس لشعرك ، تابع سمعان الأنطكلي ، يقف حائراً متردداً لا يدري بماذا يحكم على فلسفتك هذه التي تتحدث عن العقائد والتعاليم الدينية، أما فلسفتك الخلقية فهي قويمةٌ لا تناقض فيها ، فأنت تعتمد فيها على العقل الحكيم الحر الذي تعتبره أسمى ما وهب للإنسان.
- لقد تناولت في فلسفتك الاخلاقية - تابع شنودة المصري - الانسانية كلها، وربطت الأخلاق بالدين لأن الدين لا نفع له إذا ساء الخلق، أي إننا لا نستطيع التفريق بين الفاسد الذي لا دين له ، والفاسد المتدين .
- صدقت أبتِ :

فإذا تَساوت في القَبيحِ فِعالُنا فَمَنِ التَّقيُّ وَأَيُّنا الزِّنديقُ؟

- وكما وصل لي فإنك لم تك تقف عند هذا التحدي ، بل تتجاوزه إلى الإيمان الفطري والعقلي بربط الأخلاق بالدين،تابع الراعي الصالح .
- صدقت أيها الصالح الراعي أبتي فأنا :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شاد

وشبيهٌ صوت النعيَ إذا قيـ س بصوت البشير في كل ناد

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد

سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

- مع ذلك فقد اتهمت بأنك زنديق ،اعذرني سيدي على التوصيف ، قال عمر المكاوي ! فبماذا ترد على من اتهمك .
- أولاً لا أرد على من يتهمني، فلا أراهم إلا دوني ، يمكنك أن تعتبرني زنديقاً ، ومغروراً أيضاً ولن أتضايق ، لأنني كنت قريباً من الناس و من المجتمع ، أحس أحاسيسه وأفهم معاناته وأصر على أن أحداً لا يستطيع مجاراتي :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

- وأرجوك اعذرني أخي عمر من مكة ، إني أعتبر الفضيلة غايةً في حد ذاتها ، واسمح لي بكل احترامٍ لشخصك ، أن أسخر من ممارسات الحسنات والثواب التي تمارس بعقليةٍ نفعيةٍ بدائيةٍ همها الربح ، واسمح لي أن أسخر من فكرة العفو عن الرذيلة وعن الإثم باللجوء إلى مناسك كالحج أو الصلاة أو الصوم ، لأن ذلك يجعل الإله شريكاً في ارتكابها .
- لكن سيدي اعذرني أيضاً ، قالها موسى الدمشقي ، هل وصل بك الغرور حد تأليف كتابٍ مقدسٍ !
- ألا ترى أن الكتب المقدسة التي نسخت كلام الرب لموسى ، وكلام الرب لجبريل ، ومنه إلى محمد ، وتبني الرب لعيسى ، ومنه إلى تلامذته ! قد كتبها بشرٌ مثلنا ، لهم عقولنا ولهم فلسفتنا و فكرنا ؟

لم يصنع أبو العلاء المعري كوميدية إلهيةٍ فحسب
بل ترك أثراً عميقاً في الأدب والفكر الإنسانيين

قبل صياح الديك ثلاثاً ، وضع الأخوة الإثنا عشر في حساباتهم أنهم سيصلون إلى اتفاقٍ واضحٍ في قضية العقل والدين أثناء عشائهم السري في دير الفاروس باللاذقية ، وهم الآن يتابعون حوارهم حول رسالة الغفران لأبي العلاء ، كانت نقاشاتهم حادةً ، أو دعونا نصفها بالضاجة كضجة أبي العلاء ، تابعها الراعي الصالح ضاحكاً :

- أوصلت البلة إلى ذقوننا يا أبا العلاء ، من خلال رسالتك للغفران ، ليغفر الرب لك ، لكن ماذا فعل البابوات لك لتضعهم في الدّرك الأسفل من جهنّم ، وكأن ثأراً بينك وبينهم - ضحكٌ من الجميع -
- مشكلتي يا الصالح ، وربما ميزتي ، أني أميز بين رجال الدين الحقيقيين المتسامحين غير المتعصبين ، وأولئك الذين يكون الدين عندهم وظيفةً للجاه والمال .
- في هذه أنت محقٌ يا شيخنا ، أردف الشيخ عمر من مكة . كلنا نعاني من هؤلاء .
- شيخنا يا شيخ عمر ! ضحك من الجميع .
- والله أقصد كبيرنا ، ولا ألمح إلى شيء !...

بين النزول إليه والصعود إلى السماء ! أين الله!

في أساطير أوغاريت ينزل الإله بعل إلى العالم الآخر في نهاية الصيف ، ويبقى هناك حتى الربيع التالي ، في هذه الفترة يحكم الأرض شقيقه الإله موت ، في تجسيدٍ لدورة الطبيعة في الحياة والموت .

إن رؤية عالم الآلهة والنزول إلى العالم الآخر ، أو الصعود إلى السماء ، وردت في أكثر من مكانٍ ، بدءاً من أساطير بابل ، وسومر وأوغاريت .

وكان البابليون يقومون بالعبور إلى العالم الآخر بواسطة قارب ، ودخلت هذه القصة في الأدب الإغريقي من خلال مسرحية الضفادع لأريستوفان .

أما في التوراة ، فكان ذلك يتم من خلال صعود موسى ماشياً ، بلا أية وسيلةٍ للقاء الرب ، بينما استخدم محمد البراق في الإسراء والمعراج .

الصعود إلى السماء والنزول منها ، وفي شكلٍ متطورٍ زمنياً ، كان من خلال نماذج ثلاثة :

1- رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (973- 1057)
2- الكوميديا الإلهية لدانتي أليغري (1265 – 1321)
3- الفردوس المفقود لجون ملتون (1608 – 1674)

رسالة الغفران

تعتبر رسالة الغفران رداً قاطعاً من أبي العلاء المعري على منتقديه من الأدباء والفلاسفة ورجال الدين الذين ، اتهموه بالزندقة والالحاد والكفر واتباع ملة البراهما الهندوسية التي تقدس الروح ولا تأكل لحوم الحيوانات.

كان رد ابي العلاء من شقين : الشق الأول هو الخيالي، ويتصور فيه المعري ابن القارح في رحلةٍ إلى العالم الآخر ، ولكنها رسالةٌ مرفوعةٌ إلى القادر القدير يستغفر فيه عما تقدم من ذنبه وتأخر، يطلب فيها الغفران لنفسه

ولابن القارح من الله سبحانه وتعالى ولغيره من الشعراء ليغفر لهم زلاتهم وخطاياهم .

أما الثاني فينطوي على رد أبي العلاء المعري على المسائل التي تؤرق ابن القارح، وهي قضايا فكرية وعلمية وتاريخية ودينية، يبدي فيها المعري رأيه وشعره وعلمه.

الكوميديا الإلهية

الموضوع الرئيسي للكوميديا هو الحياة بعد الموت، ودانتي على عكس ابن القارح هو الشخصية الرئيسة فيها.

يقول مؤرخو الأدب الأوروبي أن دانتي تأثر بشكلٍ كبيرٍ بأبي العلاء، من خلال الفكرة والمنهج ، حيث تخيل الشاعران الشعراء السابقين لهما في العالم الآخر يستغفرون ربهم من ذنوبهم،في إطارٍ متخيلٍ ومدهشٍ .

فالمعري يتصور في رحلته الشاعر ابن القارح في رحلةٍ إلى العالم الآخر .. ودانتي يصحب الشاعر الروماني فيرجيل إلى العالم الآخر .

إن شعور الأديبين، المعري ودانتي، بالذنب بالشك في الدين والديانة، ربما يكون سببا لانجاز عملٍ أدبي عظيمٍ يستغفران فيهما رب الكون من الذنوب....

ما أغرب بشر هذه الأرض ! أبصرهم أعمى !

تحرك الموكب من أمام مقر إيكاردا ، لوح الجميع لسامي وفريقه ، متمنين التوفيق لهم في عملهم المضني ، كانت ليز تزداد قناعةً بأن ماتقوم به وما يقوم به المسلحون ، والداعمون لهم محليين أو عالميين هو خطأٌ كبير ، وكان بابلو يتقدم شيئاً فشيئاً للانتماء إلى هذا الشعب السوري ، ومن كثير حبه لحنا ، كان يقول له دائماً :

- أرغب أن أكون منكم سوري .
- أنت منا فعلاً بابلو ، كان حنا يردد ..
- أيحق لي أن أرغب أيضاً ؟ تابعت كلين هارت .
- ليز ، رغم ما وقعت فيه من أخطاء ، فإنك اليوم أفضل من بعض السوريين .

تطلع حنا بتفحصٍ إلى سائقها ، لا يبدو أنه يستمع إلى حوارهم ، وإن كان يستمع أو يسمع ، فلا يبدو أنه يفهم شيئاً من أنكليزيتهم . أدركت ليز مغزى نظرة حنا ، فطمأنته :

- حنا ، أبو يوسف طفلٌ كبير،لا يغرك شكله، أبو يوسف أول من تعاملت معهم بعد وصولي إلى منبج ، وأول من عمل معي بكامل الإخلاص ، هو بالأصل يزيديٌ لا يعرف عنه أحدٌ ذلك سواي ، كانت ابنته في العاشرة، وفي منتهى الجمال ، اسمها راميتا ، كانت ضفيرتها ما تزال مثلما ضفرتها أمها . أخذوها في الليل ، ولم يُرجعوها إلا في الصباح ، بالأحرى رجعت وحدها متهالكةً لا تستطيع المشي ، كانت تمشي بصعوبةٍ والدم يسيل على قدميها. أصيبت بالحمى ، وبقيت فترةً طويلةً وهي تنظر حواليها مرعوبةً من أن ترى أحداً من مغتصبيها الوحوش،حضنتها أختها الكبرى كلوديا، وصارت تمرضها وتساعدها ، كانت راميتا تكرر كل دقيقةٍ وعلى مدى شهرين كاملين :

آه يا أمي ..

وكان أبو يوسف كل دقيقةٍ يكرر:

آه يا ابنتي

- وماذا بعد يا ليز !
- في ليلةٍ حزينةٍ أفاق ولم يجد الفتاتين ، لقد فقدهما معاً ، لم تستطيعا تحمل الذل فذهبتا ، غابتا لا يدري أحدٌ أين ! وبقي يتألم وحيداً . عندما علم عمر بهروب ابنتيه ، أحضره إليه ، وسجنه ، بغية معرفة مكان الفتاتين ، كان أبو يوسف صامتاً كتمثال المعري ، ولو قتله عمر ماكان ليتألم ، هل تألم تمثال أبو العلاء ؟ أراد عمر قتله أكثر من مرة جوعه وعذبه ، لكنه لم يمت ! مأساته جعلتني أقف إلى جانبه وأطلب من عمر الرحمة له ، طبيعيٌ من امرأة أن تتعاطف مع رجلٍ في هذه الحالة ، وأن تقف معه ، وترجو عمر أن يرحمه ، عمر الذي لا يستمع إلى أحدٍ سوى إلى عقله البدائي الأجوف ، عمر الذي يعتقد أن علم وتاريخ وحضارة الكون كما أوردها كتابه المقدس هي الفعل الحقيقي الوحيد في هذا العالم ، ليس من السهل إقناعه !
- لكن الحب يصنع المعجزات ، علق حنا .
- إن الحب يصنع المعجزات ، ضحكت ليز من قلبها ، وهي تتذكر تلك الليلة ، ليلة السحر التي جعلتها تضع أوراقها كلها ، بما فيها ورقة التوت في سلة حنا ، وهذا ما عولت عليه ، وطلبت من عمر أن يعفو عنه ، ويتركه يعمل تحت إدارتها ، وبمعرفتها ، لحاجتها إليه ، فقد كان سائقاً معروفاً ، لذلك صار سائقها الخاص ومرافقها، وكان من طرفه جديراً بهذه الثقة ، وارتاح شخصياً للتعامل مع امرأةٍ وليس مع رجل ، لذلك كان يحبها بشدة ، فقد عوضته عن بناته ، وجعلته يتحمل فقدانهما، صارت بنته وثقته .هو لا يتحدث أيضاً إلا مضطراً لإجابةٍ ما ! أكدت ليز .
- ولم ير ابنتيه بعد ذلك ؟ سأل بابلو !
- أبداً ، لكنه سمع خبراً ، ويبدو أن الخبر، رغم قساوته ، جعله يرتاح ، فقد اكتشفت راميتا أنها حاملٌ إثر اغتصابها ، ويظهر أن الجنين كان في شهره الرابع أو الخامس ، مما يصعب التخلص منه ، ولرعبها أن ترى فيه أحداً من مغتصبيها،أصرت على أن تقتله ، نعم نعم تقتله ، هل تتخيل أماً تقتل طفلها ؟
- أتخيل ، رد حنا . أنا معها في ذلك إذاً قتلته ؟

- أجل ، لكن المصيبة كانت أكبر ، فقد فعلت ذلك دون أي حذر ، فأسقطت نفسها على درج بيتٍ ، وبدل أن يموت الجنين في بطنها ، أصيبت برأسها وماتت ..
- لست معها أبداً رد بابلو ..
- لكن أبو يوسف سر لموتها .
- هل كرهها إلى هذا الحد ؟
- لا بابلو ، على العكس تماماً ، كان يردد عبارةً واحدةً فقط :
- ارتاحت روحك .
- يبدو أننا سنحتاج أبا يوسف كثيراً في مشوارنا التالي باعتباره ثقتك المطلقة .

عندما وصلها الموكب ، كانت شمس المعرة تغرب وتنقلها إلى الظلمة .

المعرة وريثة الظلام أو رهينة الظلام كما عبر عنها أبو العلاء المعري من خلال ظلمته الجسدية ، التي استعاض عنها برؤيا وبصيرةٍ لم يصلها غيره حتى الآن .

كان الموكب يتقدم من وسط المدينة،حيث كان أميرها بانتظارهم، كانت دعوته لتناول الطعام لا رد لها ، وكان طعامهم دسماً لم يتعوده حنا وبابلو ، الكثير من قشطة الحليب واللبن والأجبان المختلفة. لم يك أميرها خائفاً أو حذراً ، روى لهم ببساطة كيف قام بقطع رأس أبي العلاء :

- لقد أكد لي عمر أنكم تنوون زيارة كلب المعرة وزنديقها ، أعمى البصر والبصيرة ، أعتذر منكم ، فقد رمينا رأسه في القمامة ، لذلك ستقتصر الزيارة على حفلة شاي عند قبره .
- لا نريد أكثر من ذلك ، كما سمح لنا الأمير عمر ، قال حنا شاكراً ، تحرك الجميع إلى المعرة الحزينة ، و يزيدها حزناً ضوء القمر ، وكأنها عادت إلى عام 1057 للميلاد ، عندما فقدت شمسها جسداً ، لكن روح هذه الشمس التي كانت قلقةً على الدوام لا تغيب ، وستبقى تضج على العالم حتى آخر الأيام . وصلوا وسط المعرة ، عند القبر ترجل حنا وبابلو وليز ، ليز بلا انطباع ، بابلو قلقاً ، أما حنا فقد بدأت روحه رحيلاً في سماء المعرة تعانق فيلسوف الشعراء .
- هل صحيح أن المعري هو من كتب شاهدة قبره ؟ سأل بابلو !
- هو من صاغها أجل ، لقد أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

- ماذا يعني ذلك ! سأل بابلو !

يبدو أنه لم ير صبيةً جميلةً بجمال ليز ، حتي يتزوجها ، فرفض فكرة الزواج كليةً ، غامزاً إلى ليز ، التي لم تلتقط الإشارة ، تبسم الجميع ، عادوا إلى سيارتهم ، تحرك الموكب ، يبدو أن ليز لم تفهم تماماً الفكرة ، مع أن حنا شرحها بالإنكليزية ، فأوضح لها أن المعري رفض أن يتزوج أو تكون له أية علاقة مع امرأة ، وأضاف أنه لم يكن يرى ، فلما عاد إلى المعرة من بغداد لزم بيته وانصرف إلى التصنيف والتدريس ومراسلة اخوانه وسمى نفسه "رهين المحبسين" ويعني بذلك لزومه البيت والعمى، ويبدو في أواخر حياته أنه أطلق على نفسه "رهين المحابيس الثلاثة" حيث اعتبر أن النفس ، أو الروح ، هي حبيسة الجسد ، لذلك كانت روحه تنطلق بعيداً ، حتى وصلت إلى السماء في " رسالة الغفران ". وأتصور أنكما تعرفان "الكوميديا الإلهية " لدانتي !حيث يعتقد معظم النقاد أن دانتي قد قرأ " رسالة الغفران " للمعري قبل أن يكتب "الكوميديا الإلهية " أما الجسد فيرى المعري أن الأرض التي نمشي عليها ،والتراب الذي نمشي عليه ، من بقايا جسدنا ليس إلا :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

- إنه يتشابه مع الشاعر الفارسي الشهير عمر الخيام ، أردف بابلو ، والذي يقول :

فـــكم تـوالى اللـــيل بعد النهـار وطال بالأنـــــجم هذا المدار

فامش الهـوينا ان هـــــذا الثرى من أعين ساحـــرة الاحورار

لم تشأ ليز أن تكون أقل ثقافةً منهما ، فقد تذكرت قولاً مشابهاً للكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكيس ابن حضارتها الأوروبية :

- أليس غريباً أن تتشابه أرواح ثلاثةٍ من كبار الأدباء والمفكرين في العالم ، وكل واحدٍ في مكانٍ وعصرٍ مختلف ! إن نيكوس كازانتزاكيس اليوناني ، يقول في هذا المجال شيئاً مماثلاً :

" كل شبر من الأرض التي تطأها قدماك هي قبر

ويمكنك أن تسمع أنين الموتى "

- جميل ، رد بابلو ، الأفكار لا موطن لها ، ولا جسد حتى ، هي تهويمات أرواحٍ قلقةٍ ، توجد في أي زمانٍ ومكان .

وصل الموكب إلى الطريق الدولي دمشق- حلب ، أبطأ أمير المعرة من سرعته ، توقف الجميع ، أرشدهم إلى الطريق الصحراوي المؤدي إلى تدمر ، وغادروا المعرة .

***

5
المحاولة الخامسة للبقاء على قيد الحياة

لم أكن قد متّ بعد .

شعوري بالموت لم يعد مخيفاً ، ولم يعد الشعور بالموت والفقدان مسيطراً !لكن ما إن هيمن وسيطر وطغى وتجبر صوت (الشيخ الغضنفر أبو العينين) الجهوري ، حتى سكت الجميع ، وأنا منهم طبعاً ، فتابعت ما يقوله هذا المحب ، حيث يكثر المحبون في مناسبات كهذه :

تقدم الشيخ ، بدأ بالبسملة فالفاتحة ، وتعداد مناقبي ثم تابع...

- يا أمين يا بن ساكت المنكود، إذا جاءك الملاكان الطاهران قل لهما : إني مسلمٌ ابن مسلمٍ ، وقد كنت أصلي وأزكي ، وأصوم رمضان ، وأعطي للأرملة واليتيم ، وأساعد الفقير والمحتاج، وكنت أنوي الحج إلى بيت الله الحرام صادقاً إذا سمحت السلطات الملكية السعودية !

قلت في سري :

- الله يجزيك الخير يا الشيخ الغضنفر ، لقد بيّضتها معي في آخرتي ...

أما في الحقيقة فقد كان الشيخ الغضنفر أبو العينين يحاذر المرور بقربي ، وينعتني بالشيوعي الزنديق الملحد العلماني ، فقط لأني كنت أنادي ، بمجتمعٍ علمانيٍ تتساوى فيه المرأة بالرجل،وأن تحكم هذا المجتمع القوانين المدنية . ترى لو سمع آرائي المتطرفة في المجتمع والدين، ماذا كان فعل ؟!

المهم : تابع وصف أخلاقي الحميدة ، ومساعدتي لأبناء الحي والجنة مثواي ، وقد حسبت للوهلة الأولى أنه يشتمني في سره ، لكن معرفتي باستقامة الشيخ الغضنفر أبو العينين جعلتني أطرد هذه الفكرة من رأسي الذي تشوش ، وكأنما أغلقت كل الطرق التي تؤدي إليه !

***

سأغلق كل الطرق التي تؤدي إلى روما - حن بعل

سأغلق كل الطرق التي تؤدي إلى روما - زنوبيا

سأغلق كل الطرق التي تؤدي إلى روما - خالد الأسعد

تعتبر مملكة تدمر
من أهم الممالك السورية القديمة
التي ازدهرت في عهد ملكتها زنوبيا

ظهر اسم تدمر في المخطوطات البابلية ومعناه
" البلد الذي لا يقهر "

كانت مدينة تدمر الأثرية عاصمة مملكة تدمر
من أجمل المدن وأكثرها تطورا بمبانيها الفخمة
وشوارعها وتنظيمها وتعد العاصمة التجارية
وواحدة من أكثرها ازدهارا

بدأ حكم ملك الملك التدمري أذينة عام 258م
ثم قامت زوجته زنوبيا بالوصاية على ابنهما وهب اللات
واتخذت معه ألقاب الأباطرة
واحتلت مصر والأناضول وبلاد الشام
مما وضعها في حالة صدام
مع الإمبراطور الروماني أورليان
الذي غزا تدمر عام 272م
وأسر الملكة زنوبيا التي توفيت حوالي 274 م .

أصنام تدمر في قبضة الإسلام

- دخل تنظيم الدولة الإسلامية إلى تدمر في 23 أيار 2015 .
- تم قطع رأس عالم الآثار خالد الأسعد يوم الثلاثاء 18 آب 2015 .
- استعاد الجيش السوري تدمر يوم الأحد 27 آذار 2016 .
- دخل التنظيم تدمر ثانيةً يوم السبت 10 كانون الأول 2016 .
- استعاد الجيش السوري مدينة تدمر نهائياً 2 آذار 2017 .
- دمر التنظيم أهم معالم تدمر، معبد بل في أيلول 2015 .
- ودمر قوس النصر ، في تشرين أول 2015 .
- وفي عام 2016 دمر التنظيم معبد بعلشمين .

في 19 نيسان 2016
تم صنع نسخةٍ من قوس النصر
في ميدان الطرف الأغر في العاصمة البريطانية لندن.

***

كل الطرق تؤدي إلى تدمر

لم أكن قد مت بعد .

كنت أعمل في دائرة آثار تدمر قبل اجتياحها من قبل التنظيمات الإسلامية ، وكنت حينها أساعد في نقل ما يمكن نقله من آثارها خارج المدينة ، انتهيت من تقديم آخر مجموعةٍ من القطع الأثرية الصغيرة للمجموعة التي كانت تستعجلني للخروج من المدينة قبل دخول التنظيم إليها ، كان الجميع بانتظاري وهم يستعجلونني، أشرت لهم ألا مشكلة ، ألحوا :

- ستقع في المتاعب كعادتك يا أذكى واحد في العالم . ضحك البعض ، كانوا يستهجنون أفكاري ، ويعتبرونها متطرفة ، وينعتونني مزاحاً بأذكى واحد في العالم .
- لا تخافوا سأجمع بعض أغراضي الشخصية والوثائق الضرورية ، ثم ألحق بكم على جناح السرعة .

يبدو أن جناح السرعة لم يكن كافياً ولا نافعاً ، بل كان جناحاً بطيئاً ً أثبت أني أغبى واحد في العالم ، فبعد أن أخذت ماهو ضروريٌ من أغراضي الشخصية ، وفتحت الباب مستعجلاً الخروج من بيتي ، في الطرف الشرقي الشمالي من مدينة تدمر، فوجئت بالسيارات رباعية الدفع، والرايات السود تسد الطريق أمام بيتي ، و تقطعها :

- شرف !
- شرفت بلا ولا كلمة .
- تفضل !
- تفضلت إلى السيارة وبكل الاحترام وصمت .
- تورط معنا ! بعد أن عرفوا طبيعة عملي !
- تورطت ، وبكل بساطة ، فليس أمامي طريقٌ ثالث ، لأن كل الطرق تؤدي إلى نبش آثار تدمر .
- أحضر لنا الذهب .
- ومن أين ؟ لا بد من الاعتراض هنا ، فكيف ستقنعهم أن لا ذهب هنا ! ومن يومها وأنا أعمل معهم ، متورطاً بلا حركة بلا كلمة ،

بلا أية محاولةٍ للهروب أو للاختفاء ، فأنا أسيرهم ليلاً نهاراً ، ويجب أن أحضر لهم الذهب !

ويبدو أن تنظيم الدولة الإسلامية صارت لديه الخبرة الكافية في معرفة قيمة القطع الأثرية ، من خلال تجاربه في مناطق أخرى شرق سوريا وشمالها . فكان يراقب عملي ويطلب مني التفتيش عن القطع الأثرية الثمينة في كل مكان، وليس لدي أي مجالٍ للاعتراض! و حيث لا مجال للعب معهم وإلا !

بعد شهرين من دخول التنظيم إلى تدمر، لم يستطيعوا إقناع خبير الآثار التدمري خالد الأسعد بالاستجابة لهم ، ومساعدتهم ، وشعروا أنهم بحاجة للمساعدة أكتر، لذلك لم استغرب استدعاء أمير تدمر لي على عجل ، وبما أني أنفذ ما يريدون بكل الرضا ، فقد أكد لي أبو القعقاع الذي أخذني إليه أنه يثق بي، ومعجبٌ بتعاملي معهم ، ويعتبرني مثالاً للانضباط .

- أهلاً بك .

حياني الأمير بلهجةٍ عربيةٍ مختلطةٍ بالتركية أو الأذرية أو الأفغانية ، بصراحة لم افهم منه إلا ما يلزم للتنفيذ فقط .

- أهلاً بكم سيدي . لا بد من تسييده وإلا !
- أنظر يا عبد رب المسيح - نسيت أن أخبركم ان اسمي كان عبد المسيح ، لكن الأمير يرفض مناداتي بهذا الاسم ، لأننا عبيدٌ لله فقط - إن ثقتي بك كبيرة ، أنت تعلم أن خالد الأسعد لا يتعاون معنا ، مع ذلك فإن صبري لم ينفذ بعد ، وتعلم جيداً عند نفاذ صبري لن يكون سعيداً ولا أسعد .
- حاضر سيدي ، أسعد بكلامك سيدي ، تفضل سيدي .
- وقع اثنان من زملائكم الأثريين في يد أمير منبج ، وقدما له خدماتٍ جيدة، وقد أرسلهما لي لمساعدتي لمعرفة الأمير بأهمية وغنى تدمر . هما في طريقهما إلينا ، ترافقهما زوجة أمير منبج ، لذلك لا تتأخر وانطلق بسرعة لتلاقيهما عند القلعة ، يمكن أن يصلاها قبلك ، أنا متأكد أنك ستنفذ مهمتك معهما هنا بشكلٍ جيد، أبو القعقاع رافقه مع حارسين .

- حاضر سيدي . قالها أبو القعقاع بلهجةٍ لم أفهمها لكني فهمت معناها !

أبو القعقاع هو رجل المهمات الصعبة والخاصة عند الأمير ، طوله متران عرضه مترٌ ونيف، من أصلٍ سوداني، ليس أسمر بل أسود ، ربما أزرق ، لا يختلف لونه عن لون ثيابه إلا قليلاً ، ويظهر الاختلاف بين اللحم والقماش وليس من خلال اللون .

مر موكب الأثريين بالكثير من المسلحين ، لهجاتٌ أمميةٌ متعددة ، لغاتٌ لم يعرفوا البعض منها،كلماتٌ لم يستطيعوا تمييزها،مع أنهم يعرفون لغاتٍ متعددة. اجتازوا بضع مدنٍ صغيرةٍ قبل أن يصلوا فجراً إلى قلعة تدمر التي تطل على المدينة ، حيث كنت بانتظارهم أمام مدخل القلعة ...

- أهلاً بك وبضيوفك سيدتي ، أنا عبد رب المسيح من دائرة آثار تدمر.
شكرتني زوجة أمير منبج ، قدمت ضيوفها :
- السيد حنا والسيد بابلو ..
- أهلاً بكما ، أنا عبد رب المسيح .
- لأول مرة أسمع اسماً كهذا ، هل هو عبد رب المسيح ، أم عبد المسيح ، سأل حنا ؟
- لا يا أخي في الإسلام نحن عبيدٌ لله فقط .
- أجل أجل . أهلاً بك ..
- على الرحب والسعة ، هل زرتم تدمر من قبل ؟
- لا رد الثلاثة .
- إذاً سنبدأ عملنا بشكلٍ احترافيٍ ، حيث سأعرفكم في البداية بشكلٍ بانورامي على تدمر من هنا ، ثم نقوم بجولةٍ تتعرفون عليها بالتفصيل ، قبل أن يستقبلكم الأمير على الغداء .
هذه تدمر و يظهر من هنا بشكلٍ واضحٍ الشارع الطويل ، وفي شماله التترابيل، أو ما يسمى بقوس النصر ، وإلى الشرق معبد بعل شمين .
- وأين معبد بل ، سأل حنا ؟
- إنه أمامنا مباشرةً ، أنظر هناك في العمق ذلك البناء الكبير ...

معبد بل

تدمر 270 للميلاد

موسيقا هادئة مع خيوط الفجر الأولى ، أشعة الشمس تنير المعبد من الخارج في لقطة بانورامية عامة ، والطرق المؤدية إلى المعبد يملؤها التدمريون ، في طريقهم إلى الاحتفال السنوي الكبير برأس السنة السورية .

يتوضع جمهورٌ كبيرٌ داخل القاعة الرئيسية الواسعة ،رجالٌ ونساءٌ وأطفال ، في زاوية المعبد مكانٌ مخصص للأضحيات ، جملٌ ملقىً على أرض المذبح ، حوله أكثر من شخص بانتظار تنفيذ أوامر الذبح ، الجمهور يتطلع إلى المدخل الخاص بالملكة منتظراً دخولها ، تبدأ موسيقا الحرس الملكي بإعلان وصول زنوبيا ملكة تدمر، تدخل بثوبها القرمزي محاطةً بوصيفتين من اليسار واليمين، وبالحاشية الملكية، وتأخذ المكان المخصص لها ، تتقدم منها الكاهن الأكبر لمعبد الشمس ، تأذن لها ، تومي الكاهن بيدها للرجال قرب المذبح بتنفيذ الشعائر، تنطلق موسيقا صنوجٍ صاخبة مع اقتراب الرجال من رقبة الجمل ، يسيل الدم في المجاري المخصصة ، يطغى اللون الأحمر .

معبد أليسار المقدسة

قرطاج 256 ق.م

رحيلٌ بطيءٌ للون الأحمر ، يتحول إلى ضوءٍ خافتٍ ، تبعثه قناديل الزيت الفخارية والنحاسية ، التي تتوزع المعبد . يمتد الضوء إلى باب المعبد ، حشدٌ من الزوار الاستثنائيين للمعبد ، ينقسم إلى مجموعتين تتباعدان لتفسحا المجال أمام هملقار الذي يقود ولده حن بعل في التاسعة من عمره ، إلى المعبد ، تتكيء يد الأب بحنانٍ على كتفه ، باتجاه المذبح .

تتقدم الكاهن الأكبر لمعبد أليسار ترفع يديها تدريجياً ،ودخان البخور يتغلغل في خصلات شعرها الغجرية ، ويتوزع حولها ، تتسارع حركتها في النهوض ، وتنهض شعرها الطويل إلى ما لا نهاية معها ، تقف بثقة وهدوء ، تدور على نفسها ،مع صوت طبولٍ متسارعةٍ وأنين نايٍ سعيدٍ يغني .. ترقص بقدسية ، تلحق بها سبع فتيات غجريات الشعر المنسكب على كامل أجسادهن ، يدرن معها و يرقصن مع تسارع صوت النايات والطبول ، يزداد دخان البخور تغلغلاً بين شعور الفتيات وحولهن ، يتقدم هملیقار حتى المذبح، حنَّ بعل يتبعه.. ثم تبدأ الحفلة مع صوت الطبول وأنين النايات والفتيات الغجريات يدرن مع الموسيقا ، مع تسارع صوت النايات والطبول يزداد دخان البخور تغلغلاً بين شعور الفتيات .

سو ر يـا

بحر مرمرة 183 ق.م

حنَّ بعل يتذكر المشهد السابق ، ويستعيده قبل محاصرة الرومان له وموته :

كنت واقفاً إلى جانب أبي أمام المذبح ، عندما سكب الخمر وتمم جميع الطقوس، قربني وسألني بمحبة وعطف: هل أريد مرافقته مع الجيش إلى إسبانيا... قبلتُ بفرحٍ عظيم ، بل تضرعت إليه بحمية أن يأخذني معه ، أمسك إذ ذاك بيميني وقربني إلى المذبح، وهناك طلب مني أن أقسم بأن لا أكون أبداً صديقاً للرومان..

معبد بل تدمر

تتقدم الملكة الحشد الكبير ، وهم يحملون كؤوساً صغيرةً من الفضة،تقترب من المجرى الخاص بالمذبح ، يتبعها الجميع ، تملأ الكأس وتذهب باتجاه الباب الخارجي للمعبد ، تخرج ويتبعها الجميع ، يتوجهون إلى الأرض المكشوفة بعيداً عن المعبد، بين الرمال تتوقف الملكة زنوبيا ، تصب الدم من كأسها في أخاديد أعدت من أجل ذلك لسقاية

الأرض كي تنبت . يفعل الجميع مثلها في مشهدٍ قدسيٍ ينتهي بابتهالاتٍ يردد معها الشعب التدمري :

نسقي أرض تدمر لتحيا

يتحول لون الأخاديد المليئة باللون الأحمر إلى الأخضر تدريجياً ، حيث تتابع الحاشية والجمهور الكبير الملكة زنوبيا :

قبل 400 عام قضى الرومان على حضارة قرطاج ، وصبوا الملح في أخاديد أعدت من أجل ذلك كي تموت أرض قرطاج ، وكي لا تنبت ثانيةً . وقبل 300 عام احتلوا سوريا ، ودمروا عاصمتها أنطاكيا . ومنذ 170 عاما نقلوا الخراب والتدمير إلى مملكة البتراء . وهاهم اليوم يحاولون تحطيم تدمر ، هناك فرقٌ كبيرٌ بين حضارة القوة وقوة الحضارة .

تدمر لن تنحني ، ونخلات تدمر لا تنحني :

- الرومان لا يمكن أن يكونوا أصدقاء .

أقسم بالبعل وباللات ألا نكون يوماً أصدقاء للرومان ..

يردد الجميع خلفها :

- نقسم بالبعل وباللات ألا نكون يوماً أصدقاء للرومان

معبد أليسار المقدسة

- الرومان لا يمكن أن يكونوا أصدقاء

أقسم بأليسار أميرة البحر المقدسة

ألا أكون يوماً صديقاً للرومان

حن بعل

الحياة مسرحٌ دامٍ

تابع عبد المسيح حديثه معرفاً بأهم المواقع التدمرية ...

- وترون من هنا المسرح التدمري ، الذي كانت تقام عليه الحفلات الفنية والموسيقية قبل أن يحتله تنظيم الدولة - عيناه اصطدمتا سريعاً بعيني أبي القعقاع - عفواً أقصد قبل أن يفتحه تنظيم الدولة ، ويحرره من يد النظام السوري ، ينظر مبتسماً إلى أبي القعقاع ، راغباً أن يرضى عن تصحيحه ، ويبدو أن الأخير رضي عن أدائه .

المسرح الإنكليزي

بولونيوس في العشاء حيث يؤكل ولا يأكل ، وحيث مجموعةٌ من الديدان السياسية عقدت عليه اجتماعاً:

الملك البدين والمتسول الهزيل

أكلتان لا فرق بينهما، طعامٌ لمائدةٍ واحدةٍ

فقد يصطاد المرء من خلال دودةٍ صغيرةٍ

سمكةً كانت اقتاتت من جسد ملكٍ

ثم يأكل السمكة التي أكلت الدودة

وهكذا يقوم الملك بجولةٍ في أمعاء صعلوك .

هملت

المسرح البرازيلي

الإنسان هو الحيوان الوحيد

الذي يقتل لمجرد القتل

فوجيرو

مسرح الرحابنة

فيروز في دور- ملكة بترا- تضحي بابنتها الطفلة بترا

غير خاضعةٍ لابتزاز الرومان الذين خطفوا الطفلة :

- معلش تموت ما بشتري حياتها بهزيمة شعبي .
يا روما رح تلحقك لعنة الشعوب المقهورة والمدن المحروقة
رح يجي يوم تهدمي حالك وتنتحري
رح تتشلعي من جوا وتصير كرومك نهب الطرقات
مش هلق بعد ماية سني
إلا ما تدوعسك مركبات الأيام وتنكسري .

مسرح روما 270 للميلاد

صراع الأسود ، صراع الديكة ، صراع العبيد

من مسرحٍ رومانيٍ إلى مسرحٍ رومانيٍ آخر

لا لون إلا الدم .

بقع دمٍ نازفٍ من ديكٍ أو من أسدٍ أو من عبدٍ

قانون روما يعتمد مبدأ القتل

حلٌ واحدٌ : قاتلٌ أو قتيل.

مسرح اليابان المكشوف آب 1945م

أزيز طائراتٍ تحوم فوق المكان ...

يرتفع الصوت مترافقاً مع أصوات انفجاراتٍ مرعبةٍ ...

ارتفاع كتلٍ مخيفةٍ من الغبار

فوق مدينتي هيروشيما وناغازاكي

تسمع أصواتٌ مختلفةٌ من بعض دول العالم فقط :

رومان ..رومان ..مان ..ريكان ..أمريكان ..للأمريكان ..

تشتد الأصوات المرعبة ، وتخمد كتل الغبار تدريجياً

تخرج أصواتٌ هامسةٌ خوفاً

تعلو ، ترتفع ، تصبح محتجةً ، غاضيةً مرعبةً :

أميركا لا يمكن أن تكون صديقة

نقسم ألا نكون يوماً أصدقاء لأمريكا

السينما الأمريكية 1999

في الثاني من تموز 1999 نقرأ :

" فرانسيس فورد كوبولا " عملاق السينما الهوليودية، مخرج العراب بثلاثة أجزاء، يحاول أن يمزج في فيلم قادم له، بين روما القديمة ونيويورك المعاصرة.

كيف؟ يقول كوبولا :

- هو فيلمٌ عن أميركا وأميركا ليست جمهورية، بل هي إمبراطورية، وما يحدث الآن في أميركا سبق أن حدث في روما أيام كانت مركز إمبراطورية عظيمة. "

المسرح الأمريكي مكشوفاً

2019 م

" ... بدأت أدرك مؤخرا وجه التشابه الكبير في التصدعات التي تنخر أمريكا ، وبين روما القديمة ، وعندما اتصلت إبان الغزو الأمريكي للعراق بأستاذي السابق لمادة التاريخ في الجامعة قال لي :

- إن الرومان القدماء كانوا غزاةً مهووسين ، لكنهم لو شاهدوا كيف تتعامل أمريكا مع العراق اليوم فلن يندهشوا كثيرا .

لقد كان ماركوس كاتو، السياسي الخطير في روما معتاداً دوما إنهاء خطبه بعبارة :

ويجب تدمير قرطاج

ودمروها دماراً مأساوياً ، أليس هذا هو الأسلوب الذي يستخدمه رئيس أمريكا اليوم ! ألم يقل إنه يستطيع أن يمحو أفغانستان من على وجه الكرة الأرضية ، وإنه يستطيع تدمير كوريا الشمالية بشكل كلي ، وإن إيران سوف تتعرض لتدمير شامل لو جرؤت على مهاجمة الولايات المتحدة ، وإنه سيدمر سوريا .

إن دور أمريكا في سوريا أكبر عارٍ لجيشها، كما هو دورها كمرتزقةٍ لدى المملكة السعودية .

لقد جعل ترامب أمريكا تنحط ، أما السوريون الذين يمتد تاريخهم أعمق كثيراً من تاريخ أمريكا ، فقد كانوا أذكى من أمريكا ، ولعبوا لعبتهم السياسية التي ستعيد كل الأ راضي لهم .

الصحفي البريطاني روبرت فيسك

الإندبندت الجمعة 18 ت 1 2019

مسرح تدمر

القرن الحادي والعشرون

نصف دائرة تحيط بها راياتٌ سودٌ سود ,..

تفتتح الستارة بلون دمٍ أسود ، ترتجف لفتحها الرايات السود .

نصف دائرة جمهورها من المراهقين الذين يجهزون لمرتبة الوحوش.
والوحوش يحيطون بهم .

نصف دائرةٍ من عسكر سوريا

الذين لا يهابون الوحوش

وهل يهاب من خلق قلبه من حجرٍ سوري !

لم يرتجف عسكر سوريا حتى من رؤية اسم الجلالة

وهو يتراقص على الرايات السود .

كلمة السر في مسرح تدمر

في الليلة الثانية بعد الفي ليلةٍ وليلة

هي اسم الجلالة مفخماً بالسواد وبالدم .

تفتح الستارة

يزداد رجفان الرايات السود

عسكر سوريا ينظر أمامه دون رجفانٍ ولا خوف

تقترب الأنياب من رقابهم

يحاولون الوقوف ليموتوا كالأشجار لا يسعفهم الوقت .

مراهقٌ يفتتح التسجيل باسم الله والله أكبر

ثم يركع ويسجد يقبل الأرض

أمام هدف الخصم الخالي من حارسٍ للمرمى .

وا معتصماه لقد فعلها ابن الزانية .

تبدأ بعده الأهداف وكلها في مرمى لا حارس له

تسعة عشر هدفاً في المرمى الخالي من حارسه

والكل يركع ويسجد ، باسم الله والله أكبر

المتراقص على سواد راياتهم

وتطبيقاً لشريعة نبيهم الإسلامية السمحاء

وباسم نبيهم بل خاتم أنبياء جلالته

الراكب إلى سمائه مخترقاً حجبه على براقه

ليس كسلفه موسى بلا براق ! .

عشرون نبياً مكبلون

وكل رايات الله أكبر سودٌ سود

لكنهم لا يرتجفون

بل يقسمون وبصوتٍ يزلزل مسرح تدمر :

نقسم بتراب سوريا المقدس

ألا نكون يوماً أصدقاءً للأمريكان

عودة المسرح الروماني

بنموذجٍ أمريكي

بعد أن أنهيت الجولة الأثرية مع حنا وبابلو و ليزا ، وصلنا ساحة المدينة القديمة، كان أمير تدمر بانتظارنا ، فهو مهتمٌ كثيراً بضيوفه ، رحب كثيراً بهم شد على أياديهم ، تبسم لليز عن بعد ، سرنا سويةً إلى خيمةٍ تستخدم كمطعم ، جلسنا برفقة أربعة أشخاصٍ نتناول غداءنا ، قدمت الأثري المعروف باولو باجارو ، و مساعده التونسي الشاب حنا السعد للأمير ومرافقيه .

- منذ شهرين وأنا أتعامل مع خالد الأسعد بلينٍ كبيرٍ ، متمنياً ألا يضطرني إلى أسلوبٍ آخر ، لكنه لا يتجاوب معي أبداً ، وأخشى أن ينفذ صبري .
- عندها يا شباب - نبهتهم - إذا نفذ صبر جلالته ، غير أله ما بيعرف شو ممكن جلالة أميرنا يعمل !

كانوا ينظرون إلي بغرابة ، لا يعرفون هل أنا معهم أم مع الأمير ! وضحت أكثر :

- جلالته رؤوفٌ جداً ، جلالته كتير رحوم ، وكتير عطوف . بس أخونا خالد راكب راسه ، وعاملي ياها مبدئية ، ما بيصير هيك يا رجل ! من وقت احتـ آسف ، فتح تنظيم الدولة تدمر ، وجلالته بيحاول إقناع الأسعد أن يسعد ويريح بلا جدوى ! ما استطاع جلالته إقناع خالد ، شو بيعمل ؟ يبدو أن حنا التقط الإشارة مني بشكلٍ جيدٍ هذه المرة ، فقال :
- ما بيعمل شي جلالته ، نحن منعمل . نحن رهن إشارتك مولانا . ماذا تريد منا ؟
- أحببتك أيها التونسي .
- أنا سوري .
- أقصد حالياً وليس بالأصل .

- نمررها يا رجل ليست مشكلة .
- غريب كيف تتفقون تونسيٌ وسوريٌ مع إسبانيٍ و روسي !
- سهلة أيها الأمير - تدخل بابلو - فأنتم وباسم الدين تتفقون على القتال في سوريا مع السعودي التركي القطري المصري السوداني الكويتي الأمريكي البريطاني الفرنسي ، وحتى الإيغور الصيني ، يعني بربك في لخبطة أكتر من هيك ! .
- نحن من دولةٍ واحدة أيها الإسباني هي الدولة الإسلامية ..
- لكنكم من عشرات الدول هنا ، أنت مثلاً من أين أيها الأمير ؟
- أنا مسلمٌ من الجزيرة العربية ..
- يقصد حالياً وليس بالأصل ، ضحك حنا مداعباً ..
- من تركمانستان ..
- وليز من بريطانيا تابع بابلو ، وأبو القعقاع يبدو أفريقياً .
- ليس الدين كافياً لخلق مجتمعاتٍ بشريةٍ حضارية . أردف حنا : فهو حاجةٌ روحيةٌ نفسية تخص الجانب العاطفي من الإنسان ، والاهتمامات الحياتية الأخرى المشتركة ، أي أن العقل هو الذي يجمع ، بينما العقيدة أو الدين تفرق .
- كيف ؟ سأله الأمير مستغرباً ...
- العقيدة تبعدك عن أولاد بلدك ومدينتك الذين لا ينتمون إلى عقيدتك . أليس صحيحاً ؟ أليس هذا ما حدث مع ليز عندما التحقت بالتنظيم ، وتزوجت أمير منبج.
- صحيح .
- والعقيدة تجمعك مع أبناء مدنٍ وبلدانٍ بعيدةٍ ، لكنها لا تجمعك مع أبناء حيك ومدينتك ، والحياة المشتركة التي عشتها معهم .
- وماذا تقصد أيها الأخ ؟
- أيها الأمير أقصد أن طوائفكم المتعددة وآراؤكم المختلفة تجاه الدين ! وبالتالي كافة الأديان ، لا تجمع في النهاية .
- تقصد أن الأديان لا تجمع بل تفرق ؟

- أيها الأمير أحيلك إلى واقع الأشياء ، إلى ما يحدث على الأرض ، أنتم في سوريا ، من قومياتٍ متعددةٍ ، وباسم الاسلام الذي يجمعكم، فإنكم تحلمون بإقامة دولةٍ إسلامية .
- وما الخطأ في ذلك ؟
- مولانا القصة ليست قصة صح أو خطأ ، الزمن تغير يا مولانا ، وأنتم تحاولون إعادته إلى الوراء ، هنا المشكلة تابع حنا .
- وما الحل برأيك أيها الإسباني ؟
- العلم و العقل في إدارة الدول ، وإبعاد الدين عن الحكم .
- الدين حاجةٌ حسيةٌ فكريةٌ تتعلق بالقلب ، لا يجب أن تكون لإدارة الدول ، تابع حنا .
- وأنت أخت ليز ما رأيك بما يقوله السيدان ؟
- أنا من رأي زوجي فقط أيها الأمير .
- أنت مسلمة ؟
- الحمد لله .

يبدو وكأن الأمير لا يستوعب الحديث كثيراً ، ويبدو أن جواب ليز الحاسم ، قد حولا النقاش إلى موضوعٍ آخر ، يمكنه الحوار فيه :

- وكيف تعامل السيدان مع زوجك ؟
- إنهما سيدان محترمان وأهلٌ للثقة ، قدما كل ما يستطيعان لزوجي ، ولم يحاولا خداعه أبداً .
- جيد جيد إذاً أستطيع الاعتماد عليك في متابعة أعمالهما ، وسأبقي أبا القعقاع برفقتكم لمساعدتكم فيما تحتاجون ...

كان مبيتهم في تدمر في شقتين متجاورتين في فندقٍ خالٍ ، حنا و بابلو في شقة ، وفي الأخرى ليز ، بينما احتل أبو يوسف مدخل الفندق لينام فيه ، ويحرسهم .

كانت ليز ماتزال تحتفظ بحاجاتهم الشخصية وخصيصاً أجهزة الكمبيوتر و هاتفي حنا وبابلو ، وضعت حاجاتها الشخصية في غرفتها مسرعةً و أخذت معها هاتف حنا واتجهت إلى شقتهما ..

فوجيء الرجلان بدخولها ، أسرعت في التوضيح :

- يجب أن نعمل شيئاً من أجل خالد الذي يتحدث عنه الأمير .
- وماذا نعمل ؟
- أنتم أدرى .
- لكن بالنسبة لك يجب ألا تنفعلي من أجل خالد ، ربما ينتبه البعض إليك .
- لا تخش شيئاً ، ألم تلاحظ طريقة أجوبتي للأمير !
- تصرفت بشكلٍ جيدٍ ، أردف بابلو .
- إذاً ربما نحن أدرى ، لكن هل لدينا القدرة ؟
- لا أدري يا حنا ، تفضل اتصل بأمين ربما يمكنه المساعدة ...

كنت ما أزال بين الحياة والموت في المشفى العسكري في اللاذقية ، وكانت ميرا وحيدةً معي في غرفتي رقم سبعة في الطابق السابع من المشفى ، كنا قلقين على وضع الشباب في تدمر ! طمأنتني ميرا بأنهما بأمان ، خصيصاً أن المنطقة التي اجتازاها ، والتي وصلا إليها آمنةً بالنسبة لمرافقتهما الشقراء الجميلة .

أحنت قامتها ، صار فمها على جبيني ، طبعت قبلةً سريعةً على شفتي ، كنت أشعر حينها بقوةٍ غريبةٍ توحي وكأني استعدت قواياي كاملةً ، لكن خوفها علي جعلها تصر ألا أتحرك من مكاني ، هي تأتي إلي ..

قامت ، تأكدت من إغلاق الباب ، أطفأت أضواء الغرفة ، ظلامٌ غير كاملٍ بسبب أضواء ميناء اللاذقية التي تنعكس على غرفتي ، وتسمح لي

برؤية ما لا يرى من ميرا ، تسمح لي برؤيتها كما كانت : شلال شعرٍ ينسدل على كتفيها ، ينزل إلى وجهي وهي تنحني وتقبل شفتي ...

- حبيبي بحبك ، بتحبني !
- بحبك يا قمري .

غطتني بجسدٍ حليبيٍ ناعمٍ ، تهت في تفاصيله ، امتلكنا بعضنا في عناقٍ أبديٍ ، غفونا قليلاً ، نمنا ربما ، لكن هاتف حنا لم يدعنا نتابع رحلتنا الرائعة :

- لدينا معضلة كبيرة يا صديقي أمين ، هل يمكنك المساعدة ؟
- إي حنا خبرني أولاً أحوالكم جيدة ؟
- أجل صديقي أمورنا بخير ، لا مشكلة .
- إذاً !
- خالد الأسعد .
- مابه !
- يبدو أن أمير تدمر لن يصبر أكتر على رفضه التعامل معهم .
- ويبدو ألا سبيل لإقناعه يا حنا ، الأخبار المسربة من تدمر تؤكد أن الضغوط عليه لن تجدي نفعاً .
- وماذا يمكن أن نعمل لإنقاذه ؟
- لا فكرة لدي يا حنا ، إلا إذا استطعتم خطفه وتهريبه خارج تدمر !
- خطفه و تهريبه ! كتير هيك أمين !
- ماذا هناك حنا ؟ سألت ليز .
- أمين يفكر بطريقة أفلام الأكشن الأمريكية ،يفكر بخطف وتهريب خالد ! .
- يفكر بشكلٍ صحيح ردت ليز .
- طيب نفترض أن الكلام صحيح ، لكن التنفيذ ! قال بابلو .
- التنفيذ ! التنفيذ ! أمين لنا طلب بسيط لتنفيذ فكرتك ؟
- ما هو طلبك صديقي حنا ؟ تفضل .
- هل يمكن أن ترسل لنا الممثل الأمريكي سيلفستر ستالون إلى تدمر ؟

- سيلفستر ستالون تحديداً : ولماذا يا هذا ؟
- أذكر في أحد أفلامه أنه لوحده ودون أي مساعدة ، وبتنوعٍ هائلٍ من الأسلحة التي كان المخرج يزوده بها ، استطاع تدمير معسكرٍ معادٍ بأكمله وخرج سالماً .
- جيد جيد ، تابع بابلو ضاحكاً ، قل لأمين أن يرسل معه مخرجاً جيداً ، لأن الوضع هنا أعقد بكثير ...

يضحكون ..

- يبدو أنكم لا تأخذون كلامي بجدية ، يجب أن تفهموا شيئاً : كلما ازدادت الحراسة على شخصٍ ما ، أتيح لمنقذيه مجالٌ أكبر لإنقاذه ..
- أنت جديٌ يا أمين !
- أجل حنا فكروا بهدوء ، معكما ليز بإمكانياتٍ قتاليةٍ جيدة ، يدعمها أبو يوسف بقوةٍ كبيرةٍ وحقدٍ مرعبٍ على التنظيم ، يمكنه من قتال كتيبة ، يعني اعتبر إنه ستالون الذي تطلبه موجود لديك .
- لا تقل لي أن نعتمد على أبي القعقاع أيضاً ؟
- ومن هو هذا القعقاع ؟
- أرسله أمير تدمر لحراستنا ، وهو عملاقٌ أسودٌ من أفريقيا ، له قوة عشرة أحصنة .
- اعتمدوا عليه ولم لا !
- هل أنت جاد أمين ؟
- جداً صديقي .
- وماذا أيضاً ؟
- أعتقد أن عقلك وعقل بابلو إذا اجتمعا بشكلٍ صحيح ، يديران الفيلم أفضل من أي مخرجٍ .
- إي ..
- ولديكما ورقةً هامةً هي عبد المسيح الذي يعرف مسالك تدمر بكل تفاصيلها ، يعرف شوارعها و قلعتها و مدافنها الغربية خارج المدينة،يعرف أموراً كثيرة يمكن أن يستغلها أثناء تنقيبكم اللصوصي.
- في هذه أوافقك وماذا أيضاً ؟

- نعود لأبي القعقاع ، لديكم ورقةٌ ضخمةٌ سوداء ، يمكنكم الكتابة عليها بالخط والشكل واللغة التي ترغبون .
- أبو القعقاع ؟ ..
- طبعاً أبو القعقاع .
- لا أمين لا يمكن .
- نعم حنا يمكن . ماالذي جاء بأبي القعقاع من أفريقيا أتظنها العقيدة ؟ أم تظنها الأفكار الغيفارية الثورية ؟
- بالتأكيد لا .
- أليس المال ! أشتروه إذاً كما يشترون .
- اشتروه ! كيف ؟
- دع ليز تفكر بالأمر ...

لا تشتر العبد إلا والعصا معه

تعودت ليز منذ بداية مراهقتها أن تنام عاريةً تماماً ، كما هي في هذه الليلة الحارة من آب ، والتي هرب فيها النوم من عينيها .

إن حواراً من العيار الثقيل مع حنا وبابلو حول تهريب خالد الأسعد ، لا يترك فرصةً حقيقيةً للنوم ، لكن ليز كانت توغل في التفكير بعيداً .. لم يك في عتمة الليل أمامها إلا أبو القعقاع ، بكامل سواده جسداً وثياباً ورايةً ، كيف ستشتريه ؟ تذكرت بيتاً من الشعر أسمعها إياه حنا ، لشاعرٍ هو قريبٌ للمعري الذي زارت قبره في معرة النعمان أسمه (أبو الطيب المتنبي) صارت تعيد البيت وتعيده ، علها تحظى بفكرةٍ تساعدها في شراء هذا العبد :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد

تناولت عباءتها السوداء ، ارتدتها سريعاً ، تناولت كوباً من الماء البارد، انتقلت مسرعةً إلى شرفة غرفتها التي تطل على معبد بل ، جلست

طويلاً تفكر بالطريقة الممكنة لشراء القعقاع ، تابعت تفكيرها ، تابعت ذهابها وإيابها ، شعرت بالتعب، عادت إلى الغرفة ، توجهت إلى سريرها ، ألقت بعباءتها أرضاً وارتمت على السرير محتضنةً وسادتها ....

منذ اليوم الأول الذي تزوجت فيه أمير منبج ، اعتادت ليز أن تضع مسدسها تحت الوسادة جاهزاً لأي طارىءٍ ، هكذا عودها عمر . لكنها في هذه الليلة الاستثنائية نسيته ، أو أن ما شغلها عنه كان أكبر ، كانت تنام مشوشةً مرهقةً ، بعد لحظات استسلمت للنوم هادئةً ...

من هدوء نومها ، خرجت فوهة مسدسٍ لتستقر بين عينيها ، تطلعت بهدوء، لا أحد ، لكن المسدس موجود ، وترى فوهته بين عينيها ، حافظت على هدوئها . رائحةٌ غريبةٌ بدأت تتسرب إلى أنفها ، تملأ غرفة نومها .. رائحةٌ بشرية ، أو هل خيل لها ! هذا يعني أنه القعقاع الأسود ، لكن كيف دخل غرفتها ، كيف تجاوز أبو يوسف ، هل نامت دون أن تقفل بابها ، وهل تركت مسدسها !

انعكاس ضوءٍ من سيارةٍ تعبر الشارع جعلتها تلمحه جيداً : هو جالسٌ إلى جانب سريرها ، يصوب فوهة مسدسه إلى وجهها ، لكنه يبدو مأخوذاً كليةً ببياض جسدها ، مما شل حركته ...

- ما الذي أتى به إلي ! هل قادته غريزته الحيوانية إلى بياض ونعومة جسدي ، وهل يجرؤ ! . هل لاحظ أمير تدمر شيئاً ما ، مما جعله يشك بتعاوني مع حنا وبابلو فأرسله لتصفيتي ! . ما العمل ! ربما لدي الوقت وربما هي ثوانٍ لأقرر وأسبقه قبل أن يفعل شيئاً ... مددت يدي بهدوءٍ ما بين ساقيه الضخمتين فبدأ يباعد ساقيه وبدأت أقترب أكثر ، كان سريعاً في تجاوبه ، مددت يدي الثانية إلى شفتيه الضخمتين ، أدخلت أصبعين بينهما ، حرك لسانه بشهوةٍ على أصابعي ، وحرك يده اليسرى التي تحمل المسدس بعيداً عن عيني ... هل يترك مسدسه ! مازلت أتعامل معه باستجابةٍ وهدوء ، إذا كانت غريزته قد قادته إلى جسدي الأبيض ، فهذا شيءٌ طبيعي ، فمعظم من رأيتهم منذ وصولي إلى سوريا ، اشتهوا بياض

جسدي ، دون أن يروه ! وأبو القعقاع ليس إلا واحداً منهم ، لكن كيف يجرؤ ، وكيف وصل إلي ؟ وصل إلي ! يبدو أنه لم يصل من تلقاء نفسه ، بل أنا من استدعيته كي يأتي ، طلبته كي أشتريه ، ترك مسدسه جانباً ، هل أسرع بالتقاطه وأصرعه به ، لا إنها فرصتي التي أبحث عنها، إذاً لنشتر العبد .

شعر بالأمان من خلال تجاوب ليز معه ، جذبها من السرير إلى الأرض، وقعت ليز إلى الأرض، وقع فوقها، وضع يده على فمها وأسكتها :

- حبيبتي .

فتحت عينيها بذهولٍ تقابل عينيه ...

- أيها الوغد ، ماذا فعلت ، وكيف تجرأت ؟
- لا شيء يقف أمام الحب ، لم أعد أحتمل يا حبيبتي ...

صراعٌ حقيقيٌ ، في ثاني لقاءٍ حارٍ بينهما ، هذه المرة كان حنا هو المبادر ، بلً كان هو المغامر ، فقد لفتت ليزً إلى أنها لو انتبهت أكثر ، ربما وصلت إلى مسدسها وجرحته ، لكنها كانت تهيىء لصفقةٍ كبيرة ، لم يفهم حنا ، شرحت له ما كان يشوش تفكيرها منذ قليل ، وقبلً أن يأتي إليها ، وبأنها كانت على استعدادٍ لشراء العبد مع العصا !

- أي عبدٍ وأية عصا ليز؟
- أتذكر بيت المتنبي الذي ذكرته لي ؟
- بالتأكيد .. لا تشتر العبد إلا والعصا معه ..
- تمت الصفقة .
- ليز!
- حنا أنت واثقٌ بتعاون عبد المسيح معنا ؟
- بالتأكيد ، فهو مخلصٌ كليةً لمعلمه خالد .
- جيد إذا سأشتريه كما لمح أمين ، أتذكر آخر جملةٍ له ! دع ليز تفكر بالأمر ! هل فكرت ماذا قصد بها ؟ لقد مررها أمين بشكلٍ لائقٍ كي لا يجرح مشاعري ، فجاموسٌ كهذا لا يهمه من العالم إلا بقرةً تبرده وترضيه .
- ليز لا .

- حنا نعم .
- ليز رجاءً ، هذا ثمنٌ كبير لهذا الجاموس !
- في سبيل إنجاح مهمتنا ، ليكن ، فأنا راضيةٌ بالصفقة ، وسأشتري العبد والعصا معه ، أنا مستعدة لدفع الثمن ، آمل أنه يكفي للتكفير عما فعلته حتى الآن !

***

الخلود

تطلع شمس نهارٍ آخر وأنا في تدمر ، صار الجميع ينادونني عبد رب المسيح بعد دخول التنظيم إلى تدمر . ما أزال أذكر صدى صوت العسكر السوري في مسرح تدمر :

نقسم بتراب سوريا المقدس

ألا نكون يوماً أصدقاء لأمريكا

كثيرون سمعوهم ، ولم يجرؤوا على البوح . كثيرون قرؤوهم ،ولم يفهموا شيئاً ، لم يعرفوا أنهم ارتقوا بلا براق .

ارتقوا ! أجل . هل أجرؤ وأعبر عن سعادتي برؤيتهم يرتقون بهذه الطريقة ! أنا الذي رأيتهم يرفعون قاماتهم بإباءٍ ، في اللحظة التي هوت أنياب الوحوش عليهم ، ما انحنوا ،حاولوا وارتقوا .

وقتها ذهبت إلى معلمي خالد استأذنه بزيارة أصدقاء أثريين له ، كان في بيته وحيداً ، أخبرته عنهم وعن عملهم ، وعن ارتقاء العسكر في المسرح ، فرح كطفلٍ يتلقى هديته الأولى :

- حلمت البارحة أني كنت أحدهم . همس خالدٌ بحب .
- كلنا أحدهم يا معلمي . أو سنكون يوماً ما .
- كم جميلٌ أن أصل إلى الارتقاء حباً بسوريا .
- يمكنك ذلك .. أنت أسعد أما أنا فعبد لا يمكن لي أن أسعد ، ضحك ثانيةً كطفلٍ مشاغبٍ ، أما أنا فسعدت من قلبي أني استطعت نقل ضحكةٍ إلى خالد .
- لست عبداً ، فالأسماء لا قيمة لها يا صديقي ، ترى من أسماني خالداً هل كان يعتقد أني سأكون خالداً فعلاً ؟
- بالطبع لا، لو فعلها قبلك جلجاميش كنا آمنا بوجود الخلود في الأرض .

- بل فعلها . المحاولة بحد ذاتها تكفي ، لقد فعلها وهو خالدٌ بخلود البشرية ، ثار على القوى الغيبية للحصول على الخلود وحصل عليه فنال الخلود في ارتقائه من شبه إلهٍ إلى إنسانٍ .
- معك حقٌ يا معلمي .
- عندما ضربت هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية الوحشية الأمريكية ، كنت في العاشرة تقريباً ، ومن يومها حفرت همجية أمريكا في دمي فكرة ألا أكون أبداً صديقاً للأمريكان ، ومنذ ارتكب الرومان حماقتهم بحق قرطاج والبتراء وتدمر وزنوبيا أقسمت ألا أكون أبداً صديقاً للرومان. والرومان يا صديقي هم الأمريكان ..
- ولماذا لا تغادر ؟
- أغادر! أضحكتني يا أذكى واحد بالعالم ، أتراني أضيع فرصةً كهذه ! خلقت لأفدي بلدي ، وأتت الفرصة ، هل كان يسوع ليهرب من صليبه الذي خلق لأجله ! هل أتصرف كما يسوع ، أم أنكر كما بطرس ! فكرت كثيراً هل أدل كما دل يهوذا ، أم أحترم أسمي .
- يليق بك يا معلمي .
- كنت وما أزال أدرك المخاطر التي تعترضني، وأعرف المخاطر الأكبر القادمة .
- والتي ستؤدي إلى موتك يا معلمي ،اعذرني لصراحتي .
- موتي هو نجاتي ، أموت ! ماذا يعني ذلك ، ومن يعش ثمانين حولاً ألا تراه يسأم ! أنا سعيدٌ أني اخترت موتي ، موت جسدي ، أما نفسي فتحمل روحاً لا تموت ، روح فيلٍ من فيلة حن بعل المات حراً، تأكد ياصديقي ، سأبقى حراً ، وأموت حراً ، أنا خالد .
- ربما كنت مثلك ،ربما كنت أنت ، لكنني لم أجرؤ أما أنت فجرؤت أنت حرٌ وأنا عبد .
- لا يا صديقي الطيب لست عبداً ، ربما تحتاج وقتاً أطول كي تتخذ القرار ، ربما تحتاج فولذةً لجسدك ولروحك فتصبح حراً .

***

لقاء خالد

رافقت حنا وبابلو، بحراسة ليز و أبو القعقاع ، ومعهما أبو يوسف، سائقها ومرافقها الخاص، لعدة أيامٍ في أكثر من موقعٍ ،وعندما نكون بعيدين عن الآخرين ، كنت أسأل حنا وبابلو ألا يتعاونا مع الأمير في نبش الآثار وسرقتها ، لأفاجأ أنهما كانا حريصين أكثر مني ، لم يعلنا ذلك صراحةً ، لكني لاحظت طريقة تعاملهم الاحترافية مع المواقع التي يبحثان فيها ،حرفيةٌ أخطاؤها غير ملحوظةٍ إلا مني ، تبادلنا نظراتٍ أنا وحنا أكثر من مرة ، نظرات تفاهمٍ وامتنان ،كان حنا ذكياً جداً بحيث لا يترك مجالاً للشك في حرفية عمله . سألني عن خالد ، أخبرته أنهم في طور استجوابه ليس أكثر ، وحتى الآن هو في بيته وأزوره هناك ، ولا خوف عليه رغم تجاوزه الثمانين ماتزال روحه شابةً حرةً . ولاحظت لدى حنا رغبةً كبيرةً في لقاء خالد وكذلك بابلو ، بادرتهما :

- لقد استأذنت خالد البارحة أن نزوره ، ما رأيكما أن أقنع الأمير بزيارته ..
- نتمنى ذلك ، ربما نستطيع إقناعه بلعب دور المساعدة ، وأن يحسن القيام بهذا الدور لنمنع قتله . قال بابلو .
- هو كذلك ، ستكسبا رؤية قامةٍ كبيرة .
- أنا مع هذا الرأي أيضاً ، أردف حنا .
- وماذا عن ليز ؟ ألا تخافان أن تنتبه إلى تصرفاتكما ، تبدو قريبةً جداً منكما طوال الوقت .
- أترك هذا الأمر لي صديقي عبد المسيح ..
- قلت لك عبد رب المسيح .. إسلامياً لا يجوز ...

يضحكون بصخبٍ يلفت انتباه ليز :

- هل تشاركونني ، إذا لم يكن هناك مانعٌ ما ؟
- أشرح لها يا عبد رب المسيح .

أفاجئها بلغةٍ أنكليزيةٍ واضحةٍ ، وأفهمها أن اسمي عبد المسيح ، لكن جلالته لا يناديني إلا عبد رب المسيح ، وأشرح لها السبب الشرعي الإسلامي في ذلك ، راجياً ألا تتضايق كونها : مسلمةٌ والحمد لله !

تضحك ليز ببراءة الأطفال ،وأخبرها نيتنا مقابلة الأمير ليسمح لنا بزيارة خالد الأسعد من أجل إقناعه بالتعاون وإلا :

- أنت منهم ، تعرفين مصيره .

تحزن ليز من عبارتي ، تشعر بغصة ، فهي مستعدة لدفع أي ثمنٍ في سبيل إنقاذ خالد ، ومن جهةٍ أخرى فهي لا تستطيع إخباري بحقيقة مشاعرها . تشعر أنها لا شيئ ، بين رجالٍ جاهزين للتضحية بحياتهم في سبيل بلدهم . كانت تفكر بعمق بإمكانية إنقاذ خالد ، ومهما كان الثمن وياله من ثمن! لكن إجابتها لعبد المسيح لم تتغير :

- اخترت أن أكون منهم ، وأنا مخلصةٌ لزوجي كأي مسلمةٍ في العالم .

أمسك حنا بيدي ، طلب مني انهاء الموضوع ، والاهتمام بلقاء خالد ، وأن أترك موضوع ليز جانباً ، لأنها رغم إخلاصها لزوجها المسلم ، فلديها استعدادٌ على ما يبدو للتوبة .

بعد أيامٍ طلب مني الأمير إلي أن أحضر - التونسي والإسباني معي كما يسميهما - للقاء خالد الأسعد في القلعة ، إنه في ضيافته ! صعقنا للخبر ، يبدو أن الأمير يضيق الخناق أكثر على خالد ! وسررت للخبر، وهو أن حنا وبابلو سيتمكنان أخيراً من لقاء خالد .

***

خالد الأسعد

ليس صديقاً للرومان

نقل خالد الأسعد إلى القلعة التي تطل على تدمر ، فقد ارتأى الأمير التركماني أن يضغط على خالدٍ الذي يحرس أصنام تدمر ، بمراقبتها من بعيدٍ ، ليتقطع قلبه كلما دمر التنظيم أثراً ، أو هدم مكاناً، أو حطم صنماً. وهذا ما حدث مع خالد فعلاً ، لم يتحمل جسده المتعب ، مع أن روحه كانت كروح فيلٍ خالدة ، وكان قلبه أقوى من قلب حن بعل عندما جرح ذراعه ونكز حصانه وغادر ، وكانت أعصابه أقوى من أعصاب زنوبيا وهي تقف في مواجهة روما .

أعمدة تدمر تعرفه ، وحجارتها تميز رائحته ، وتماثيلها تنام بين يديه ، وزنوبيا أعطته أسرارها ، ومثلما رفض مغادرة تدمر ، رفض الإفشاء بأسرارها لهؤلاء الوحوش ، حتى فقدوا الأمل .

كان خالد يقضي يومه السابع مسجوناً في البرج الشرقي من القلعة ، كان يرى تدمر من فتحةٍ لإطلاق الأسهم . لم يزود في سجنه إلا بزجاجةٍ بلاستيكةٍ مملوءةً بالماء ، ودلوٍ في الزاوية لإفراغ ما يشربه منها . لا مكان للجلوس أو النوم إلا الأرض ، يعرف الوقت من خلال الفجر و الغروب ، ومن ظلال أعمدة تدمر في النهار ، وكان الليل أسود كرايات سجانيه .

كانت الشمس في يومه السابع على وشك المبيت ، وهو يتأمل تدمر بصمتٍ من خلال طلاقات الأسهم ، يتأمل أعمدتها ، يتفحص حجارتها ، لكل عمودٍ قصة ، ولكل حجرٍ ذكرى . وقبل الغروب تصبح الحجارة والأعمدة ذهباً ينعكس على لون بذته الفضية وشعره الفضي ، مما يظهر التمازج الرائع بينه وبين معشوقته تدمر .

نقترب من معتقله أنا و حنا وبابلو بحراسة ليز ، نتقدم منه أكثر ، نسمع صوته ، هادئاً يرتفع شيئاً فشيئاً :

- لم أمت ، ما زلت هنا ، نجماً يحرس تدمر .

- وستبقى إلى أبد الدهر يا معلم .

يفاجأ يلتفت ، لم يضطرب لرؤية ثلاثة رجالٍ وامرأة يدخلون سجنه ، بدا بشوشاً للقائنا ، من خلال ابتسامةٍ يزيدها جمالاً انعكاس غروب شمس تدمر ، يستمر حوالي دقيقة مستطلعاً وجوه أربعة ضيوفٍ غير متوقعين ، أشكالهم ليست كتلك اليومية التي تلهبه بالأسئلة والاستفسارات والاتهامات ، والذهب والمال والسرقة ، ونظراتهم ليست كتلك اليومية التي تطلب إليه التعاون أو الذبح :

- أرحب بكم في مملكتي .
- نقدر ترحيبك ونفخر بمملكتك يا معلم . أكد حنا. أنا حنا من تونس وصديقي بابلو من اسبانيا .
- يبدو أنكم جئتم في وقتٍ غير مناسبٍ ، بادره خالد .
- نحترم رغبتك في الحديث أو عدمه ، رد حنا بلهجةٍ ودودة .
- ونقدر صمتك الجميل إذا ما نويت ذلك ، تابع بابلو .
- سعيدةٌ أن ألقاك ، رغم ظرف اللقاء . قالت ليز .

كان خالد مستمراً في النظر إلينا ، صامتاً لا ينوي الكلام ، وكان حنا يحادثه بصوتٍ فيه كل حب الأرض لأبنائها ...

- سيدي ، نحن سجينان عند السيدة ليز من بريطانيا ، لقد أسلمت هناك ثم التحقت بتنظيم القاعدة ، وهي اليوم زوجة أمير منبج الذي اعتقلني مع حنا منذ أشهر، وأجبرنا على مساعدته في البحث عن الآثار في معبد هييرا .
- يا للمسكينة سميراميس . وهل دنستما معبدها ؟
- صدقنا يا سيدي عملنا مجبرين ، لكننا خرجنا بأقل الخسائر .
- الخسارة خسارة ، قليلةً أو كبيرةً ! قالها خالد بجديةٍ زائدة.
- يا معلم نحن بشر ، تابع حنا ، نحن ضعافٌ تجاه حياتنا وموتنا ، لذلك نجبر أحياناً على أمورٍ لسنا مقتنعين بها .
- صديقي حنا نحن بشرٌ أوافقك ، ولكن عندما نمتلك إرادتنا . لقد تنحى الرب بعد أن خلقنا، وأعطانا عقلاً يمكننا من قيادة أنفسنا ، وله فقط أن يحاسبنا فيما بعد إن أخطأنا .

- معلمي ، ضيوفك يريدون لك الخير .
- متأكدٌ من ذلك ، لكن موقفي نهائي ؟
- يا معلم ، ربما أكون بعمر أحفادك وليس أولادك ، مع ذلك أتوجه بالنصح إليك ،والسبب احترامي الكبير لحبك واحترامك لأرضك . وما قصدت إيذاءك من خلال فكرة تغيير رأيك ، فأنا أعرف وأحترم موقفك ، أقصد هل يمكن أن نغير التكتيكك قليلاً في مسألةٍ نعرف فيها رأيك .
- يا بني يا حنا ، هل كان ليفعلها حن بعل ؟
- لا يا معلم ، قالها حنا خجلاً لا يكاد يسمع صوته !
- وهل استسلمت نساء قرطاجة لفجور الرومان ؟
- لا يا معلم ، زاد خجل حنا .
- هل تريدني أن أستسلم للرومان ، أقصد للأمريكان ؟
- تذكرني بعمر المختار يا معلم حين واجه أحفاد الرومان ببسالة :

نحن لانستسلم
ننتصر
أو نموت

صمتٌ تامٌ : ليز لا حياة فيها . بابلو لا صوت له . أنا بدأ العرق ينسكب على جسدي النحيل . حنا شمعٌ يتغير حسب الإضاءة بين الأبيض والأصفر ، وحده الخالد مملوءٌ حيويةً :

يرتفع صوته مع صدى الاحرف الاخيرة ينتشر في كل أنحاء تدمر:

نخلات تدمر

التي سقتها زنوبيا لن تنحني

- صدقت يا معلم ، نحن ضعفاء ، ونحن متأكدون أنك لن تنحني ، لا يليق بقامتك الانحناء .
- لن أنحني ، بل سأضع تاج الشوك على رأسي إن كان لي رأسٌ وقتها.

خرجنا من السجن ،سبقنا أبو يوسف وأبو القعقاع إلى السيارات ، لم تستطع ليز الصمت أكثر :

- حنا يجب أن نتحرك .
- نعم ، يبدو ألا وقت لدينا بعد . عبد المسيح ، أين نحن الآن ؟
- نحن الآن على بوابة القلعة .
- أرى ذلك يا رجل ، أقصد هل هناك منفذٌ من هنا نستطيع من خلاله الخروج بأمان ؟
- سؤالٌ ليس سهلاً ، وإن كان يبدو كذلك ! لكن ماذا أقول .. يغمز ناحية ليز ، إذ كيف يمكنه الحديث بحريةٍ أثناء وجودها .
- ليز معنا يا صديقي ، وهي التي ستنفذ المهمة .
- وهو ينظر بريبةٍ إلى ليز : أية مهمة ؟
- لم يعد السكوت ممكناً ، يجب أن نخرج بخالدٍ حياً خارج تدمر .
- ماذا تقول ، لا بد أنك جننت . ومن أين وإلى أين ؟
- هذا السؤال إجابته عندك ، ليز وأبو يوسف معنا ، يبقى هذا الجاموس القعقاع ، إذا اشتريناه هانت المهمة .
- هناك شيءٌ منطقيٌ في حديثك ، لكن ؟
- لكن؟ رد بابلو بعصبية .
- سيد بابلو ، نحن في حقل ألغام ، لا في حقل تنقيبٍ أثري .
- أعتذر صديقي ، وأعرف ذلك ، لكن يجب أن نتحرك ، فالوقت لم يعد في صالحنا .
- وأنا معك ، ويمكن أن أكون أكثر استعداداً منك لعمليةٍ كهذه .
- يكفي جدلاً يا أخي ، بدأت ليز تفقد أعصابها ، هل هناك إمكانيةٌ في الخروج بخالد من تدمر ؟
- إلى الغرب من القلعة هناك نقاط دوريةٍ فقط ، حيث أن دفاعات التنظيم مركزةٌ على القلعة ، لتتحكم بالطريق القادم إلى تدمر في حال شن الجيش السوري هجوماً عليهم ، لذلك إذا استطعنا تخليص خالد من سجنه ، واتجهنا إلى الجنوب الغربي فسنكون في مأمنٍ من رمايات التنظيم ، وسنقع بين يدي الجيش السوري .
- وهذا ما نريده قالت ليزا .

- هذا ما تريدينه ! غريب .
- ليس غريباً يا صديقي ، قلنا لك ليز من أكثرنا اهتماماً بإنقاذ خالد .
- أجل يا صديقي . ربما أنقذ نفسي بذلك ، وأسدد ثمن خطيئتي من الانضمام إلى الإرهاب.
- أيضاً ، يوجد ممرٌ آخر يمكن أن يكون آمناً . أضاف عبد المسيح .
- أين ، استعجلته ليز ؟
- إذا اتجهنا في مهمةٍ تنقيبيةٍ إلى المدافن التدمرية ، ربما يكون الخروج أسهل .
- كيف ؟ سأل حنا .
- صديقي حنا عندما نكون في المدافن البرجية ، لا يفصلنا الكثير عن النقاط المتقدمة للجيش السوري ، ودوريات تنظيم الدولة أقل هناك .

يبدو أنهم وفي زحمة التفكير بطريقةٍ للهروب بخالد خارج تدمر ، كانوا يفكرون بأنفسهم فقط ، ونسوا أبا القعقاع ، الذي كان مع أبي يوسف بعيدين لا يسمعان شيئاً من حديثهم ، ربما أساؤوا تقدير أهمية هذا الجاموس، الذي لم تعجبه لمتهم ونقاشهم ، فأخبرهم أبو يوسف أنه سمعه يتحدث مع الأمير ، مبدياً خشيته من بقاء هؤلاء الأربعة أمام القلعة بعد انتهاء زيارتهم لخالد ، فربما يدبرون لأمرٍ ما !

ثلاث سياراتٍ مسرعةٍ اجتازت آخر منعطفٍ صعوداً إلى بوابة القلعة ، توقفت بقربهم ، ترجل الأمير من السيارة الأولى ، بادرهم بالسلام ، قابلوه بابتساماتٍ مصطنعةً ،وكأنهم اتفقوا عليها جميعاً :

- إذاً . ما النتيجة ؟ بادر الأمير .
- أتعبنا الزنديق دون جدوى سيدي ، وها نحن نناقش الإمكانات التي يمكن أن تؤدي إلى إقناعه .
- شكراً عبد رب المسيح ، ورأيك أيها التونسي .
- مولانا . يبدو أن عقله حت من حجارة تدمر ، إنه صلبٌ جداً .
- وأنت أيها الإسباني ؟

- ربما نجد مجالاً لإقناعه ، صحيح هو متمسكٌ بأفكاره ، لكن لنعطه فرصة ، ربما يغير رأيه أيها الأمير .
- وأنت أخت ليز ؟
- أنا من رأي زوجي فقط .
- قلتِ لي أنك مسلمة ؟
- الحمد لله .

لم يتابع الأمير النقاش في قضية خالد الأسعد أكتر من ذلك ، طلب أحد مساعديه :

- ليقطع رأس الزنديق غداً صباحاً .
- لا .. صرخ حنا .

نظر الأمير إليه مطولاً ، وبصوتٍ هاديءٍ قال له :

- ألا توافقني الرأي أيها السوري ؟
- لا أيها الأمير ، فأنا سأحزن عليه ، وأغضب من قتله ، هو رجل علمٍ لا يجوز أن يقتل وهو زميلٌ لنا فاسمح لي بها .
- سمحنا لك ، لكننا لن نسمح له ، فليسعد في جهنم ، وضحك الأمير بشكلٍ صاخبٍ ...

الصلب الروماني بنموذجٍ أمريكيٍ إسلامي !

المكان : مسرح ساحة البلدية القديمة في تدمر .

الزمان : صبيحة الثلاثاء 18 آب 2015 .

لكنه ورغم بعد المسافة زمنياً ، فهو يعيد إلى الذاكرة اليوم الذي صلب فيه الرومان واليهود يسوع المسيح .

ساحة تدمر القديمة تحولت إلى مسرحٍ رومانيٍ نصف دائريٍ ، جهته الجنوبية سوداء كالليل ، بينما ملأ أهالي تدمر جهاته الثلاث مدعوين إلى حفلٍ فاجرٍ .

كان الحشد قد بدأ منذ الصباح بالتوافد إلى المسرح، لمتابعة الحفل . الفرق الوحيد بين ما يحدث في المسرح الروماني وما يحدث الآن ، أن الحشد في المسرح الروماني يبقى في حالة هيجانٍ و صراخٍ . أما اليوم فإن الحشد صامتٌ صمت القبور ، فهو على علمٍ بالعرض القادم ، هو مقبلٌ على مشهد قتلٍ لم يحدث منذ قتل الرومان الجدد الشيخ المختار ببربريةٍ لا مثيل لها في ليبيا . وهم اليوم يقتلون الشيخ الخالد .

مجموعةٌ من أصحاب الرايات السود ، تصل الساحة برفقة خالد الذي يوضع تحت تصرف السياف ، بعد أن تليت عليه اتهامات أصحاب الرايات السود له :

تنظيم الدولة الإسلامية

وفي هذا اليوم الثلاثاء

الواقع في الثالث من ذي القعدة لعام 1436

الموافق للثامن عشرمن آب لعام 2015 ،

وبعد ثلاثة أشهرٍ

من توفيق الله لنا في فتح مدينة تدمر

وبعد حوالي شهرٍ من استجواب

المدعو خالد الأسعد الذي يعمل مديراً لأصنام تدمر

والذي رفض التعاون مع تنظيم الدولة

كما رفض الإدلاء بأية معلوماتٍ حول ذهب تدمر

فقررنا قطع رأسه للأسباب التالية :

- **الإرتداد عن الدين الإسلامي .**
- **عبادته للأصنام وليس لله .**
- **موالاته لنظام الأسد السوري .**
- **تواطؤه مع المخابرات السورية .**
- **زيارته لنظام المجوس في إيران**

وتهنئته بانتصار ثورة المجوسي الكبير .

إيلي لم شبقتني ؟

كنت برفقة حنا وبابلو وليز نتابع الحدث إلى جانب الأمير، والواضح أنه دعانا كي نرى يمكن أن يحدث لنا إذا لم نستمر بالتعاون معه . لم يصفق أحد ، ولم يعلق أحد فالصمت كان سيد الموقف ، وحدهم بعض أصحاب الرايات هللوا بأله أكبر ، وانتهى العرض بالطلب من خالد أن يركع ويحني رأسه ليتمكن السياف من قطعه .

نظر خالد إلى السياف بهدوء ، نظر إلى من قرأ عليه التهم بهدوء ، بحث عنا ، لمحنا إلى جانب الأمير ، نظر مودعاً ومشجعاً بابتسامةٍ كانت تملأ فضاء تدمر ، رفع رأسه ليراه كل من حضر العرض الأخير للرومان، جال نظره في تدمر لثوانٍ :

نخلات تدمر

التي سقتها زنوبيا

لا تنحني

رفع السياف يديه الاثنتين إلى الهواء استعداداً لقطع عنق خالد ...

- قف.

يبست يدا السياف في الهواء ، وهو ينظر إلى أمير تدمر مصدر الصوت.

- أيها الزنديق أهبك فرصةً أخرى وأخيرة ، يمكنك من خلالها إنقاذ رأسك .

ابتسامته التي كانت تملأ فضاء تدمر لم تفارقه ، شجاعته النادرة في

تقبل الموت لم تفارقه ، نظرته المشجعة لحنا وبابلو ولي لم تفارقه :

- أنتم تدنسون مملكتي ، لن أخاف منكم ، ولن أخشاكم ! وطالما أنتم تدنسون تراب تدمر المقدس ، فإني لست بحاجةٍ إلى رأسي ...اهنؤوا بقطعه .

- اقطع رأسه أيها السياف .

هوت يد السيّاف الأمريكي ، هو أمريكيٌ من أصلٍ سعودي ، كان ينفذ أوامر الإعدام بقطع الرأس في المملكة الوهابية ، وهو خبيرٌ في ذلك . هوت يد السياف لتقطع رأس خالد وتفصل رأسه عن جسده . استيقظت دموع أهل تدمر ثانيةً بعد آخر ندبٍ وبكاءٍ تم منذ 1745 عاماً عندما رحلت زنوبيا . هل رأوا فيه ظلاً لزنوبيا ؟ هل أعاد السياف زنوبيا إلى مرمى نظراتهم في مسرحٍ مشابهٍ منذ 1745 عاماً في روما !

تفرق الحشد ، علق ذوو الرايات السود جسد خالد مقطوع الرأس على أحد أعمدة الكهرباء في الشارع الرئيسي للمدينة ، مرفقاً بلائحة الاتهام ، وترك رأسه بقرب الجسد ، والنظارات التي كان قرأ و كتب بواسطتها حضارة تدمر ملقاةٌ إلى جانب الرأس .

تسللت ليلاً برفقة حنا ، وحملنا رأس خالد بسرعةٍ كبيرةٍ قبل أن يرانا أحد ، ودخلنا إلى أقرب بيتٍ تدمري ، أسرع صاحب البيت ليساعدنا في دفن الرأس في حديقة منزله .

مرت أربعة أيامٍ بعدها وأنا وحنا نتحين الفرصة لانتزاع جسده من على عمود الكهرباء ، أخيراً تمكنا من ذلك ، وقد ساعدنا صاحب الحديقة التي دفنا فيها الرأس ، بنقل الجسد إلى مكانٍ آخر ، فإذا عرفوا مكان الرأس ، لن يعرفوا مكان الجسد .

أنهى خالد حياته شهيداً كما أراد، خالداً كما تمنى ، حزنت وحنا ، أنه لم ير المشهد الأخير ، وأظن أنه تمنى ذلك ، أن يرى بنفسه آخر مشهدٍ له :

مثبتٌ على الخشبة كما يسوع

وكما رافقت النجوم ملوك سوريا

في مباركتهم ليسوع

كانت سماء تدمر الصيفية مضاءةً

وسبعة نجومٍ تضيء مباركةً خالد

نراه كما يوم زرناه لآخر مرة

يرفع خالدٌ رأسه الى السماء

بكلماتٍ واضحةٍ وروحٍ ساكنة :

أية اقدارٍ شبهتني بك أيها المسيح

ثبتوني على هذا الصليب كي لا أنحني

نخلات تدمر التي زرعتها و سقتها زنوبيا

لا تنحني

تسقط روما تسقط أمريكا

إيلي شبقتني ؟

لتكن إرادتك

***

6
المحاولة السادسة للبقاء على قيد الحياة

لم أكن قد مت بعد .

حفل التأبين مستمرٌ وكلمات تأبيني تتالى .. بعض الحضور مل من الإطالة ، وبدأت الهمهمات، وقتها كان قصف جيش الإسلام التركمان على ريف اللاذقية لا يهدأ ، وكان في كل نهارٍ يحصد قتلى وجرحى .

قبل أن يبدأ صديقي الشاعر أبو أوس أشعاره ، سمع أكثر من انفجارٍ قريبٍ من مقبرة القرية ، وطالب البعض بالإسراع لإنهاء مراسم الدفن قبل أن يتلقوا صاروخاً إسلامياً أو قذيفةً من جيشه .. لكن الشيخ نصور كبير وجهاء قرية الرفيعة ، التي أستلقي في تابوتي مرتاحاً على أرض مقبرتها لم يرض إلا بمتابعة المراسم دون أي اختصارٍ أو إسراعٍ ، ولتحدث مشيئة الله ، بهذا رفع صوته ، لكن صوتاً أقوى منه ، وبمشيئة الله ، والله أكبر ، كان قد صدر عن قذيفة هاونٍ حقيرة ، سقطت على طرف تابوتي المسجى فيه ، إلى جانب حفرة القبر ، فقلبت التابوت بمن فيه - أنا - إلى الحفرة المعدة لي .

- يا أولاد الكلب ، حتى في موتي تتدخلون ، وتسرعون عملية دفني كي لا أنهي قصتي ! .
- أرى أن ننهي هذه القصة هنا ، كان الشاعر أبو أوس في صفهم ، صرخ معلناً : أله يريد ذلك .
- خاف الله يارجل ، رد الشيخ نصور ، وهل ربهم هو ربك! خليك بشعرك ، وخلّ أله علينا ، ياللا شباب رجعوا الأمور كما كانت عليه ، وحضرتك فيك تتابع .

تابع الشباب إعادة الوضع إلى ماكان عليه ، و لم يجرؤ الشاعر على الرد على الشيخ ، فهو يعرف أنه خاسرٌ في هكذا معركةً . مع ذلك لا يسكت ، فقد استطعت سماع شذراتٍ من اعتراضات أبي أوسٍ دون أن يسمعها الشيخ نصور، وقبل أن يتابع:

تصورت وقفته ، وكنت دائم التندر عليه في تلك الوقفة المسرحية ، واستطعت معرفة لون بذته ، وربطة عنقه القرمزية، فقد رأيته بوضوحٍ أثناء شقلبة التابوت ، وإرجاعه إلى ماكان عليه . خمنت نوع العطر الذي لا ينساه في هذه المناسبات ، ولم أستطع تخمين القافية التي رتبها في رثائي ، لكن ما إن بدأ بالشطر الأول حتى قلت :

ـ أكلتها يا أمين يا ابن ساكت المنكود ، وذلك عندما دوّى صوته :

ما كنت أعرف قسوة الدهر

حتى فقدت أميناً المنكودا

منكودا يا ابن الكلب ! والرب لو سمعك ساكت المنكود تقول عنه ذلك لبهدلك أمام خلق الله كلهم ، لكنك تعرف أنه مات فلم تعد تكترث .

كان أبي ساكت المنكود لا يطيق أنواعاً ثلاثةً من البشر: المسؤولين والشعراء والشيوخ . لذلك كان أبو أوس يشعر به عدواً مترصداً لكل حركاته مهما كانت جيدةً !

لكن لم تسألوني لماذا تضايقت ، وكان من الممكن أن يتضايق أبي ، لأني تذكرت وفاة جارنا أحمد المسعود ،وقت كلف أبو أوس بإلقاء قصيدة رثاءٍ له ، كان أبو أوس وقتها يرتدي بذةً رماديةً جميلةً ، غمزني حينها قبل أن يبدأ قصيدته :

وأصعب يومٍ مرّ في العمر

يوم فقدنا أحمد المسعودا

وأذكر أنه يومها تندّر على المرحوم أحمد المسعود الذي كان وجيهاً معروفاً بكلماتٍ مثل : عودا، بليدا ، منكودا ، فرّيدا ...رغم ذلك ، لم تقبل أسرة المسعود إلا بدعوة المعزّين إلى غداءٍ دسمٍ . تنو عت فيه الاسماك التي يحب صديقنا الشاعر البحبشة فيها . وبعد أن بلع أكثر من كيلتين من سمك اللقس والفريدي ، استشعر قائلاً :

وهل بعد الفرّيدة من مزيدا !

يامسكين ترى من سيطعمك السمك الفرّيد هذه المرة ممدوح اللئيم ! أم وفاء البخيلة! أعتقد أنك لن تنال شيئاً مهما تعبت في قافيتك المكرورة هذه المرة ؟ .

سهوت قليلاً ، نمت قليلاً ، صحوت قليلاً ... هاتفٌ يرن ....

***

الغرفة رقم سبعة
المشفى العسكري باللاذقية ...

ميرا تضع سماعة الهاتف على أذني ..

- أهلاً عبد المسيح ، كما توقعنا ، ليرحمه الرب ... كلامك منطقيٌ وصحيح إلى درجةٍ كبيرة ، أجل ياصديقي الأخبار والتحركات تؤكد ذلك ، حاولوا إذاً ، من جهتي سأتصل بالسلطات السورية لوضعهم بصورة الأمر ، وتسهيل مهمتكم ، قبلاتي للجميع .

عندما تصبح المدافن خلاصنا ...

كبرت صداقتي مع حنا وبابلو وليز ، أحببتهم كثيراً ، كبر حزني على معلمي الذي غادرنا منذ ستة أشهر . تركنا ، لكنه قال كلمته ، نتذكره في جلساتنا ، نغار منه ، نحسده على قوته ونخاف من ضعفنا .

في ربيع آذار تتجمل الصحراء السورية ، وتصبح تدمر بواحاتها الخضراء جنةً تليق بها، وتزينها، يصبح للشروق طعماً مختلفاً ، ولخروجنا إلى أطراف تدمر مذاقاً آخر .

قصفٌ جويٌ سوريٌ بدأ منذ أيام ، مع ذلك لم تتوقف مهامنا ، فهي في نظر الأمير أهم من كل مايحدث من قتال : " أحضروا لي الذهب وليحدث بعدها الطوفان " ماكان يهمه شيءٌ آخر ، كنا نتابع عملنا في أطراف تدمر التي لا تتعرض للقصف .

- ماذا يمكن أن نفعل ! أين وكيف !

أسئلةٌ كثيرةٌ كان يطرحها بابلو ، وأجوبةٌ كثيرةٌ لدي ، لكن أيها الأفضل ، أو التي أرد بها على تساؤلاته ، وماهي الأماكن الآمنة في ظروف القصف الجوي !

كنا مجتمعين مساءً في مقر إقامتهم ، كانوا صامتين يفكرون :

- وجدتها . وجدتها ..
- ماذا وجدت يا أذكى واحد بالعالم ! سأل حنا مداعباً .
- لازم تتأكدوا إني أذكى واحد بالعالم ، وما حدا يناقشني رجاءً .
- ماذا هناك يا عبد المسيح ! سألت ليز .
- وجدتها .
- ماذا وجدت يا أذكى واحد بالعالم !
- أظن أن نقطة الضعف الأكبر هي في الجزء القريب من المدافن البرجية .
- وماذا يعني ذلك سأل بابلو .

- يبدو لي من شدة القصف أن الجيش السوري على وشك اقتحام المنطقة ، فقد حدث ذلك أكثر من مرة في أكثر من منطقةٍ حررها العسكر السوري .
- يعني !
- يعني أن نستغل الفرصة ، خصوصاً مع تقدم العسكر السوري المحتمل في مكان القصف الجوي !
- تقصد أن نتجه إلى المدافن البرجية صباحاً سأل حنا !
- تماماً ، يبدو لي أنه آخر يومٍ لنا في تدمر .
- إذاً نعمل من الفجر في المدافن البرجية ، قال بابلو .
- لكن أنت متأكدٌ أن العسكر السوري سيدخل أولاً من هناك ، وليس من جوار القلعة ، سألت ليز !
- دعوني أقول شبه متاكد .
- ما الذي يجعلك متأكداً ! سأل حنا .
- حدسي ، ومراقبتي لعملياتٍ مشابهة للجيش السوري .

وافقني الجميع على الخروج مع الفجر إلى المدافن البرجية جنوب غرب تدمر ، المكان المحتمل لدخول العسكر السوري . مع تحفظات ليز بشأن الحذر من أبي القعقاع ، والانتباه إليه جيداً كي لا يفسد خططنا . طمأنتها :

- كل شيء بوقته حلوٌ !

في الموت حرية .

تحركنا فجر اليوم التالي ، وصلنا إلى المدافن ، دخلناها وبقي أبو يوسف وأبو القعقاع خارج المدافن مع حارسين ، بدأنا عملنا :

- يا لسخرية الأقدار ، صارت المدافن عملاً وأملاً ، قال بابلو ، ومنقذاً لنا من حياتنا المهددة كل لحظة !
- هكذا هي الأقدار دائماً ، لا تسمح لك أن تتوقع مجراها رد حنا .

- هل تظنان أنها ستنقذنا !

لم تنه ليز جملتها حتى حدث ماكنت أتوقعه ، فقد وصلت للتو أصوات القصف السوري من الجو ومن البر. كما وصل على جناح السرعة أبو القعقاع :

- سيدتي الجيش السوري اجتاز موقعنا باتجاه تدمر .
- وماذا يعني ، سألته ليز مظهرةً دهشتها وعدم معرفتها بما يحدث .
- يعني أننا عالقون ، ولن نستطيع الوصول إلى تدمر ، فالجيش السوري سبقنا إلى هناك .
- أجل سيدتي ، العسكر السوري سبقنا إلى هناك ، وصل أبو يوسف بعده ، وهو فرحٌ .
- إرم سلاحك أيها الرجل - بادرته ليز مجهزةً مسدسها باتجاه رأسه .

لا مجال أمامه ، ولا وقت للتفكير ، فقد كان أبو يوسف أسرع منه، التقط بندقيته من يديه ، وبلكمةٍ واحدةٍ طرحه أرضاً، سحب مسدسه من خصره :

- سيدتي اهتمي به كي أحضر الحارسين .
- هل أساعدك أبا يوسف ، قال حنا .
- لا صديقي هما اثنان فقط ، مافي شي بيستاهل .

قيد حنا وليز القعقاع ، ليصل أبو يوسف وهو يقود الحارسين أمامه، مجردين من سلاحهما ، تابع حنا وليز مهمتهما في تقييد الحارسين .

- ما العمل الآن ، سأل بابلو !
- جاء دور أمين ، أجابه حنا .
- أجل ، سأتصل ، تابعت ليز .

لم تبدأ محاولتها الاتصال، حتى رن هاتف حنا في يدها،سبقها أمين :

- مرحباً حنا .. آ آ .. ليز ، أين أنتم ؟
- العسكر السوري يدخل تدمر ، ونحن في المدافن البرجية .

- جيد اطمئنوا إذاً ، لقد أخبرني عبد المسيح بكل شيء ، وأجريت الاتصالات اللازمة ،الوحدات المتقدمة تعلم الآن بوجودكم في المدافن البرجية ، اطمئنوا أنتم بأمان هناك ؟
- أجل أمين صديقي .
- الجميع بخير !
- أجل ، قيدنا الحراس ، وصرنا جاهزين للتحرك .
- إذا إلى اللقاء في دمشق ، وبعدها في لندن .. لا تتأخروا .
- في لندن ؟ أنت جاد أمين ؟
- أجل صديقي وعدت جدياً بالحصول على الفيزا .

كان الثلاثة قد قيدوا الحارسين ، دفعوهما مع القعقاع إلى خارج المدافن البرجية ، صاروا خارج المدافن .

أبو علي آذار

.... وكعادته التي لم يغيرها منذ آلاف السنين ، وفي الأول منه ، استعار أبو علي آذار بضعة أيامٍ من شباط ، رغبة منه بغسل أرض تدمر وتنظيفها من الحثالة التي لوثتها ، فبدأ عواصفه ورعوده ، وكان البعل في سمائه يمده ببروقه وأمطاره ، كانت عناة ترسل المعونة مع رسل البعل ، وكان العسكر السوري يمر بهم باتجاه تدمر مصبحاً ، يبدو أن العسكر يعرفونهم ، لم يسألهم عن هوياتهم ، أو إذا كانوا معفيين من الخدمة أو فارين . بل تابع طريقه لتنظيف تدمر نهائياً في الثاني من أبو علي آذار .

العودة ...

تقدمت منهم لاند روفر عسكرية ، حياهم ضابطٌ سوريٌ شاب ، طلب منهم مرافقته في رحلة العودة ، أمر بالاهتمام بالأسرى ، و بدأت رحلة العودة من الموت ، كان ملاكها الضابط الشاب هو الملازم حسان ، الذي ترك الجامعة قبل نيله شهادة الدكتوراة ، والتحق بالعسكر السوري .

عبر عبد المسيح عن حزنه الشديد :

- آلمني جداً عدم وجود خالد بيننا ، ماذا كان يضيره لو غير التكتيك قليلاً فقط !
- لا يا عبد المسيح ، قالتها ليز ، كان المسيح سعيداً بصلبه ، ولم يتجنب الصلب كان بإمكانه ،لكنه حينها لن يكون مسيحاً ، لن يكون مخلصاً ! إن خالد الآن أسعد ، قالت كلمة أسعد بلغةٍ عربيةٍ سليمةٍ ، مشددةً على حرف العين .
- برافو ليز ، لرأيك وللفظك .
- أظنه أسعد ، تابع بابلو بلهجة ليز . فقد حقق مايريد ولم يتنازل .
- أتعرف خالد الأسعد صديقي حسان ؟ سأل حنا الملازم حسان عندما أصبحنا في طريق عام حمص - دمشق !
- أعرفه جيداً يا صديقي ، وكنت معجباً به بشدة ، فأنا خريج قسم التاريخ في جامعة حمص ، أنهيت الماجستير ، وكنت على وشك مناقشة رسالة الدكتوراه بعنوان " تدمر وطريق الحرير " لقد تعب خالد معي جداً في إنجاز الرسالة ، ودعمني بكل طاقته لإعجابه بموضوعي ، لذلك ما أزال أذكره جيداً ، لقد بكيت كثيراً عندما استشهد .

- هو لم يبك ، ولم يك يريد من أحدٍ أن يبكيه ، كان كبيراً ، أردف حنا .
- ليتني كنت معكم في لقائه الأخير ..

كنا قد اقتربنا من منطقة عسكرية، ودوريات العسكر السوري ، كخلية نحلٍ عندها ، تجاوزناها ، بدأت مشاهد الدمار إلى اليسار :

- أين نحن صديقي حسان ، سأل بابلو .
- نحن على بعد حوالي 20 كلم من العاصمة دمشق ، وترون إلى يساركم مشاهد الدمار التي خلفها جيش الإسلام في عدرة العمالية ، في أقل من عشرة أشهرٍ قضاها في هذه البلدة ، لقد ارتكب أعضاؤه أبشع الجرائم بحق الإنسانية في ضاحيةٍ سكنيةٍ مدنية ، لا

وجود للعسكر السوري فيها . تنكيلٌ قتلٌ ذبحٌ قطع رؤوس ، حرق المدنيين احياءً في الافران ، أشياء لا يصدقها عقل . لذلك كانت ردود أفعال مواطني عدرة على قياس العنف الحاصل عليهم :

فقد فجر العقيد جهاد حامد مخلوف نفسه بالإرهابيين ، وعلى خصره حزامٌ ناسفٌ وقتل عدداً كبيراً منهم . أما العقيد ذو الفقار علي مصطفى ، فقد فجر عدة قنابل يدويةٍ ، واشتبك بسلاحه مع الإرهابيين ، وقتل عدداً كبيراً منهم . العقيد محي الدين الخطيب فجر نفسه بمجموعةٍ حاولت اقتحام منزله بعد أن اشتبك معهم لساعةٍ ونصف الساعة ، وقتل عدداً كبيراً منهم .

أما قمة الشجاعة فكانت للمهندس نزار حسن محلا ، الذي فجر نفسه مع زوجته ميسون وأولاده .
استشهد نزار شامخاً، مضحياً باغلى ما يملك بزوجته وأولاده وبنفسه . كان نزار قد عثر على أربع قنابل يدوية إلى جانب أحد شهداء الجيش ، واحتفظ بها للدفاع عن نفسه وعائلته ، وحين اقترب المسلحون في مواجهة بيته القى نزار ثلاث قنابل عليهم حيث قتل عدداً كبيراً منهم ، قبل أن يفجر نفسه مع زوجته وأطفالهما الأربعة بالقنبلة الرابعة .

- لقد فعل مثل أجداده القرطاجيين ، حين أقاموا أكبر محرقةٍ في التاريخ ، كي يموتوا فيها ولا يقعوا أسرى البربري الروماني، قال حنا .
- صديقي حنا ، تابع حسان ، التاريخ يعيد نفسه ، هذا هو السوري منذ عشتار والبعل .
- لا أكد أصدق أذنيَ ، عندما أسمع قصصكم أيها السوريون ! لا أكاد أصدق أن إنساناً يمكن أن يقتل أولاده مهما كان السبب ، بالطبع أبرر لهم ذلك ، وأفهم خوفهم من الوقوع في الأسر ،والإهانة على يد عدوٍ بربريٍ .
- صديقي بابلو، رد حسان ، لقد تجاوزت جرائم جيش الإسلام في القتل والذبح وتقطيع الأجساد وقطع الرؤوس والاغتصاب والحرق شياً في الأفران ، ما حدث في التاريخ من جرائم بحق الإنسان .

- وهذا مافعلته زوجة هسدروبعل في معبد أشمون في قلعة أليسار العظيمة لقد تحول المعبد إلى نار ، فطهرت نفسها وعائلتها بالنار كي لا تقع في أسر الرومان .
- ومتى حدث ذلك؟ سأل بابلو !
- بعد أن خسر حن بعل معركته ، وترك قرطاجة إلى سوريا لمؤازرة ملكها أنطوخيوس الثالث ...
- إنه الفينيق السوري ، على مر الزمان ، تابع حسان ، يموت لكنه لا بد يبعث من الرماد حياً .

***

عودة الفينيق

لم أكن قد مت بعد تابع كتب بعل :
تابعت الرحلة أنا ولوقيانوس إلى شمال أفريقيا ، وصلنا إلى قرطاجة بعد حوالي 300 سنة من تدميرها وإبادتها وفلاحتها ورش أرضها بالملح كي تصبح عقيمةً .

جدي القرطاجي مهر بعل بقي في قرطاج ، رأى ما يفعل الرومان بالملح الذي يزودهم به ، فقد النطق وغامت عيناه ، وقع على ركبتيه قبل الأرض ، إنها مالحة ، قام ، انتصب ، وبدأ الركض إلى شاطيء البحر، جهز الفلك، والحاجيات التي يمكن أن تلزمه في طريق السفر، غادر برفقة زوجته وأولاده ، استمر بالتجذيف دون انقطاعٍ ، وهو يقطع البحر جرياً نحو الشرق . وصل إلى سوريا . انضم أبنه عذر بعل إلى حن بعل ، بينما تابع جدي جنوباً ، عاش في سلوقية وأنشأ أسرةً كبيرةً أنا أحد أفرادها في العصر الحديث . أما في القرن الثاني الميلادي ، فقد جئت أنا كتب بعل وعاصرت لوقيانوس السيميساطي ، وكان كاتباً مثلي ، فقد هجرت السيف وامتهنت الكتابة .

في تلك السنة هاجرنا سويةً إلى شمال أفريقيا ، وأعيد لم شملنا من جديد في قرطاجة ، وكتبت يومها ذكريات جدنا مهر بعل ، الذي كان يروي للعائلة قصص حن بعل وانتصاراته ومعاركه ، اعتاد ذلك ، صارت رواية الحكايات مهنته ، كان أول حكواتي امتهن هذه المهنة في قرطاجة التي بدأت تتعافى ، لتصبح تونس المعاصرة .

كان ياسادة يا كرام يحكي قصة حن بعل ،وهيسدرو بعل ، وجفنة عناة زوجة هسدروبعل ، و تابع أبناؤه الذين امتهنوا هذه المهنة لمئات السنين، حكايا أبو زيد الهلالي ، وقصص الزير سالم أبو ليلى المهلهل...

... وأما ياسادة ياكرام ، وبعد أن حكينا لكم عن حرب البسوس التي دارت بعد مقتل كليب الأخ الحبيب للزير سالم أبي ليلى المهلهل ، فسنتابع معكم نهاية البطل الهمام أبي ليلى المهلهل ، كان قد كبر في السن فوضع

قومه عبدين يخدمانه ، وفي يومٍ خرج بهما إلى سفر، فعزم العبدان على قتله ، وانتبه إلى ذلك ، فكتب على سرج فرسه :

من مبلغ الحيين أن مهلهلاً
لله دركما ودر أبيكما

فقتلاه ، وعادا إلى الحي ، وقالا بأنه مات ، ولكن ابنته قرأت ما على السرج فقالت: إن مهلهلاً لا يقول شعراَ كهذا ، وإنما هو أراد تنبيهنا أن هذين العبدين هما من قتله ، فكتب هذا البيت الركيك ، وهو غير كاملٍ ، أما ما يقصد من خلاله فهو :

من مبلغ الحيين أن مهلهلاً
أمسى قتيلا في الفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما
لا يبرح العبدان حتى يقتلا

وخرج الجمهور بصوتٍ واحدٍ : الله .

انفرد قبضاي الحارة :

- الله محيي أصلك يازير ، حتى في مماتك قبضاي .

وهيك ياسادة ياكرام ، انتهت أكبر الملاحم الشعبية المعروفة بشكلٍ مأساويٍ ، بس رح تستمر في الحس الشعبي .

لكن الهجوم على قرطاجة كان الأعنف ، لهيك رح أحكي لكم أحلا حكاية سورية ، حكاية حزينة ، حكاية شعب حاول يعمل حضارة للعالم .

يا سادة يا كرام ، منحكي ولا مننام ؟

- أحك يا معلم ، خسا النوم ..

الليلة رح احكيلكم حكاية صارت في المائة الثالثة قبل المسيح ، وهي نقلاً عن جدي مهر بعل ، في ذلك اليوم ، في معبد أليسار ، يقف حن بعل إلى جانب أبيه أمام المذبح، تسكب الخمر ،تتمم جميع الطقوس، يطلب والده من جميع الحاضرين أن يبتعدوا قليلاً عنه ، ثم يقرب حن بعل منه ويسأله بمحبةٍ وعطف:

- هل تريد مرافقتي مع الجيش إلى إسبانيا.

تفرح عينا حن بعل ، ويجيبه فوراً :

- أقبل بفرحٍ عظيمٍ يا أبي، بل أتضرع إليك أن تأخذني معك .

وقتها أمسك هملیقار حن بعل من يمينه ، وقربه من مذبح أليسار :

- أقسم بألا تكون أبداً صديقاً للرومان .
- أقسم بألا أكون أبداً صديقاً للرومان .

وكان معروفاً عن حن بعل أنه لا يحترم يميناً أقسم عليه، ولا يؤمن بالآلهة ولا بالأرباب ، أما احترامه لليمين الذي أقسم عليه أمام والده فقد كان عظيماً : قسمه ألا يكون أبداً صديقاً للرومان .

بعد وفاة والده ، قاد حن بعل جيش قرطاجة العظيم ، وفي أول معاركه ، اتجه إلى روما لتأديبها .يومها رافق جدي مهر بعل ابن عمه القائد حن بعل الذي اجتاز البيرينيه ، انحدر من الألب ومشقاتها وثلوجها إلى الأرض الرومانية ، وانتصر انتصاراً كبيراً على الرومان، فكر بغزو روما، لكنه فضل الحكمة والحذر والانتظار، كان جدي مهر بعل يحثه على الهجوم فلما لم ينفذ هجومه على روما ، قال له جملةً ذهبت مثلاً :

إنك تعرف كيف تنتصر يا حن بعل

لكنك لا تعرف كيف تستفيد من النصر

ولما لم يفتحها واجهه الرومان في قرطاجة ، وبعد 16عاماً من الانتصارات عاد إلى قرطاجة ، يقول أحد المؤرخين عن هذه اللحظة :

" يندر أن يكون رجلٌ عظيمٌ قد تألم ألماً عميقاً عند مغادرته وطنه إلى المنفى ، كما تألم حن بعل عند مغادرته أرضاً عدوةً ، متجهاً إلى قرطاجة. فبينما كانت السفينة تتجه به إلى بلاده ، لم يتمكن من انتزاع نظراته عن الشواطئ الإيطالية التي تغيب عنه إلى لأبد ، وقد انهال باللعنات المريرة ، فاتهم الآلهة والبشر ونفسه، واستنزل اللعنات على نفسه لأنه لم يدك أسوار روما بعد معركة كاني .

يا سادة يا كرام ، لا بد من العودة ، عاد حن بعل إلى قرطاجة ، وهاجمه الرومان في قرطاجة ، وهزموه في زاما ! يومهاالتقى القائدان : سيبيون وحن بعل وحدهما ، ناقشا الأمر وهما على حصانيهما، لم يصلا إلى اتفاق ، عاد كل منهما إلى معسكره صامتاً استعداداً للحرب ، لكن يقال إن اتفاقاً سرياً أبرم بينهما يقضي باحترام كل منهما للآخر ، مهما كانت نتيجة القتال.

هزم الجيش القرطاجي وانسحب حن بعل مع قيادته خاسراً، وانتصر سيبيون ،ماحياً عار روما ، وفارضاً اتفاقيةً مهينةً على قرطاج .

- يا حيف ، يا حيف ... علق أكثر من مستمع ..
- بس ليش انكسر حن بعل يا مولانا ! سأل القبضاي .
- انكسر لأكتر من سبب ،والأهم تخلي أهله عنه في قرطاجة .
- وماذا حدث بعدها لحن بعل يامولانا ؟
- لم يقبلها حن بعل ببساطة ، فقد استولى على السلطة في قرطاجة، وصار متصرفاً مطلقاً فيها ، أعاد تنظيم الجند ، وأصلح المالية وبدأ بتجهيز الناس للقتال ، لكن الأشراف أوقعوا به ثانيةً لدى روما التي اتفقت معهم على تسليمه واقتياده إلى روما .
- يا حيف، ياحرام ياحن بعل، صرخ القبضاي أبو الهجمات، ممتعضاً من سادة قرطاج .
- معك حق يا أبا الهجمات ، كاد الأمر يتم لولا تنبه حن بعل للأمر، فركب البحر ليلاً ووصل إلى صور التي استقبلته بصورة لائقة ، بل رحبت به بالحفاوة التي تليق بأعظم أبنائها : حفيد أليسار ، وبعد أن قضى بضعة أيامٍ مكرماً أسرع بالسفر إلى سوريا حيث اجتمع

بملكها أنطوخيوس الثالث الذي اعتبره رسولاً من السماء ، فهو في مواجهةٍ مع روما. مع ذلك لم ينفذ أنطوخيوس الخطة التي أعدها حن بعل فكسره الرومان .

- حرام ، علق أكثر من متابع للحكاية .
- ومات حن بعل .
- حرام، علق الجميع .
- مات حن بعل في عام 183 ق.م. ياسادة يا كرام ، وبعد تخلي الجميع عنه،وبعد حصار الرومان له ، كان لا بد سيقع في أسرهم ، فماذا كان سيحدث لحن بعل !
- حرام ،حزن الجميع !
- وهيك يا سادة يا كرام ، ما بقا رح نحكي ، لانه رح ننام .

كان الحكواتي أحياناً يترك بطله في لحظاتٍ دراماتيكيةٍ ، وينهي ليلته تاركاً جمهوره في حيرةٍ ،بانتظار تكملة الحكاية في الليلة الثانية بعد الألف، ويبدو أن حكواتينا الليلة ، ونتيجة مقاطعة الجمهور له في أكثر من مكان ، قرر أن يقطع حكايته هنا ، لكن هل سيرضى الجمهور، ومن يسأل عن الجمهور في الحكايات !

وكأن على رؤوسهم الطير، ساد الجمهور صمتٌ قاتلٌ ، كانوا جميعاً يثقون بالحكواتي ، وحكاياته ، وكانوا يصدقونه إلى أبعد مدى ، لكنهم في المقابل تعودوا أن يتركهم في الشدائد والأزمات الصعبة ، ويغلق كتاب حكاياته ، ليترك أموراً خطيرةً معلقة ، لكن لا الأمر هذه الليلة مختلفٌ ، ماذا سيحدث لحن بعل ، ولماذا يتركه الحكواتي معلقاً ، وكيف سينام الجمهور ليلته دون معرفة النهاية :

- هيك كتير يا معلم ، صرخ به أبو الهجمات .
- وتتجرأ علي ؟
- إلا إذا أخبرتنا بما حصل لحن بعل .

كثر اللغط والصياح من جميع الحاضرين :

- نريد أن نعرف ماذا حصل لحن بعل .
- لن أخبركم إلا في سهرة الغد .
- ولن ندعك تمر قبل أن تخبرنا .

- يا شباب حدا يروح عبيت المعلم ، زعق أبو الهجمات ، ويخبر زوجته إنه ما جايي الليلة ، الليلة ليلته هون .
- ولاك ، وتتجرأ .
- لا أتجرأ عليك أبداً ، لكني لن أستطيع النوم إن لم أعرف ماذا حدث مع حن بعل .

لم يتحمل الحكواتي ، بل هجم على القبضاي ، والقبضاي لم يتردد في الدفاع عن نفسه ، مع أنه يستحيل أن يفكر في أذية المعلم ، بعضٌ من الجمهور تمكنوا من الفصل بينهما ، منع البعض القبضاي من المتابعة ، بينما سحب البعض الآخر الحكواتي ، و ساروا معه ، وأوصلوه بأمانٍ إلى بيته .

صمتٌ طويلٌ في المقهى . بعد قليل تحرك البعض للخروج ، لكن أبا الهجمات منعهم :

- انتظروني .
- وماذا ستفعل ؟
- فقط انتظروا ،وسآتي به هنا ثانيةً .
- لن تؤذيه بالتأكيد . قال أحدهم ؟
- لا يا حسن ، أنا لا أؤذي صديقاً .

لم يكن الحكواتي قد بدأ باللقمة الأولى من عشائه حتى سمع أنيناً تحت شرفة بيته ، للوهلة الأولى ظن أن هناك هرةً تتألم ، ازداد النحيب فأقلقه أكثر ، كان يرفع كأسه لرشف البلعة الأولى ، أعادها إلى الطاولة ، خرج إلى شرفة بيته ، نظر أسفل الشرفة ، رجلٌ يضع وجهه بين يديه ، إنه القبضاي أبو الهجمات يبكي .

كم تألم عندما رأى القبضاي يبكي ! كم تألم أنه لم ينه قصته ، لم يهن الأمر عنده ، لم يكن ذلك لؤماً منه ، كان ينوي ترك نهاية حن بعل معلقةً كي لا يحدث ماحدث من حزنٍ وألم . نزل إلى القبضاي مسرعاً وأخذه بحضنه ، صعد به السلم و أدخله بيته :

- صبي كأس عرق لأبي الهجمات يامرا .
- لن أشرب قبل أن أعرف نهاية حن بعل .

تطلع الحكواتي إلى عيني أبي الهجمات الدامعتين الحزينتين ، حزن عندما رأى رجلاً شجاعاً في موقفٍ لا يستطيع فيه فعل شيء !
إذا ما العمل ! خاصةً أنه هو سبب هذا الوضع !

- معك حق خيي ، أنا آسفٌ ، وسأحكي لك عما حدث .
- لا يا معلم ، الشباب ما يزالون في المقهى ، واقسموا ألا يناموا إلا إذا عرفوا ماذ حدث لحن بعل !
- طيب لنحتسي كأساً ثم نذهب .
- لأ يا سيدي ، نأخذ الكأس معنا ، ونذهب .

عندما دخلا ، كان الجميع بالإنتظار ، ويبدو أنهم أحسوا بالمصير المأساوي لحن بعل، فبدؤوا بالكأس الأول،ليلتحق بهم الحكواتي وأبا الهجمات . لم يأخذ الحواتي مكانه المعتاد ، ويبدأ عرض بضاعته ، ولم يفتح كتاب حكاياته كالمعتاد، كان يحفظ الخاتمة عن ظهر قلب، فوقف بينهم:

قرر حن بعل ، ألا يستسلم للرومان الذين حاصروه في سوريا وقرر أن ينهي حياته بيده :

ركب حصانه
سحب خنجره
جرح ذراعه
استقام على ظهر حصانه
بدأ الحصان يركض
بعيداً عن قرطاج مات
على شاطئ سوريا مات

بس حن بعل :

طالما عم نحكي حكايته

ما مات

***

التاريخ يعيد نفسه
قرطاج ثانيةً ..

كان حنا ينظر خلفه إلى الدمار في عدرا العمالية حزيناً ، كان يتذكرأهله ، أهل قرطاج الذين كانوا يزرعون البسمة والحب في البحر السوري، والذين بنوا المعامل والمتاجر لتزدهر المنطقة كلها ، لكن الروماني المتوحش يحب الحرب لا الحب .

- إلى أين وصلت ! سألته ليز .
- لا حرب عادلةً في العالم .
- لم تكن العدالة للحرب يوماً !
- كيف يقتل الإنسان لمجرد القتل !
- ذكرتك هذه المشاهد بقرطاج ،سأله بابلو .
- الدمار والقتل لا يختلفان في أية بقعةٍ من بقاع الأرض . أتتصور أن يرمى أهل العدرا في النار ، بل أتتصور أن يرمي الإنسان نفسه في النار هرباً من الرومان ! هذا حصل في قرطاج ، صديقي بابلو .

كان جدي يحكي لنا ...

- بعد أن مات حن بعل ، ياسادة يا كرام ... صال الرومان وجالوا وطالبوا بتدمير قرطاجة التي بدأت تضعف، طالبوا بإبعاد القرطاجيين عن عاصمتهم ، وعن مرافئهم وتحويلهم إلى شعبٍ زراعيٍ ، ثم تقويض العاصمة من أساسها ، فالحل الوحيد لإضعاف القرطاجيين هو حرمانهم من التجارة ، وتدمير صناعتهم المزدهرة ، وإفناء أسطولهم التجاري .

عندما جاءها وجهاء قرطاجة للتأكد من تنفيذ الاتفاق ، كان رد روما :

- غادروا مدينة قرطاجة وانقلوا منازلكم إلى المكان الذي ترغبون فيه من أرضكم ، شرط أن تبتعدوا عن البحر خمسة عشر ألف مترٍ ، فقد صممنا على تدمير عاصمتكم .

جاء الوفد القرطاجي المؤلف من كبار المجتمع، ليأخذ خبر الطمأنينة والسلام ، فقصفهم الرومان بنعي مدينتهم وحضارتهم ووجودهم كشعب .

وما أن وصل الروماني إلى جملته القاتلة :

" إذ أننا قد صممنا على تدمير مدينتكم .."

حتى صاروا يولولون ويصرخون ويمزقون ثيابهم .

أجل يا سادة يا كرام، وقتها أدركت قرطاجة أنها مهددةً بالزوال ، فاستطاعت أن تجمع إرادتها لتقاتل وتقاوم . واتخذ مجلس الشيوخ قراراً بالدفاع عن المدينة حتى آخر قرطاجي . فبدأ بإعتاق جميع العبيد العاملين في قرطاجة ليزيد عدد المقاتلين ، وأوفد رسولاً إلى القائد هسدروبعل يستدعيه فوراً ، فالبلد بجاجة إلى قائدٍ يعيد وهج حن بعل ، ويطلب منه نسيان الماضي ، ووضع القائد هسدروبعل نفسه تحت تصرف المجلس لإنقاذ الوطن والشعب ، فعاد مع عشرين ألف مقاتلٍ ، كان قد طوعهم في منفاه، وتسلم القيادة العامة . ولأن الشعب كله كان حاضراً ليلبي نداء الساعة الرهيبة ، فقد تحولت المعابد والقصور والصروح الكبرى إلى مصانع عامةٍ بين ليلةٍ وضحاها ، حيث كان رجال قرطاجة ونساؤها، يعملون ليل نهارٍ لصنع السلاح والذخائر ، ولما كانت تنقصهم الحبال فقد جزوا شعور النساء وصنعوا منها حبالاً ، وتحولت الأواني والتجهيزات المعدنية في المنازل والقصور والمعابد أكواماً مصنفةً من المعادن أمام مصانع الأسلحة . فقد قرر الشعب القرطاجي ألا يموت رخيصاً ، بل ميتةً تليق بتاريخه ، وخلال فترةٍ قصيرةٍ وضعت قرطاج تحت تحت أمرة هسدروبعل ثمانين ألف رجلٍ بالسلاح الكامل .

أما ياسادة يا كرام ، وما كان من الرومان، فقد قرروا أخذ المدينة بالمفاجأة ، فتدفقوا إلى داخل المدينة ، لكن المدافعين كانوا شرسين في الدفاع عن مدينتهم ، ورغم أن الرومان أحدثوا ثغرةً في أسوار قرطاجة تدفقوا منها إلى المدينة،فقد واجهتهم قوات قرطاجة وردتهم، وانطلق إثرها هيسدروبعل في أعقابهم ، وقتل منهم الكثير، وصار القتال خارج الأسوار . حيث صفى هيسدروبعل الجناح البحري وألحق أضراراً شديدة بالقوات

الرومانية . لكن الرومان ، لم يهدؤوا ، فهجموا ثانيةً واصطدموا بقوات هيسدروبعل المستميتة في الدفاع عن المدينة ، ليصد الرومان ثانيةً صداً عنيفاً ، ويرغموا على التراجع مهزومين إلى معسكرهم في فوضى عارمة ، أغلقوا معسكرهم الهش خارج قرطاجة ، اتقاءً لهجومٍ قرطاجيٍ عليه كانوا يظنونه ، لكنه لم يحصل للأسف .....

يا سادة يا كرام ، ياسامعين الصوت ، ما الذي يحث !

سيداتي آنساتي سادتي : الذي يحدث أن التاريخ يعيد نفسه ، وكأن حن بعل عاد من جديد، متراجعاً عن دك أبواب روما ! فكما حدث مع حن بعل منذ سبعين عاماً عندما حاصر روما الخاسرة ولم يقتحم أسوارها ، ها هو هيسدروبعل يعيد الحكاية ! إنه لا يتقدم ولا يكر على الرومان في معسكرهم الهش ، وكأنه حن بعل من جديد أمام أسوار روما :

روما مهزومة وحن بعل لا يكر

ويدخل روما ليغير تاريخ العالم !

الرومان اليوم مهزومون

وهيسدروبعل لا يكر ليغير تاريخ العالم !

وكما حصل في روما مع حن بعل ، حصل ثانيةً في قرطاجة ، فبعد أن أضعف هيسدروبعل الجيش الروماني ، أرسلت روما سيبيون جونيور : حفيد سيبيون الكبير ، الذي هزم حن بعل ، هنا ياسادة يا كرام أعاد التاريخ نفسه فعلاً لا قولاً .

لقد كان الجيش الروماني عند وصوله في حالةٍ يرثى لها ، لم يستغلها هيسدروبعل حفيد حن بعل ، فأعاد الرومان الانضباط إلى جيشهم ، ثم وضعوا مخططاً لمحاصرة المدينة ، وحفروا خندقاً يفصل قرطاجة عن البر نهائياً . جاعت قرطاجة ، ويئس جيشها ، وبدأت الأيام والساعات تلتهم كل ما بين أيديهم من مؤنٍ وذخائر .

انطلق سيبيون في هجومه من المرفأ فاحتله بسهولة ، ولشد ما كانت دهشته كبيرة عندما وجد شوارع المدينة الرئيسية خاليةً من البشر . كان ذلك عند الفجر . انطلقت فرق الهجوم تحركها فكرة المغانم والسلب ، سلب المدينة المكتظة بالكنوز ، والتحف النادرة ، والأقمشة الفخمة ، والسبايا الجميلات ، وعند الانتهاء من قتل كل من في الشارع كان الرومان يحرقونه ، ويتجهون إلى الشارع الآخر ليفعلوا فيه كالأول .. أبيد جميع السكان ، واتجه الرومان إلى القلعة التي قاومت سبعة أيامٍ ، وفي اليوم السابع فاوض المحاصرون للتسليم ، مشترطين أن يؤمنوا على حياتهم ، فرضي سيبيون بذلك ، خرج خمسةً وعشرون ألف رجلٍ ، وثلاثون ألف امرأة ، سيقوا إلى معسكرات الاعتقال خارج المدينة .

أما في القلعة ، فقد قرر المحاصرون الذين لم يسلموا أنفسهم ، أن يصنعوا محرقةً جماعيةً كبيرةً ويرموا أنفسهم في نارها واحداً بعد الآخر ، كي لا يتم أسرهم واستعبادهم .

وبعد أن قذف تسعمائة رجلٍ بأنفسهم في النار : تقدمت جفنة عناة ، زوجة هيسدروبعل،التي كانت توصف بأليسار الثانية ، مع زوجها وولديها، وبشجاعةٍ لا توصف دخلت معهم في النار .

عشرة أيامٍ متواصلة ، كانت النار تلتهم عملاقة العالم القديم في غربي المتوسط . تعب الجنود من القتل والنهب والتدمير ،وتعبت النيران من تحويل إنتاج الإنسان الجميل إلى رماد . باع القائد الروماني خمسةٌ وخمسين ألفاً من الفينيقيين في سوق النخاسة التي ارتجلها النخاسون الذين أتوا من جميع أنحاء العالم ليسهموا في تصفية المدينة .

أحرقت المكتبات ، ودمرت المدينة بشكلٍ كامل ، وتمت فلاحة أرضها ورشها بالملح لتمسي عقيمةً .

***

الطريق إلى دمشق آمنٌ ...

3 نيسان 2016

" دمشق ترحب بكم "

بعد ن استقبلتهم السلطات الأمنية المختصة ، بحفاوةٍ كبيرةٍ على غير عادتها ، وقدرت هذه السلطات الدور الكبير الذي لعبته ليز ، حيث أجرت الاتصالات اللازمة مع السلطات الأمنية البريطانية موضحةً كل ما توصلت إليه من معلوماتٍ ، ومؤكدةً أنها تترك مسألة تورط ليز ومساعدتها لاحقاً ، تحت تصرف بلادها ، كي تقرر إذا كانت مذنبةً أم لا وتأمل أن تأخذ السلطات البريطانية وجهة النظر السورية في هذا المجال .

في المديرية العامة للآثار والمتاحف ، استقبلهم د. بسام مرحباً ، واستلم البذور التي جلبوها معهم :

- أشكركم باسم بلدي سوريا على الدور الكبير الذي قمتم به بالشكل الصحيح ، فلم تك مهمتكم سهلة .
- صديقي د. بسام ، كنا مدركين منذ البداية أن المهمة ليست سهلة ، وهذا لم يؤثر علي ولا على بابلو . فلقد اعتبرنا أنفسنا مثل أي مواطنٍ ، بل مثل أي عسكريٍ سوري ، وبفضل ذلك قمنا بالمطلوب ، صحيح أننا تسببنا في بعض الخسارات في منبج ، لكن كان لابد من ذلك .
- أخي حنا ، نقدر ذلك ، ونعلم أنكم لو تصرفتم بعكس ذلك ، لما التقينا اليوم هنا .
- دكتور بسام ، هل تعلم ، لو أن خالد استجاب لنا ، وتصرف بدبلوماسيةٍ ، لن أسميها تنازلاً فلا يليق به ذلك ، لربما كان معنا في لقائنا هنا .
- دكتور بابلو ، عاش خالد حياته صارماً مع نفسه أكثر ماهو صارمٌ مع الآخرين ، إلى درجة أنه يعاقب نفسه لو شعر بخطأٍ ارتكبه .
- كان هذا الشيء واضحاً من خلال لقائنا معه ، تابع حنا .
- سيدتي ، توجه د.بسام بالإنكليزية إلى ليز ، ماهو انطباعك عن بلدنا بعد هذه التجربة ؟

- كم تمنيت أن أكون ضمن وفدٍ سياحي أتنقل من مكانٍ إلى آخر ،كما فعلت أمي منذ سنوات !
- وهل كانت أمك في سوريا ؟
- أجل دكتور قصة طويلة ، يمكنني اختصارها لك إن شئت .
- أتمنى ذلك سيدتي .
- أتصور أنك تعرف أمين المنكود !
- أمين صديق الطفولة لم ينقطع عني أبداً ، مع أنه بين الحياة والموت في المشفى العسكري في اللاذقية ، كان على اتصالٍ دائمٍ معي ، وكنت أعرف كافة تحركاتكم من خلاله .
- هذا يعني أنك تعرف هاني الراهب !
- كان هاني صديقاً مقرباً مني سيدتي .

رنينٌ متواصلٌ لهاتف د. بسام يقطع المحادثة :

- أهلاً ابن السما الأوغاريتي ... الشلة كلها هون ... لا .. لا تزعل .. الكل ينتظرونك ومشتاقون إليك ... الأمور جيدة فقد تعاملت السلطات المختصة بشكلٍ جيدٍ مع ليز ...هههه أي أذكى واحد بالعالم معنا كمان . ... طيب طيب إلى اللقاء في لندن أمين .

أغلق هاتفه ، استكمل حديثه مع ليز :

- أرجو سيدتي أن تنسي ماحدث لك في بلدي ، وننتظرك في ظروفٍ مختلفة .
- للأسف كان يفترض أن تكون زيارتي إلى سوريا ثقافية ، لكنها كانت إرهابية ! قالت ليز بأسى .
- ليز اتفقنا أن ننسى ذلك ، قال حنا ضاحكاً ، لم تكوني مناسبةً لهكذا دولة ، رغم مظهرك المرعب بالأسود .
- وبعد أن خلعت الأسود ؟

اختلف الأمر تماماً ، أجابها حنا ، اقترب منها أمام الجميع ، جثا على ركبتيه أمامها وسط دهشة الجميع ...

- **ليز أتقبلين بي زوجاً**

ليز صامته . الجميع ينظرون إليهما . حنا جاثياً ينظر إلى وجهها منتظراً ردها .

- أفكر أحياناً بقصص سوريةٍ كان حنا يقصها علي ، أشعر أني واحدةٌ منها ، بل أخشى ، ربما أفرح أن أكون واحدةً منها ، فهل ينتهي الحب !
- حبك لا ينتهي .. بحبك ليز . نهض.
- بحبك حنا . أحاطته بذراعين غضين ، ولاقته بقبلةٍ سريعةٍ .

صفق الجميع ، ليعلن د. بسام :

- باسم السلطات الأثرية الممنوحة لي ، أعلنكما زوجاً وزوجة . ليز موافقة ؟
- أجل .
- حنا موافق ؟
- أجل
- لتكن قبلة الزواج في مكتبي ..

تابعاً قبلةً عاشقةً وسط تصفيق الحضور . أمر د. بسام بالشمبانيا ، رغم عدم جواز ذلك في المكاتب العامة ، معلناً أنه سيتحمل مسؤولية العقوبات التي ستفرض عليه ، لأن المناسبة تستحق ، آملاً ألا تطول فترة احتجاز ليز في لندن .

صبيحة اليوم التالي حزموا أمتعتهم استعداداً للرحيل . فقد أنهوا كافة التزاماتهم تجاه سوريا ، كان في نية حنا وبابلو التوجه إلى مسرح قرطاج في تونس ، لاستعادة أحداث وحكايات أسرة حن بعل القرطاجية ، وهذا ما خططا له بالأصل ، لكن الإجراءات الأمنية المتعلقة بتسليم ليز من الأجهزة الأمنية في دمشق ، إلى الأجهزة الأمنية في بريطانيا، وكذلك ترتيبات الاحتفال بتدشين قوس النصر التدمري في لندن ، وإصرار منسقي هذا الاحتفال على حضورهم جميعاً ، برفقة أمين إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، كل ذلك اضطرهم إلى التوجه معا إلى لندن عبر مطار دمشق الدولي .

عندما وصلوا إلى المطار، كانت السلطات قد هيئت الإجراءات اللازمة لسفر حنا و بابلو وليز إلى بيروت ومنها إلى لندن .

***

مطار هيثرو يرحب بكم
الاثنين 11 نيسان 2016

عندما وصلوا مطار هيثرو في لندن ، رحبت بهم السلطات المختصة طالبةً من ليز مرافقة جهاز الأمن ، على أن ألا تتأخر هناك ، وعلى أمل الالتحاق بهم قبل موعد الاحتفال بتدشين نسخة قوس النصر في ميدان الطرف الأغر في التاسع عشر من نيسان .

في العاصمة البريطانية لندن اجتمع حنا وبابلو مع منظمي الاحتفال الذين لم يخطر في بالهم المفاجأة التي هيأها حنا وبابلو اللذان كانا يبحثان عن أصولهما في تونس واسبانيا ، وبما أن تدشين القوس هواحتفالٌ بالسلام الذي سيحل بدل الحرب ، فلا بد من التذكير بمناسبةٍ شبيهةٍ حدثت في اسبانيا منذ 67 عاماً :

أسبانيا مرسم بيكاسو

19 نيسان 1949 .

احتفالاً بالنصر على النازية ، رسم بيكاسو حمامة السلام البيضاء، لتصبح شعاراً للمؤتمر العالمي للسلام بعد الحرب العالمية الثانية ، والذي افتتح في اليوم التالي 20 نيسان 1949 ، في مدينتي باريس وبراغ .

يتذكر الكاتب والشاعر الروسي إيليا إيرينبورغ تلك الليلة :

- كنا نتناول طعام الغداء في مرسم بيكاسو ليلة افتتاح مؤتمر السلام في باريس أنا والشاعر بول إيلوار ، فولدت زوجة بابلو طفلةً سماها بالوما وتعني بالاسبانية حمامة . تحدثنا في البداية عن الحمام وقص علينا بابلو كيف كان والده الرسام يرسم الحمام كثيراً ، ويترك له إنهاء اللوحة برسم سيقانها . كان بابلو يحب الحمام وكان لديه في البيت عددٌ كبيرٌ منها ، قال لنا وهو يضحك : الحمام طيرٌ يحب الشجار، ولا أفهم لماذا يصنف بأنه شعارٌ للسلام ، ثم راح يحدثنا عن حماماته ، وعرض علينا رسوماتٍ شعرنا من خلالها أن :

حمامة السلام البيضاء التي رسمها ستجوب العالم كله طائرةً.

وإذ يذكر بابلو وحنا ، بيكاسو ، فإنهما يذكران بابنته بالوما بيكاسو؟

- وأين هي سأل أحد الحاضرين !
- بالوما تعيش اليوم في روما ، وتقترب من الثمانين من عمرها ، رد حنا ، كنت على اتصالٍ معها ووعدت أن تكون في الاحتفالية معنا، وإضافةً إلى بالوما سيكون أمين فبعد أن تحسن وضعه الصحي، وعدني بالحضور إذا حصل على الفيزا اللازمة لدخول المملكة ، وقد بذلتم جهدكم من أجل ذلك .
- أما المفاجأة فستكون بحضور حمامة السلام نفسها ، الملكة السورية سميراميس .
- سميراميس ! كيف سأل أحد أعضاء اللجنة !
- سيكون ذكرها أقصد ، رد بابلو، فالملكة السورية التي رباها الحمام ، تعتبر الجذر الذي اعتمده بيكاسو في رسم حمامة السلام البيضاء التي انطلقت من سوريا .

- فكرةٌ جميلة ، ولم لا ، قال رئيس اللجنة ، فنحن هنا نعمل جميعاً من أجل السلام العالمي .
- لذلك آمل ، تابع حنا ، أن تكون مناسبة تدشين قوس النصر في لندن احتفاليةً تعطي شارة البدء للخلاص من كافة أنواع الحروب في العالم وإقرار سلامٍ كوني يبدأ تكونه مع انطلاقة الاحتفالية .

أمضى حنا وبابلو بضعة أيامٍ في لندن ، تم خلالها الاتفاق مع منظمي الاحتفالية على كافة الترتيبات وأسماء المدعوّين، بانتظار انضمام ليز إليهما يوم غدٍ في التاسع عشر من نيسان .

***

اللاذقية . 19 نيسان 2016 .

بعد سنتين وتسعة أشهرٍ من دخولي إلى المشفى العسكري في اللاذقية ، أستعد اليوم للخروج منه بنسبة شفاءٍ تقترب من سبعين في المائة ، اعتبرها الطبيب الجراح صفوان نسبةً جيدةً ، واعتبر شفائي خلال هذه المدة جيداً أيضاً ، تبعاً للجروح والكسور والإصابات المختلفة ، فقد قيل لي لاحقاً إني تعرضت لإصابةٍ بالغةٍ من خلال تفجيرٍ كبيرٍ لصاروخٍ أمريكي الصنع ، أدى إلى إصاباتٍ بالغة في أنحاء جسدي ، وإلى استقرار شظيةٍ لامست الغدة الصنوبرية المتعلقة بالوراثة في تلافيف الدماغ ، فساهمت في هروب بعض الأحداث المتخفية في الذاكرة الجمعية وبين تلافيف العقل الباطن ، وقد كان اللا شعوريدفع أحداثاً بين الفينة والفينة إلى العقل الواعي كلما أستيقظ من عمليةٍ جراحيةٍ .

كانت التداعيات والذكريات تتدفق من مختلف الأوقات والأزمنة ، من الذاكرة القريبة والبعيدة ، الشخصية الفردية والجمعية :

أثناء فترات الاستيقاظ ، ومع الزوال التدريجي للمخدر كانت أحداثٌ من أزمنةٍ مختلفةٍ ، ومن أمكنةٍ غريبةٍ ،تتدفق بسلاسة ، وأنا أنتقل من الموت إلى الحياة ، أو أعود إلى الموت ثانيةً .

هذه الحالة تكررت سبع مراتٍ خلال سبع عملياتٍ جراحية ، اعتبرها د. صفوان لاحقاً سبع محاولاتٍ للبقاء على قيد الحياة .

كانت د. راما إخصائية الغدة الصنوبرية تسميهما العقل المدرك المتيقظ لما يحدث والمسيطر على الحدث، والآخر غير المدرك وغير المتيقظ . وكانت تقول عن الآخر ، اللاوعي ، إنه أوعى من أخيه بكثير .

كل ذلك فرض علي أسئلةً كبيرةً ، تتكرر في كل زمانٍ ومكانٍ مع تكرار السؤال الأبدي، الذي نختلف في الإجابة عليه حسب معتقداتنا و أفكارنا :

من أين جئنا وإلى أين نحن ذاهبون

***

7

المحاولة السابعة والأخيرة ...

لم أكن قد متّ بعد

هل أخرج إليهم قبل أن ينهوا نفاقهم ؟ أم أتركهم وأرحل !

لم أكن قد متّ بعد ، وكانت أمامي فرصةً أخيرةً للبقاء على قيد الحياة ، حينها قال مقدم الحفل العريف متأثراً :

كلمة آل الفقيد ، تلقيها الشابة المصون البريئة الآنسة وفاء زوجة المرحوم أمين ساكت المنكود. لم أعد قادراً على الاحتمال ، لم أعد قادراً على سماع شيء ، تركت وصيتي على غطاء التابوت :

" رحمةً بروحي التي سترفرف فوقكم

اقبروني دون تأخير "

وفي غفلةٍ عن الجميع، أغلقت غطاء التابوت عليه .

هل تخليت عنه أم تخليت عني ! هل جبنت في آخر لحظة أم غامرت ! لم أعد أدري .

سمعت الأصوات تتعالى معبرةً عن الدهشة والاستغراب . عندها فقط

ضحكتُ في سري كثيراً وتركتهم يعيشون . قبل أن أتسرب نقطة ماءٍ تروي بذرة قمحٍ عتيقة ، تنزرع في قلب الجزيرة السورية ولا تموت ...

... هل كنت أم لم أكن قد متّ

ابن السما الأوغاريتي

اللاذقية 27-3-2020